

الأهداء

إلى روح أستاذى وصديق :

المرحوم محمد زكى الميرى سنر

مؤسس ورئيس جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية
ومفتى المحاضرات الدينية الإسلامية سادى
الجمعية فى مساء الخميس ٠٨ كل أسسوع
ومفتى مجله مكارم الأخلاق الإسلامية ،

أهدى هذا الكتاب ، وأرجو له الرحمة والثواب ، وإلى الله المرجع والمآب ؟

سكرتير الجمعية ساعفا
على فكرى

الأمين الأول ورئيس الميرى
بدر الكتب المصرية ساعفا

الخاصة فى { ٢ المحرم سنة ١٣٧١ هـ
٣ أكتوبر سنة ١٩٥١ م

كلمة للاستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك

المحاضرة لغة : المجازاة عند الحاكم ، وهى جلوس الخصمين لديه بحيث تكون ركنيتا أحدهما ملاصقتين لركبتي الآخر لينبئ كل منهما بمحجته أمامه ، وهى كالمغالبة والمكاثرة . ومن معانيها : المجازاة ، والمجاللة ، وحاضر الجواب : بجاء به حاضرا .

وقد اتفق أهل عصرنا على إطلاق كلمة المحاضرة على ما ينشئه الأستاذ أو الأديب من موضوعات علمية أو أدبية ويلقيها على حفل من الناس فى ناد ، قاصدا بذلك الموعظة الحسنة ، أو تنوير الأذهان فى موضوع من المواضيع الأدبية أو العلمية .

ولسب بمبدٍ رأيا هنا فى صحة أو خطأ هذا الإطلاق ، لأن فى ذلك خروجا عما نحن بصدد من وضع مقالة على مجموعة من خطب أدلى بها حضرة الأستاذ الأخلاقى الباه على بك فكرى على جبهة من المستعنين فى بعض النوادى الأدبية .

هذه المجموعة القيمة نشبل على أربع وعشرين محاضرة ، ألقيت فى جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية : أربع عشرة منها خاصة بالرجال ، ومثلها - تزيد خاتمة - خاصة بالنساء ، وكلها على غرار واحد من حسن البيان ، وجودة الأسلوب ، وشمول ما يجب الأخذ به من مكارم الأخلاق ، وأحسن الأعمال . ونحن عارضو عناوانات بعض هذه المحاضرات لإدلالنا على أن الأستاذ منسبا قد تخرى أكثر نواحى الضعف فى حياتنا الاجتماعية ، وحللها تحليلًا علميًا ، ومن ما تؤدى إليه من المضاعفات المرضية ، وأتى على ما تالح به من الوسائل ، وما تنفى مضاعفاتها به من الدرائع ، فجاء عمله هذا من ألزم الأعمال للدور الذى تمتاز به الأمة المصرية من فته هذه المدنية المادية التى فتن صحرها العالم أجمع ، فجعل موضوع محاضراته الأولى للرجال (التقوى) ودلل على أنها أولى بحياة الإنسانية من الاستهتار والموبقات . وألم فى المحاضرة الثانية (بالاستقامة) وأثبت أنها سمية النجاح من عوادي الانحرافات ، ومآرم الشهوات . ثم أخذ يبين فى الثالثة أن (الدين) هو الحصن الذى يجب أن يأوى إليه الإنسان لانهاء شرور الحياة الخوانية التى تؤدى به ، وتجرده من جميع مواهبه الملكية التى فيها سعاداته الحقيقية ، وبها وجوده الكريم .

ومضى الأستاذ فى تحير الموضوعات القيمة ، فأتى على أصول المعاملة والحقوق والواجبات ، وطرق اتفاق المال ، بعد أن ذكر وسائل تحصيله . وما رال يقتل من

موضوع إلى آخر حتى تأدى إلى السعادة ، وبين وسائل الحصول عليها ، وجعل خاتمة محاضراته التربية الصحيحة ، التي عليها يتوقف نشوء الأجيال الإنسانية السليمة من الأدواء .

وقد سلك في المحاضرات الخاصة بالمرأة مسلك المربي العارف بمهمته ، فافتتح محاضراته بتاريخ تربية البنات في مختلف العصور ، وهو بحث طريف يقف القارئ على تدرج الجماعات في تربية المرأة والسماح لها بقسط من المعارف يناسب طبيعتها ، ويلائم مهمتها ، من تكثير النوع ، وسياسة الأسرة ؛ وقد أشبع القول في هذا الباب ، وأيد أقواله بالبيّنات .

ولما كان الإنسان في حاجة - بعد أن يعرف نفسه ، ويدرك مهمته - إلى أن يقف على حقيقة المؤهلات التي تمكنه من أداء الواجب عليه في المجتمع الذي أنجبه لم يدخر المؤلف وسعاً في بيان هذه المؤهلات ، والإسهاب في إيضاح وجوبها له .

هذا ، ولم يغفل الأستاذ ما يفيد الدين للمرأة . فتوسع في بيان تقديره لمواهبها ، ونوبه بمكانتها ، وفي التذليل على أن هذه المواهب النفسية والأدبية ، وتلك المكانة الاجتماعية ، لا يمكن أن تتجلى فيها إلا إذا تخلقت بالأخلاق الكريمة ، وسلكت في حياتها الطريقة القويمة ، وهي ما قرّرت لها شريعنا الإسلامية من التربية الصالحة ، والسيرة الطاهرة ، والآداب العالية . وكل هذا عرضه حضرة المؤلف الفاضل أحسن عرض ، وشرحه أوفى شرح ، ونقل فيه من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ما لم يدع مجالاً لمعرض . ولا مقالاً لمعتب .

وقد رأى حضرة المؤلف الفاضل أن الحاجة - وبخاصة في هذا العصر - ماسة إلى نشر هذه المحاضرات لعلها تضع حداً لما يشكو منه القلاء من تدهور الآداب ، وذويع التبرج بن النساء ، وهو ما نهى عنه الشرع ويؤثر في سلامة المجتمع ، ويخرج إلى معضلات عظام . منيت بها قبلنا مجتمعنا ، فزعت أركانها ، وكادت تزوء تحت ألقامها الفادحة ؛ فحمد إلى جمع هذه المحاضرات وطبعها وإذاعتها بين الناس .

فنحن ننوه لحضرة الأستاذ المؤلف بهذه العبرة المحموده ، ونشكره على ما بذله من جهد في إبراز هذا العمل الحسن ، ونرجو أن يكون له من الأثر في العقول والنسوس ما هو به جدير ، وننتي على جهاده المتواصل في سبيل الأخلاق وسلامة الاجتماع ، راجين له التوفيق والنجاح ؟

محمد فريد ومجدي

كلمة

المرحوم الشيخ محمد الحسيني الطواهرى
المدرس بكلية أصول الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نَوَّع طرق الهداية تيسيراً للوصول إلى السعادة ، وأمر الأمة أن تقوم طائفة منها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعل التذكير بالدين مطلوباً لتطهير النفوس من ادران المعاصي « فإن الذكرى تنفع المؤمنين » شرع الخطب الجمعية وجعلها فرضاً وكانت مقام ركعتين ، وما ذاك إلا لأنها دواء لما يقع بين الجمعتين . فسيحانه من إله أرشد السعادين .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين . صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه في الأولين والآخرين .

وبعد : فقد اطلعت على كتاب (المحاضرات الفكرية) للسيد على فكرى . فراق عندي موضوعاً وأسلوباً ، لأنه جمع من المحاضرات ما فيه النفع العجم بأدواب عذب يجذب أربه إلى وجوب التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل . بما وهبه الله من العمل دائماً لما يصلح النوع الإنسانى . وكفى للسيد على فكرى من المحاسن في مؤلفاته العديدة التى جاءت نداء على ما لهذا الفاضل من الأيادى البيضاء في إظهار مؤلفات تجعل عمره باقياً ما دام في الأمة من يظهر هذه المؤلفات ، وإن الله وعد ببقاء النافع وأما ما ينفع الناس فمكث في الأرض) .

أسأل الله أن يطيل عمره في طاعته سبيحانه وإلى مع صحة وعافية ، وأن يمن عليه بالقبول كما هو - إن شاء الله - المأمول .

محمد الحسيني الطواهرى

الزيتون - ضواحي القاهرة

٢٨ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ هـ - ٢٥ إبريل سنة ١٩٤١ م

كلمة

الدكتور الحاج أحمد عارف الوديني

لتحريظ المحاضرات الدينية القيمة التي ألقاها الرجل التقى ، المؤمن للنقى ،
صديقى القديم الأستاذ على فكرى بك فى دار جمعية مكارم
الأخلاق الإسلامية بالقاهرة فى لياليها الزاهرة

لَقَطْتُ الدُرَّ من فيه وَهَبْتُ فى مفاويه
وما أدرى معانى الشعر ألقى أم معانيه
(على فكرى) يحاضرنا فلتسحرنا : نواديه
وما يحتاج للتضرع ينظ (فكرى) أول لتوحيه
وما ينفع تقريظى وأشعارى وتنبهى
فَدَعْ ما قال (صبيان) وكَيْسُ (فى مراقبه
وَدَعْ ما قيل فى (مضى) إذ (الخنساء) ترونه
وَتَحُدْ من فكره دُرًّا حل الأسماع يلقبه
له أصلب مثور لقلب الصَّبِّ يُشجيه
فن (آيات قرآن) هو : الذخر لتاليه
وقول (المصطفى) صلى عليه الله باربه
وأشعار ومثور توسع فى مبابيه
فأهلا بالذى يخرج من فيض أماليه
وأهلا يا (على) بما لهذا الناس مُهديه
وأنتم بالذى أَلْمَسْتَ للكون ومن فيه
بقيت (لعارف) ذخرا وعلم أنت مُنْجيه

الدكتور أحمد عارف الوديني

مصر الجديدة فى ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ هـ .

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فلما كان العرض من المحاضرات هو إلقاء دروس وحظية علمية دينية وأدبية على أفراد المجتمع من الخاص والعام ، الذين يحضرون لسماعها في الجمعيات العامة والنوادي الخاصة ، ليفيدوا منها عظة واعتباراً ، وعلماً وأدباً ودينياً ، فتهدّب نفوسهم ، وتنقف صفوهم ، وتنمو مداركهم . وقد انتشرت الآن المحاضرات في كثير من الجمعيات حتى جعل لها عناوانات خاصة في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، كما انتشرت في المديريات يومياً لحضرات العلماء والأدباء المحاضرات الدينية والأخلاقية . تطبيقاً على بعض السور والآيات القرآنية التي تلامح في (الراديو) بمعرفة حضرات القراء المشهورين وتفسيراً لها .

ولما كان لي حظّ إلقاء بعض المحاضرات في جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية التي أُنشئت بالانتساب إليها ، وقد نشرت في مجلة الجمعية وفي مجلات أنحر كمجلة الإسلام ، ومجلة هدى الإسلام ، ومجلة نشر الفضائل والآداب الإسلامية ، ومجلة النهضة النسائية .

فقد رأيت جمعا لما من الشئ أن أجمعها في كتاب واحد أسميته :

المحاضرات الفكرية

وعهدت بطبعها إلى حضرات السادة أصحاب (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر) .

وأرجو أن يكون من وراء طبع هذه المحاضرات النفع الجزيل لأبناء وادي النيل . والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب .

السيد علي فكري

المراجع

- ١ - مجلة جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية .
- ٢ - ١ الإسلام
- ٣ - ١ هَدْيُ الإسلام
- ٤ - ١ نشر الفضائل والآداب الإسلامية
- ٥ - ١ النهضة القمائية

المحاضرات العلوية في عهد النبوة

ظننت طائفة أن تعليم الناس من طريق المحاضرات في أوقات معينة من صنع المدنية الغربية وتنظيمها ، فأخذت تنفي على أهل الغرب بالخير ، ونذكركم بما نتوهم أنهم دون سواهم أهل له .

ولو اقتصر قول هذه الفتنة على هذا لكان الخطب ، ولكنها توغلت في ذم الشرق وأهله بعنف .

ولما كان هذا غلوًا في غير الحق (والظلو مضموم في كل شيء) رأيت أن أورد ما كان من شأن محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه في تعليم الناس مما جاء في الآثار الصحيحة عسى أن يكون فيه هدًى ونور لمن كلف بالأدب والأخلاق الغربية ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

قال البخاري : حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال : حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل قال : « كان عبد الله (يعني ابن مسعود) يذكّر الناس في كل يوم خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ، قال : أما إني بمنعني من ذلك أني أكره أن أمسككم (يعني أضجركم) وإني أتخوكم بالموعظة (يعني أنعهدكم) كما كان النبي صلى الله عليه وسلم ينحولنا بها مخافة السامة علينا » .

فهذا عبد الله بن مسعود وحبر الأمة الحمدي كان يخرج للناس في كل يوم خميس فيحدثهم وبما همم ويعظهم ، وما كان رضي الله عنه مما ولا في تعاليمه وتذكيره . بل المستمع له بود لو يذكّر كل يوم ، لكنه عليه رضوان الله آثر أن يكون في فنه كما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام .

إنك لتعلم من هذا أن المحاضرات الموقنة قدمة في الناس ، ولا حرج عليك إن قلت إنها من غرس النبوة الصادقة . ولو فكرت لعلمت أن من مكارم الأخلاق التبشير ورك التنفير ، ولو أدى ذلك إلى تقليل الدروس أو تقصير زمنها . والعبادة تجري مجرى العلم ، فلا يجمل بالمصلي ولا بقارئ القرآن أن يكثر من فعله حتى تمل نفسه . فان للنفس انصرافا قد يكون خطراً أحيانا . ولقد ورد في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

هكذا كان السلف الصالح ، فما أبهى رسوم الأولين ، وما أحسن ما كان عليه السابقون الأوّلون ، أنار الله بصائرنا ، وقبض لنا من يبصرنا حتى نرى الحق فتتجرعه وإن كان مرًا .

أولا

المحاضرات الخاصة بالرجال

المحاضرة الأولى :

التقوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، الحمد لله مفيض الرحمة على عباده الصالحين ، الحمد لله الذى وعد بالجنة عباده المتّقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، وجاء بالحقّ المبين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : ففى كل جمعة نسمع الخطيب يقول : اتّقوا الله فى السرّ والعلن ، ولا تفرّوا القوا حش ما ظهر منها وما بطن .

ولما كان كثير من الناس لا يعرف معنى التقوى ولا فضائلها ، أردت أن أجعل موضوع محاضرتى فى هذه الليلة التقوى وما جاء فيها من الآيات البيّنات ، والأحاديث الباهرات ، والحكم والعظات . وبالله دون سواء أستمع ، وعليه أتوكل .

التقوى

التّقوى . وقفى الله وإياكم إليها - هى استئال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه . وقال الإمام على " كرم الله وجهه : التّقوى هى الخوف من إجلال ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل . والاستعداد للرحيل .

وقد حثّ الله تعالى عليها فى آيات كثيرة ، نكتفى بذكر بعضها مع بيان ما يترتب عليها من جزيل الثواب ، وحسن المآب . ورفع الدرجات ، وعظم الخيرات فى الجنات . قال الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله ولتنظرْ نفسٌ ما قدّمتْ لخد . واتّقوا الله إنّ الله خبيرٌ بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسُوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون)

هاتان الآيتان الكريمتان تهديان إلى ثلاثة أمور :

(الأول) الحث على التقوى . (الثانى) الحث على العمل الصالح ، وحاسبة الإنسان نفسه قبل أن يحاسب ، والنظر فيما أدخره من الأعمال الصالحة ليوم معاده وعرضه على ربه ، فالحق علمٌ خبيرٌ بجميع أحوال العالم وأعمالهم ، لا تخفى عليه خافية ، فيجازى عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وفى هذا قلت فى كتابى (آداب الفتى) : يعيش المرء تارةً فى عزٍّ وهناء ، وطوراً فى ذلٍّ وعناء ، ثم ينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وتكون ذكراه من بعده أعماله . أسألك اللهم أن توفقنا إلى ما به تطيب ذكرانا ونحسن سيرتنا .

(الثالث) الحث على مداومة ذكر الله تعالى وعدم نسيانه .

قال جلّ شأنه فى الحث على التقوى ، وبيان ما يترتب عليها من الفوز العظيم ، والتوفيق لصالح الأعمال ، وتكفير الذنوب والخطايا :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا مديداً يوصلح لكم أعمالكم ويفرّكم لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) .

المقصود من هاتين الآيتين : حث المؤمنين على تقوى الله ، وأن يعبدوه عبادة من يسمعون ويأمرهم ، وأن يقولوا قولا سديداً : أى مستقيماً لا عوجاج ولا انحراف عن الحق فيه ، ووعدهم إن فعلوا ذلك أن يذهب عنهم أعباءهم ، وأن يوفقهم للأعمال الصالحة (وأن يغفر لهم الذنوب الماضية ، وما يقع منهم فى المستقبل يلهمهم اتقوه منه) وهو الذى يقبلُ التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

وبعد أن حث الله عز وجل على التقوى وبين ما يترتب عليها من التوفيق لصالح الأعمال وتكفير الذنوب قال : (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) أى ظفر بالخير ظفراً عظيماً سواء فى الدنيا ، أو فى الآخرة .

وقد أشار الله تعالى إلى أن التقوى من أعظم الحصون ، وأنفع الوقايات لصاحبها ، يوم توفى كل نفس ما كسبت بقوله :

(يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زكّرتكم الساعة نسيءٌ عظيمٌ . يوم ترونها تذهل كل مُرْضِعَةٌ عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديدٌ) .

وبعد أن بين الله فظاعة هذا اليوم وعظيم هونته بيّن أحواله وما يحصل فيه من نتائج تلك الأحوال فقال :

(يومَ تَرَوُنَّهَا تُذَكِّرُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَلٍ حَمْلَهَا وترى النَّاسَ سُكَارَى وما هم بِسُكَارَى) أى وقت رؤيتكم لها تذهل كل امرأة مرضعة عن رضيعها لو كان لها رضيع ، وتذهل عنه هول ما ترى ، وتضع كل امرأة صاحبة حمل حملها قبل غامه لو كانت ذات حمل ، وذلك من شدة الهول والخزع والدعر (وترى النَّاسَ سُكَارَى) أى تظنهم كذلك لشدة ما دهمهم من الأمر الذى قد صاروا فيه . فزاهم قد غابت عقولهم ، وفترت أذهانهم ، فن رأهم كذلك ظنّ أنهم سُكَارَى وهم ليسوا بِسُكَارَى فى الواقع ونفس الأمر (ولكنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) .

ثم بيّن لنا أن التقوى تكون سببا فى تكفير السيئات وغفران الذنوب وتنوير الأبصار ، حتى يمكن لصاحبها أن يفرق بين الحقّ والباطل فى قوله :
(يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

ولا جرم أن من رضى الله عنهم رزقهم من ثبات القلوب وتنوير البصائر وحسن الهداية وسلامة الأفكار ، ما يفرقون به بين الحقّ والباطل عند الالتباس ، وكفّر عنهم ذنوبهم فلا يؤخذهم عليها ، وغفرها : أى سترها عن الخلق .

وناهيك بمن رزق رضوان الله تعالى ، ومنح المزيد من كرامته ، فانه يفوز بالسعادة الأبدية . ويُعْطَى الْفَضْلَ الْحَسِيمَ ، لأنه جلّ شأنه صاحب الفضل العظيم . وقال عليه الصلاة والسلام : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن . رواه الترمذى وأحمد .

والتقوى من الأسباب التى تقرب العبد من مولاه ، وتدعو لفلاحه وسعادته بدليل قوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

فالمطلوب فى هذه الآية ثلاثة أشياء :

(الأول) اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه وعماره .

(والثانى) طلب التقرب إلى الله بجميع أنواع البرّ والخير والطاعات والمبادات

وترك المعاصي والموبقات ، وهذا هو المراد من قوله تعالى (وابتغوا إليه الوسيلة) .
 (والثالث) مجاهدة النفس في سبيل الله ، والعمل بشرائعه التي شرعها وسنها لعباده ،
 وذلك بأن يروض نفسه على فعل الخيرات وعمل الطاعات ، ويكبح جماحها عن
 الشهوات والمنهيات ، وقد وعد الله جلّ شأنه من عمل بأوامره ، واجتنب محارمه ،
 وترك نواهيه ، وطلب القرب إليه بالطاعات والعبادات ، وجاهد نفسه بمنعها عن كل
 ما تشبهه - أن يمنحه الفلاح والسعادة الخالدة المستمرة بقوله (لعلكم تفلحون) .
 ثم بيّن لنا سبحانه وتعالى أنّ طاعته وطاعة رسوله ، ومراقبته والخشية منه . سبب
 الفلاح والفوز بالسعادة الأبدية في قوله تعالى :

(ومن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهََ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) أى
 طاعة الله تعالى ورسوله ، والخشية منه جلّ شأنه ، والخوف منه فيما مضى من الذنوب
 وحفظ نفسه من اقترافها في المستقبل - سبب للفوز والسعادة الأبدية ، والأمن من كل
 شرّ في الدنيا والآخرة ، لأن من أطاع الله ورسوله واتباع ما أمرا به واجتنب ما نها
 عنه ، وخشى الله تعالى ، وخاف عقابه ، وتدم على ما فعله من الذنوب ، وراقب
 جانبه حتى لا يقع منه ذنب في المستقبل فارح بحبّ الله وكان له أهلا . قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) .

ومن أحبه الله منحه الفضل الجزيل ، والخير العميم . وأدخله دار النعيم .
 ثم إن التقوى تنجي الإنسان من الشدة والكرب ، وتجعل له من كلّ همّ فرجا .
 ومن كلّ ضيق مخرجا ، وتساعد على اكتساب رزقه من حيث لا يدري بدليل قوله
 تعالى : (ومن يتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

أى من لا يخالف الملك الأعظم ، ويعمل بينه وبين ما يسخطه وقاية بما يرضيه ، وهو
 اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، يجعل له بسبب التقوى مخرجا : أى مخلصا من كلّ
 شدة . قال أبو ذرّ ، قال النّبي صلى الله عليه وسلم « إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها
 لكفهم ، وتلا قوله تعالى (ومن يتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) »
 أخرجه أحمد والحاكم . والمعنى : يجعل له مخرجا من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ومن
 شدائد يوم القيامة . وقال أكثر المفسرين : نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي .
 وقصته كما أخرجه ابن مردويه : هي « أنّ المشركين أسروا ابنا له يسمى
 سائلا ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكى إليه الفاقة . فقال : إن العدو أسر

ابني وجرعت الأم ، فقال صلى الله عليه وسلم : اتق الله واصبر ، وأمرك ولياًها
أن تكثراً من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فقالت المرأة : نعم ما أشار
به رسول الله ، فجعلا يقولانها ، فغفل العلو عن ابهما ، فساق غنم العلو وجاء بها إلى
المدينة فنزلت هذه الآية ، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم تلك الأغنام لهم وأصبحوا
أغنياء بعد أن كانوا فقراء بفضل تقواهم .

وروى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« بينا ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر ، فوالوا إلى غار في الجبل ، فأنحطت على قم غارهم
مضرة فأعطيت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة فادعوا
الله بها لله يفرجها . فقال أحدهم : إنه كان لي والدان شيخان كبيران ، ولي صبية
صغار كنت أربي عليهن ، فإذا رحت عليهن فحلبت ، بدأت بوالدي أمتيعهما قبل
أولادى ، وإنه ناء في الشجر لما أتيت حتى أمتيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما
كنت أحلب ، فمجت بالخلاب فمعت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ،
وأكره أن أبدأ بالصبية ، والصبية يتضاغون عند قدمي (يعنى يصوتون من الجوع)
فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء
وجهك ، فافرج عنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله لهم حتى رأوا السماء .
وقال الثانى : إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال السماء ، فحلبت إليها
تنسها فأبت حتى آتيتها بمائة دينار ، فسمعت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بها ، فلما
فعلت بين رجلها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفسد الخاتم إلا بحقه ، فقلت : اللهم
إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة ، ففرج لهم فرجة .
وقال الثالث : اللهم إني كنت استأجرت أجيراً يفرق أرز ، فلما قضى عمله قال :
أعطني حتى ، فمرضت عليه حته ذرته ورعب عنه ، فلم أزل أزوجه حتى جمعت منه
بقراً وراعياً ، فجاءني فقال : اتق الله ولا تغلمني ، فقلت : اذهب إلى تلك البقر
وراعيا ، فقال : اتق الله ولا تهزأ بي ، فقلت : إني لأهزأ بك ، فخذ تلك البقر
وراعيتها ، فأخذها وانطلق بها ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج
ما بقى . ففرج الله عنهم بفضل تقواهم وصالح أعمالهم ، أخرجه البخارى ومسلم .
والشمس من أسباب تيسير الرزق لقوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له من
أمره يسراً) .

أى من يتق الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه يجعل له من أمره يسرا فى توفيقه
نطاعته . وهى أيضا من أسباب تكفير السيئات وعوها أقوله تعالى :

(ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) .

أى من يخف الله وبغذ أحكامه ويراع حقوقه يمنح عنه سيئاته ، فإن الحسنات
يا هبن السيئات . ونُعَظِّمُ له أجرا بأن يبدل سيئاته - سناتٍ ، ويوفيه أجرها فى الدارين
مضاعفةً ، فيفور فوزاً عظيماً .

وكما أن الإنسان لابد له عند السفر من أخذ الزاد الذى يكفى ، كذلك عند انتقاله
من دار الدنيا إلى دار الآخرة لابد له من زاد ، وخير الزاد هو التقوى .

ثم إن الله تعالى أعد الجنة لعباده المتقين ، وتبين أوصافهم فى قوله :

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت

للمتقين الذين يُنْفِقُونَ فى السراء والضراء والكاظمين الفظ والعائين عن الناس

والله يُدِبُ المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله

فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصبروا على ما فعلوا وهم يعلمون .

أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعيم

أجر العاملين) .

فأصحاب الجنة هم الذين يدلون بالإحسان فى حالتى العسر واليسر ، والشدة والرخاء

فإن من الناس من يدل بالإحسان فى حالة اليسر والرخاء ، ولا يدل فى حالة العسر

والشدة ، وهؤلاء ليسوا من المتقين .

ثم ذكر كيف أذاهم للناس بحس الفظ بالكظم ، وبحس الانتقام بالعفو . فهنا

حالمهم مع خلق الله . ثم ذكر حالهم معه سبحانه وتعالى فى ذنوبهم ، فبين أنها إذا صدرت

منهم قابلوها بذكر الله والتوبة والاستغفار وترك الإصرار . ثم وعدهم الثواب والناود

فى الجنة . وهذا جزاء العاملين على ما قاموا به من أعمال البر والتقوى .

وقد ذكر الله أن الدار الآخرة ليست للمتكبرين القاسين ؛ بل هى لعباده المتقين

فى قوله :

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا ضداً

والعاقبة للمتقين) .

ثم حث على حسن معاملة الأيتام ، وبين أن التقوى تنفع النرية فى قوله :

(وليشتر الذين لو تركوا من حلفهم ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خافوا عليهم فليَتَّقُوا اللهَ
وليَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً) .

وإذا كان هذا أمره سبحانه وتعالى لنا بالإحسان إلى أبناء غيرنا وأن نعاملهم
بالحسن ، فما بالكُم بأبنائنا الذين نسيء معاملتهم بتركهم في ظلمات الجهل حيارى
لأنرشدكم إلى حَسَنٍ ولا نزجرهم عن قبيح ، ونغادرهم لا يعرفون حيلة ولا يهتدون
سبيلاً . فراقبوا الله في أولادكم ، واتَّقُوا يوماً تُرْجَعُونَ فيه إلى الله .
هذا ، والمساوون في جميع بقاع الأرض متساوون ، ليس لواحد منهم على الآخر
فصل إلا بالتَّقْوَى والأعمال ، كما قال تعالى :

(يا أيها الناسُ إِنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارَفُوا إِن
أَكْرَمَكُمْ عند الله أتقاكم) .

أى إن الأكرم عند الله تعالى والأرفع منزلةً لديه عز وجل في الدنيا والآخرة هو
الأتقى . فان فاخرتم فتفاخروا بالتقوى والبر والثروة والحسب والنسب ، فان مدار
كمال النفوس وتفاوت الأشخاص لا يكون إلا بالتقوى ، فن رام العلو فعليه بالتقوى .
أخرج البيهقي وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال « خطبنا رسولُ الله صلى الله
عليه وسلم نى أمام التشريق خطبة الوداع فقال صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس ، إن
رَبَّكم واحد . لأفضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على
أحمر . ولا لأحر على أسود إلا بالتَّقْوَى (إنَّ أَكْرَمَكُمْ عند الله أتقاكم) ألا هل
بَلَّغْتُ ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فايبلغ الشاهد الغائب » .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
« يقول الله يوم القيامة : يا أيها الناس إني جعلت نسباً وجعاًم نسباً ، فجعلت أكرمكم
عند الله أتقاكم ، فأبئتم إلا أن تقولوا : فلان ابن فلان ، وفلان أكرم من فلان ، وإني
اليوم أرفع أرفع نسبى وأضع نسبكم . ألا إن أوليائي المَتَّقُونَ » .

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى . وفي الآية الشريفة إشارة إلى وجه
ردِّ التفاخر بالنسب ، حيث أفادت أن شرف النسب غير المكتسب (وأنَّ ليس للإنسان
إلا ماسع) وأنه لا فرق بين النسب وغيره من جهة المادة لاتحاد ما خلقنا منه ، ولا
أحد أكرم من أحد عند الله سبحانه وتعالى إلا بالتقوى ، وبها تكمل النفس وتتفاضل
الأشخاص . وما ألفت قولنا :

لم يُجِدِكَ الحسب العالى بغير تقى
وابغ الكرامة فى نيل الفخار به
وقله در القائل :

واشدد يديك بجمل الله محتصا
من يتقى الله يحمد فى عواقبه
من استعان بغير الله فى طلب
وقال ابن الوردى :

واتقى الله فتقوى الله ما
ليس من يقطع طرقا بطلا
وقال صالح بن عبد القدوس :

عليك بتقوى الله فالزمها تفز
واعمل بطاعته تنل منه الرضا
وقال أمية بن أبى الصلت فى حال العصاة والأتقياء :

إلهُ العالمين وكلُّ أرض
بناها وابنى سبعا شداداً
وسواها وزيتها بنور
ومن شهب تلالاً فى دجها
وشق الأرض فانبجست عيوناً
وبارك فى نواحيها وزكى
فكلَّ معمر لا يبدُ يوماً
ردنى بعد جدته ويلى
وسيق المجرسون وعمرة
فنادوا ويلنا ويلنا طوبلاً
فايسوا مبتين فيستريحوا
وحلَّ المتقون بدار صدق
لم نأ يشتهون وما تمنوا

وربُّ الراسيات من الجبال
بلا محمد يُرين ولا رجال
من الشمس المضيئة والحلال
مراميا أشد من النصال
وأتهاراً من العذب الزلال
بها ما كان من حرث ومال
وذى دنيا بصير إلى زوال
سوى الباقي المتدمر ذى الجلال
إلى ذات المقامع والنيكال
وعجوا فى سلاسلها الطوال
وكأنهم يمرُّ النار صال
وعيش ناعم تحت الظلال
من الأفراع فيها والكمال

وخطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال في خطبته :
 أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كتاب ،
 فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرم الله على لسان نبيه
 فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاض دائماً ، وإنما أنا متخذ لله ، ولست بمبتدع
 ولكني متبع ، لست بغيركم دائماً وإنما أنا رجل منكم ، ألا وإني أنقلكم حملاً . يا أيها
 الناس إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم ، يا أيها الناس عليكم بتقوى الله ،
 فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، ولا خلف من التقوى .
 وقال المرحوم الشيخ زكي الدين رئيس جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية في أول
 عهدهما :

اتق الله فالتقوى جمال أبواب الكمال ، وشفاء من الداء العفصال . اتق الله فالتقوى
 تقوى ونحظى بما تهوى وتلحظ بالجلال . وليحترص كل منا وفيه بقية ، على أن تكون
 له نفس تقية ، فلن يسعد إلا التقى ، وكل من عداه فهو شقي . واتقوا الله حق تقواه ،
 وراقبوه مراقبة من يسمعه ويراه ، واعملوا للأخرة ، فسيجزى الذين أساءوا بما عملوا ،
 ويجزى الذين أحسنوا بالحسن .

وإني أختم كلمتي بما قاله يحيى بن سعد القلي والمقرئ تذبيلاً :
 عفوك اللهم عنا خير شيء تنمي
 ربنا إنما قد جهلنا في الذي قد كان منا
 وخطئنا وغفانا ولمونا ومجننا
 إن نكن رب أسأنا ما أسأنا بك ظننا
 فأنلنا الحسم بال حصنى وإنعاماً ومنناً

الاستقامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أمرنا باتباع الصراط المستقيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، الذى بعثه الله بالذكر الحكيم .
وبعد . فموضوع محاضرتنا فى هذه الليلة المباركة كلمة صغيرة ذات معان كبيرة فى :

الاستقامة

الاستقامة - وفقى الله وإياكم إليها - هى أن يسير المرء فى طريقه معتدلاً لا يميل مع هوى النفس الأمارة بالسوء .

فالتمييز المستقيم الذى يسير فى طريقه مستقيماً يصل إلى مدرسته قبل التلميذ المعوج السير .

والطالب المستقيم ينال بلا شك رضاً ومحبة رؤسائه ، وعطف أهله وإخوانه ، ويكون ممتازاً .

والاستقامة فى السلوك أساس التقدم ، والوسيلة الأكيدة لجلب محبة الغير واحترامه ، لأن الإنسان لا يكون سعيداً بماله ولا بجاهه ، ولا بمعارفه ، ولا بمحظوظه الدنيوية ، ما لم يكن مستقيماً فى نفسه .

قال أحد الحكماء لولده :

”بَنَى استقيم فالعود تنمو عروقه قوياً ، ويغشاها إذا ما التوى التوى وعاص الهوى المردى فكم من محقق إلى الجوى لما أن أطاع الهوى هوى وقال الله تعالى لنبيه : (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا) إنه بما تعملون بصير “ .

أمر الله تعالى فى هذه الآية الكريمة نبيه صلى الله عليه وسلم فقال (فاستقم) أى داوم على عبادة الله تعالى مع الوثوق به والتوكل عليه ، والقيام له بحق العبودية ،

والوفاء بحق الربوبية (ومن تاب) أى رجع (معلك) إلى طاعة الله ، والعمل بما أمر به ربّه من بعد كفره (ولا تظفوا) أى لا تتجاوزوا ما حده الله لكم (إنه) تعالى (بما تعملون بصير) أى مطاع عليه .

والاستقامة فى المعاملة : هى أن يسعى كل إنسان إلى حقه ، بحيث لا ينجس بحق غيره .

لقد كان النبي^ﷺ يرى حقوقاً عليه لغيره وهو الرسول فإذا سعى كل شخص إلى حقه على خطأ مستقيم فإنه لا يمس حق غيره .
رَبُّ قَاتِل يَقُولُ : إِنْ الْإِنْسَانُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَحْصِلَ عَلَى أَغْرَاضِهِ بِاسْتِعْمَالِهِ الْحِيلَةَ وَالْدِهَادَ وَالتَّصْنَعَ وَالْمَرَاوَعَةَ .

فالجواب على ذلك : نعم يمكنه الحصول على ذلك ، بل الحصول على فوائد عظيمة تستدعى إجهاد الفكر وتعب العقل ؛ ولكن القيام بالواجب بالدقة والضيطة ، والاستقامة أضمن للإنسان فى نجاح الأعمال ، وموجب لراحة البال ، وإسعاد الحال .

وبالإجمال : إن الاستقامة هى الاعتدال فى الأقوال والأفعال والمحافظة على جميع الأشياء التى تكون بها النفس آمنة مطمئنة ، فلا يظهر منها قبيح ، ولا يتوجأ إليها ذم ولا لوم .

وأجل الحلال فيها كمال المروءة ، ونظام الإيمان ، وبها تكتسب الفضائل ، وتساق الرذائل . ونحمد السيرة ونحسن السريرة ، ونعمر البلاد ، ويرتاح العباد ، وبها تنمو الأموال . ونحسن الأحوال ، وفقنا الله وإياكم لاتباعها والعمل بها حتى ينصلح الحال ، فى الحال والاستقبال .

ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المستقيمين وبألفاظ فى إكراههم ومنحهم أعظم ما يكون فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَتَخَفُوا وَلَا تَخْزَنُوا وَابْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ) .
فالاستقامة على طاعة الله . والوقوف عند حدوده ، والالتباط بمواقفه وعهوده ، والانتباه بأوامره ، واجتناب نواهيه ومحارمه حتى لا يراه حيث نهاه ، ولا يفقده حيث أمره . هى الاستقامة المطاوعة التى منح الله صاحبها من الخير أكثره ،

ومن الثواب أعظمه وأكبره ، فنزل عليه الملائكة في حال حياته عند حلول الملمات به ، وتراكم الأهوال عليه ، بما يشرح صدره ، ويدفع عنه الخوف والحزن . وعند الموت تقول له الملائكة : لانحنف مما قلتمت عليه من أمر الآخرة ، ولا نحنز على ما خلفت في الحياة الدنيا من مال وولد وأهل فانا نخلفك فيه . وفي القبر تؤمنه من الأهوال ، وتؤنسه فيه من الوحشة . وحين البعث تؤمنه مما يشاهده من الهول الجسيم والحطب العظيم الذي تشيب له ولدان ، ويفر المرء فيه من الأصحاب والخلائ ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ؛ فتؤمنه الملائكة من هول ذلك اليوم العظيم ، وتبشره بالجنة التي وعد الله بها على أسن الرسل الكرام . وفيها من جميع ما تختاره النفوس وتشتهي . وتقر به العيون وترتضيه . ومهما طلب من أي شيء وجده حاضرا بين يديه .

كل ذلك بفضل الله تعالى ضياقةً وعطاءً وإناءاً منه جزاء استقامته وملازمة طاعته وعبادته .

إن الاستقامة تجاب الخير وتوسع الرزق بدليل قول تعالى (وأن لَوِ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً) .

ولقد حث الله عز وجل على الاستقامة ورغب فيها . وبين أنها جالبة للرزق موسعة له في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى :

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .

ومنها قوله تعالى :

(ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) .

فإن أحسن الاستقامة وما أجلبها للخير وأدركها للرزق .

ولنضرب لكم الأمثال في فضل الاستقامة وفوائدها . وفي أن عدم الاستقامة موجب للحسرة والندامة .

الاستقامة سبب السعادة والسلامة

كان لأحد التجار الأغنياء خادم فطن ، وكان يحبه محبة شديدة لأمانته وحسن سيرته ؛ ففي ذات ليلة سمعه يشكو دهره مر الشكوى . فرق قلبه عليه ، ومالت

عواطفه إليه وجاءه قائلاً : لم تشكو وأنت عندى فى أعظم منزلة ؟ فأجابته : أشكرك يا سيدى شكر العبد لمولاه ، وإنى أشكو سوء حالى وكثرة عيالى ، فقال له : وما الذى يمنعك من أن تكون غنياً وهو فى طاقتك ؟ قال : يمنعنى قلة المال ، فان كان للغنى باب غير تحصيله فدلنى عليه لأطرقه وأعيش آمناً مرتاح البال ، فقال : اذهب فى الغد إلى الساحل تجد هناك الناس مقبلين على شراء مركب من الشاى ، فزد على الجميع واشتره لنفسك ، قال : وهل يتاح لى ذلك وأنا فقير لأملك شيئاً ؟ قال : ذلك لا يهلكك فاذهب وزد على الجميع واشتره وأنا أعينك بعد ذاك ، فبات الغلام ليلته على أحرّ من الجمر ، وما طلع الصباح حتى هرع إلى الساحل ، فوجده غاصاً بالناس وجميعهم مقبل على شراء مركب الشاى ، فاخترق الصفوف حتى وصل إلى الأمام ورفع الثمن ، ولكنه لم يلبث برهة حتى جمع همساً : إن المشتري غلام فلان التاجر الشهير ، فقبل البائع قوله دون أن يفوه بكلمة ، فانتشر الخبر فى كل نواحي البلاد أن التاجر الفلانى الشهير يخزن الشاى ، وارتفعت أسعاره ارتفاعاً فاحشاً . وفى اليوم الثانى قال التاجر لحامده : اذهب وبع الشاى ، فأسرع وباعه بثمن أقلّ من الثمن المتداول حتى باعه فى وقت قصير وربح منه مالاً طائلاً كان سبباً فى سعاده ، وذلك كله بفضل استقامته وحسن سيرته .

هل يستقيم الظل والعود أعوج ؟

لا وحقتك لا يستقيم الظل والعود أعوج ، ولا يقوّم ذهب لايريز خالص ببهرج ، فظلّ العود مثله ، فان كان العود أعوج كان الظلّ أعوج تبعاً له ، وإن كان مستقيماً كان كذلك مستقيماً ، وكما أن الفرس لا يثمر إلا من نوعه ، فالورد مثلاً لا يثمر قطعاً ، والقول لا يثمر زيتوناً ، كذلك الرجل الطيب المستقيم لا يعيب ولا يسعى فى ضرر غيره ، فالرجل ليس هو الجسم الذى تراه ، بل هو الكامة الطيبة التى تخرج من فيه ، والعمل الصالح الذى يصدر عنه . والنفس الحرة التى ملكها . فالرجل يقدر بأقواله وأفعاله . لا بجسمه وماله (وقيمة كل امرئ ما يحسنه) .

عدم الاستقامة سبب الفضيحة والملامة

قال أحد الأدباء : دعنى بعض الظروف للذهاب إلى جهة وزارة المالية . فجلست عند أحد باعة المربطات ، وكان يجانبي خمسة شبان تالوح عليهم غيائل الذكاء

وشرف النفس ، ثم جاء شاب سادس فحيامهم فل يردوا عليه تحيته بل قالوا له بلهجة شديدة تنع عتاً أنها الساقط ، فما أحد منا يريد أن ينتس إليه بوضعها في يلك ، فضى الشاب كاسف البال يتعثر في أذياله ، فأردت أن أستعصر عن السبب الذى حدا بهم إلى مقاطعة هذا الشاب ، فأجابونى : أنه كان فيا مضى حسن السير والسيرة محبوبا من الجميع ، وكنا نستأنس به ونجالسه ، ولكن مع الأسف الشديد عرّف شاباً أكبر منه سناً ، فأغراه وقاده إلى حيث تذبح الفضيلة وتهتك الحرمات ، فزلت قدمه معه في الرذيلة ، فضل طريق الهدى والاستقامة وسلك مسالك التهم والملامة ، وقد اتصل بنا سوء خبره من اثنين من أسرته طالما نصحاء بالإقلاع عن هذه الخطة الشائنة والساوك السيئ فلم يتنصح ولم يرجع إلى سرته الأولى ، وذلك لشدة تأثره بمؤثرات ذلك القرين السوء ، وقد أجهدا أنفسنا معه فلم يظفرا ببيغيمما ، فتوسلا إلينا لعامهما بصدافتنا وإخلاصنا له بأن نوالى نصحه وننقله من مغالب ذلك الشقيّ الفاسد ، فكان حفظنا معه كحفظ قريبه ؛ فلهذا السبب آلينا على أنفسنا أن نركه وشأنه وأن تقاطعه ونبتعد عنه ابتعاد السليم من الأجرب . سمعت هذه الحكاية منهم فأكبرت شعور هؤلاء الطلبة النجباء ، وقلت : يا ليت شعرى متى ترجع النفس عن غيها ، لكنى تذكرت قول الشاعر :

لا ترجع النفس عن غيها ما لم يكن لها عنه زاجر

إن مقاطعة أولئك الشبان الشرفاء المستقيمي السلوك لتلك الشاب له معنى شريف كبير ، لأن مصاحبة مثله يعتبر سيئة لهم ووصمة عار يوصمون بها ، وقرين السوء يشين سمعة قرنائه ، وجدير بأن يُحكّم على هذا الشاب المغرور الفاسد الأخلاق السيئ السلوك بالموت الأدبي والطرّد من مكارم الأخلاق ، فلا يصاحبه فاضل وتكون عاقبته الوبال ، والوقوع في أسوأ حال .

كلمة ختامية

كان يوجد في مصر نى وسط القاهرة سوق للرذيلة ومذبة للفضيلة ، مهواة مشاة بكثير من الزخارف الخدّابة والمناظر الخلابة والأضواء الساطعة والوجوه الخادعة ، يأخذ برّيقها بأبصار الشبان وبصائرهم ، ويسئلون إليها ويتهافون عليها تهافت الجباع على القمصاع ، ثم يزلون عن طهارتهم وعفتهم وكرامتهم ، وغفلون برّد شبابهم القشيب ، وفيه القوة والأمل والمستقبل ، ولا تزال تلعب بهم الأهواء وتتجادبهم

الغايات من النساء ، وتلقفهم الحانات ، حتى إذا لم يعد فيهم من خير ترجيه ، ولا نفع
تبتغيه ، لفظتهم خارجها صُفر الوجوه ، صُفر اليدين ، مرضى الأجسام ، ضعاف
النفوس ، واهنى العزيمة ، لا يصلحون إلا مثلاً للغرور والشرور أو حشواً للقبور .

فن المسئول عن ضياع هذا الشاب في بؤرة الفساد وحمأة الرذيلة ؟ الوالدون هم
المسئولون عن تلك الزهرات الناضرات التي جنت عليها أيدي الباغيات ، واستولت
عليها سموم الحانات ومزقتها الأمراض الفتاكَة القتّالة ، لأنهم لو غرسوا في نفوسهم
حب الفضيلة والاستقامة والخير لما أثمر إلا خيراً ، ولو قبضوا أعتهم قليلاً ومنعهم
عن طرق الفسق والحرام لما استرسلوا فيه ، ولو عرفوا سبيل المعروف لما سلكوا
سبيل المنكر .

أيها الآباء . وأيها الأبناء . اعلّموا أن الشباب نفيس فلا تيموه ، كما قال الشاعر :

آلة العيش صحة وشباب فاذا ولّيا عن المرء وى

أيها الشبان الأعزّاء ، لا تضبّعوا شبابكم وماء حياتكم في ساعة من اللّهُو تذهب
لذتها وتبقى حسرتها . وارثوا بأنفسكم عنها .

أسأل الله أن يحفظنا ويحفظكم ، ويخط أبناء الأمة من الفساد والشرور . وإلى الله
تصير الأمور .

والصلاه والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسام .

مرض الأخلاق وعلاجه

الإنسان في الدنيا معرض للأمراض في أخلاقه كما هو معرض لها في جسمه ؛ فكما أن المريض في جسمه يحتاج إلى الطبيب ليدأويه . كذلك المريض في أخلاقه يحتاج إلى أديب حكيم يعالجه ويدأويه .

ولكن طبيب الجسم يعالج بأشياء مادية محسوسة كالنباتات والأدوية وغيرها . أما طبيب الأخلاق فلا بدأوى بشيء محسوس ، فهو لا يعطى مسهلاً ولا مرهمًا . وإنما ينفث في روحه من الحكم والمواعظ والإرشادات والنصائح ما يهذب تلك الأخلاق وينقيها ويظهرها ويصلح شأنها ، فتسلم من العلل التي كانت بها باذن الله . فيخرج الإنسان صحيح الأخلاق كما يخرج مريض الجسم ناقها من مرضه . فيصبح الغضوب حليماً . والظلم عادلاً . والمعوج مستقيماً . والعاصي مطيعاً . والمبتذل وقوراً . والمتكبر خضوعاً وغير ذلك . كما يصير مريض الجسم سليماً معافى في بدنه . وكثيراً ما يتوهم مريض الأخلاق أنه صحيحها لأنه لا يرضى أن يقر بعيب في نفسه كما يتوهم أو يدعى مريض الجسم . والدواء على كل حال صعب يرغب عنه المريض ويأبى تعاطيه . بل ربما ألقاه على الأرض وادعى أنه تعاطاه مع أنه هو الشفاء له مما هو فيه من الأمراض ، كما قال أحد الحكماء : اصبر على مرّ الدواء حتى يمنّ الله عليك بالشفاء .

كذلك مريض الأخلاق يكره أن يسمع منك نصيحة . فيصمّ أذنيه . ويأوى وجهه عنك معادياً لك مبغضاً إليك . إلا إذا كان فيه شيء من العقل وأهابة للاهتمام والإرشاد . فيأخذ الدواء مع غضاضته . ويصنئ إلى النصيحة مع مرارتها . وربما تعب المعالج في أول الأمر ، ثم وجد من مريضه امتثالاً وقبولاً ، وبذلك يسهل صلاح الحال ويرجي له الشفاء المطلوب .

علاج سوء الخلق

خير للإنسان إذا أراد التخلص من خلق سيئ ، ألا يديم التورط فيه ، وألا يطيل

الأخذ والرد في شأنه ، بل يجتهد في أن ينشئ عمله خلقاً جديداً كريماً ، فإن إطالة التفكير والمخاسبة قد تؤدي إلى انقباض النفس ، والإحساس بضعفها ونقصها وفقدان الثقة بها ، فإن أخذ ينشئ عمل القديم الفاسد جديداً صالحاً ، نشطت نفسه وانفتح أمامها باب الرجاء ؛ فمن كان سكيراً مثلاً لا يظيل التفكير في أنه سكران إلا بمقدار ما يتحوّل عن هذا العمل ، وليوجه همه وميله إلى عمل جديد ، كطالعة كتاب نفس ، أو القيام بعمل عظيم يستغرق وقت فراغه ويسيه سكره . ومن اعتاد أن يضيع أوقاته في بؤر اللهو وفي أندية اللعب ، فليرسم لنفسه خطة جديدة ، ويحبب إليها عملاً مفيداً ، فبذلك يتحوّل عنه الميل السيئ إلى ميل آخر صالح ، وهكذا .

هذا ، وما يرى الخلق ويؤثر فيه تأثيراً حسناً ، معايشة الأخيار من الناس ؛ فالإنسان مولع بالتقليد ، فكما يقلد من حوله في أزيائهم يقلدهم في أعمالهم ويتخلّق بأخلاقهم . قال حكيم : نبشئ عمن تصاحب أننبئك من أنت . وقال الشاعر :

عن المرء لا تسأل ومثل عن قربته فكلّ قرين بالمقارن يقتدى
فعايشة الشجعان تفرس الشجاعة في نفوس الجبناء وهكذا ، وكثير من النابغين يعرفون نبوغهم إلى أنهم وفقوا إلى اختيار صاحب أو أصحاب أثروا فيهم أثراً صالحاً ، ونهوا فيهم قوى كانت خاملة .

وما يرى الخلق ويقوم به مطالعة سير الأبطال والنايفين ، فإن حياتهم تتمثل أمام القارئ ، وتوحى إليه أن يقلدهم ويقتدى بهم . ولم تخل أمة من أبطال ، لا يقرأ القارئ نرجة حياتهم إلا ويشعر بأن روحاً جديدة دبّت فيه وحركة للإنسان بعظام الأعمال .

وكثيراً ما دفع الناس إلى العمل الجليل حكاية قرعوا عن رجل عظيم ، أو حادثة رويت عنه ، كما أن مطالعة الروايات النثرية والقصص الخرافية مما يؤثر في نفوس مطالعيها ، وربما كانت سبباً في فساد أخلاقهم .

وستنكلم في المحاضرة الآتية في سموم الأخلاق ومضارها . والله الهادي لما فيه صلاح الحال .

معموم الأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان وعلمه البيان ، وفضلله على سائر الحيوان ، بالعقل واللسان ، والصلاة والسلام على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، سيدنا محمد المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق .

ويعد : فان الأخلاق عماد الفضائل ، وعليها يتوقف مستقبل الأمم ، فيها تكون الأمة سعيدة أو شقية ، وبها تكون الأمة راقية أو منحطة ، مهما كانت على جانب عظيم من العلم والمعرفة كما قال أمير الشعراء :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فلا يفرح الآباء ولا الأمهات إذا رأوا أبناءهم وبناتهم يسبقون إخوانهم فى العلوم والمعارف ، لأن ذلك لا يفيهم شيئاً إذا لم يكونوا على خلق عظيم ، ماذا يفيد الولد كثرة ما يعرفه من العلوم واللغات إذا كان كاذباً سكيراً فاسقاً قليل الحياء ، وماذا يفيد البنت تعلمها إذا ساء أدبها وتلطخت سيرتها ؟ .

معموم الأخلاق

توجد مواد سامة للأخلاق إذا علفت بأصحابها أصابت منها مقتلاً فى حياتهم الأدبية ، وقضت على سمعتهم وشرفهم ، كما أنه توجد مواد سامة للأجسام إذا دخلت فيها فتكت بها فتكاً ذريعاً وقضت عليها .

ولنتشرح فى هذه المحاضرة بعض المواد السامة للأخلاق فنقول :

الأول : الاختلاط بفاسدى الأخلاق

انظروا إلى الطفل الذى ينشأ بين طائفة منحطة الأخلاق ، أو الذى يعهد فى تربيته إلى النساء والرجال الذين لا يحفظون بالآداب فى عادية بعضهم بعضاً ، أما ترون

أنه يشبّ وقد التقط منهم بذاعة الألفاظ وتخلّق بخلقهم ، واتّصف بصفاتهم ؟ .
وإذا ترعرع واشتدّ ساعده كان من أهمّ المؤثرات في أخلاقه أخلاق رفقائه الذين
يلقاهم في المدرسة . أو يختلط بهم في أوقات اللهو واللعب والرياضة ، فإذا لقي صاحباً
مهذباً اقتبس منه وصار نافعاً لنفسه وللمنّى جسّته .

أمّا إذا اختلط بأصحاب شرّ وقرناء سوء ، انصرف عن التربية الصحيحة وصار شرّاً
ونكالاً على نفسه وعلى المجتمع الإنساني .

وعلى الأخلاق ليست خاصة بالأحداث والشبان ، بل تتعدّاهم إلى الرجال
والنساء . فاختلاط الرجل بالرجل . والمرأة بالمرأة قد يؤدّي إلى الفساد .

وبالإجمال للاختلاط قوة عظيمة التأثير في أخلاق الإنسان . فقرأه من حيث لا يشعر
انقلب إلى الغلظة والحشونة والشراسة متى وُجد بين أصحاب هذه الصفات .

حدثني صديق قال : أعرف شاباً كان في غاية التهذيب ورتقى الأخلاق ، ولكن
ساقه سوء الحظّ إلى الاختلاط بشباب آخر في أسرته اعتاد تناول المسكرات على اختلاف
أنواعها ، فأنثر فيه وجبّ إليه تناول نوع منها على سبيل التجربة ، فما لبث أن وقع
في الشرك . وأصبحت هذه العادة خاتمة في لم يستطع الخلاص منها . رغمّاً عما بذله أهله
من المجهودات في علاجه . ومحاربته للإقلاع عنها . وأخذ يسرف في صحته ويسرف
في ماله حتى تسبّب جسمه وضعفت نفسه ، ولم يعد ينفع فيه النصيح ولا علاج الأطباء ،
وآل أمره إلى الخراب . ومات ضحية هذا الاختلاط الشائن ، والضلال المبين .
ولمّا صدقت السيدة فاطمة بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في قولها (أصلح
نساء نملأه إن لا ترى رجلاً ولا يراها رجلاً) .

هذا ، وليس من المستحيل أن تنوّم أخلاق من يشب وينمو في وسط فاسد وكان
قد تخلّق ببعض خلق الشرّ . فانه إذا أبعد عن هذه البيئة ومنع من اختلاطه بهؤلاء
الذين نهوا وقرى عماله وحسناته بالترية والتهذيب . وبثت فيه روح مكارم الأخلاق
كان من الناجين .

أما إذا ترك في ذلك الوسط واستمرّ في مخالطة فاسدى الأخلاق مع مداركه الضعيفة
يقرأه الكتاب . فلا يكون له نصيب من الخلاص مما هو فيه من سوء الخلق ، اللهم إلاّ
إذا أراد الله به خيراً . وأسرته بتأنيته وهده إلى الصراط السوي .

فالخمر الخمر من مخالطة الأشرار السفهاء وسواك طريقهم ، لأن جفونهم لاتنام إلا إذا عملوا الشرّ وأوقعوا غيرهم في التهلكة .

السعي السعي في اختيار الصاحب ذى الدين المتين . والحسب الشريف ، والرأى السديد ، والخلق الحسن ، ليكون عوناً عند الحاجة ، وأنيساً في الوحشة ؛ ولقد صدق الشاعر في قوله :

واحذر مؤانسة التميم فإنه يعدى كما يعدى الصحيح الأجرب
واختر صديقك واختبره محاذرا إنَّ القرين إلى المقارن ينسب
وقال آخر :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فردى مع الردى
عن المرء لا تسأل وسل عن قربنه فكل قرين بالمقارن يقتدى

الثاني : الكتب الناضرة كالروايات الغرامية

والقصص الخرافية

فالكتب للنفوس كالأغذية للأجسام تختلف وتماوت .
فإنها الطيب النافع ، ومنها الخبيث الفاسد . ومنها ما هو جدير بأن يطبع بماء الذهب .
ومنها ما يستحق أن يمحى بماء النار ، ومنها ما هو عديم النفع عظيم الضرر . بل هو
السمّ الزعاف ينفث في النفوس فيجيت الشعور والإحساس .
وكل كتاب لاخير فيه فضرره أكثر من نفعه ؛ ومن الواجب على كل إنسان
انتخاب الكتب المفيدة التي يكون الغرض من مطالعتها تقويم الفكر وتهذيب الخلق
والتقرب من الله سبحانه وتعالى ، واجتناب الكتب الرديئة المداومة بالخرافات والأكاذيب
المشحونة بآيات العشق والزعم وأحاديث الجبابم والأوهام . لأن في مطالعتها ضياعاً لاوقت
وإفساداً لايعقل يلجأ آراء الحكماء والأدباء .

نعم ، إن اطلاع العاقل على مثل هذه الكتب ربما يزيده عظمة واعتباراً (وربما يجد
الإنسان جوهرة في وسط مزلة) ولكن كل ما يحمل الإنسان يألف الشرّ شرّ ، ومن
حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ومن سلك مسالك التهم اتهم ولا أجر له .
نعم ، يوجد عدد عظيم من الكتب التي تسمّى المرّة قرأها . وترقى أفكاره ، وتنمية
شواغل الدنيا ومتاع الحياة . ويمكنه أن يدخل بها عن مطالعة الروايات، الغرامية

والقصص الخرافية المشتعلة على ضروب المكر والحيل وأنواع اللصوصية والخذاع .
ربّ قائل يقول : ما هي هذه الكتب وأين هي ؟ فأقول له : عليك بدار الكتب
المصرية تجد فيها من أنواع الكتب الدينية والأدبية ما تنفعك قراءته في الدين والدنيا .

وبما أتي أمين هذه الدار ، وعالم بما فيها من الكتب العامة والأدبية يسوعني
إخباركم أن عدد طلاب العلم والأدب قليل جداً ، أما طلاب الروايات والقصص
فعددهم لا يحصى ، وهذا الأمر يدلّ على تدهور الأخلاق في الأمة المصرية .

ربّ معترض يقول : ولماذا وجدت هذه الروايات بدار الكتب ؟
فالجواب على ذلك سهل وبسيط : وهو أنها وجدت حفظاً للتاريخ ولقياس الحركة
العلمية والأدبية في الأمة .

وإني أيسوعني جداً أن أرى كثيراً من الشبان والفتيات والسيدات يهاوتن على مطالعة
الروايات بشغف زائد ، حتى أصبح سوقها في ارتفاع ورواج .

الثالث : الصحف الساقطة

لقد انتشر في جوّ مصر وباء هذه الصحف ، وأصبحت ميداناً خصيباً للطعن والسب
والسفاهة . بل منسرة جامعة لتعليم الرذيلة على اختلاف أنواعها وأشكالها .

ولقد نادى هذه الصحف في غوايتها ، وتطرّفت في حرّيتها ترويحاً لبضاعتها ،
فهى إذن وباء . بل سمّ زعاف يُودى بآداب الأمة وممعتها .

فلو قامت الصحافة بواجبها خير قيام ، لأثّرت في نفوس القراء تأثيراً عظيماً ،
وحسّتهم على الإصلاح . فتقطع الفساد من جذوره ، وتصلح المختلّ من بنوره ،
كما أنها لو حردت عن الطريق السيئ ، وأسادت العمل ، أفسدت الصالح ، وزادت
أشرّ شراً ، وأخلّكت بالنظام العام . وخالفت الأصول والأحكام .

هذه الصحافة الضالّة ، التي ضايتها طلب الربح مما فيه خسران ، لا يهملها صحة الأخبار
أو بطلانها ، ولربما اختلفتها اختلافاً ، وأكثرت من الحوادث استلفاناً لنظر أبنهمور ،
رسارت مع الموى كيفما شاعت .

فهى لذلك جرثومة فساد في الأمة ، وتضرّها ضرراً بليفاً بالسوم التي تنفثها
بأقلامها في نفوس أبناء الأمة .

فعلى الشعب العاقل الرزين أن يعتمد عليها ويمتنع عن مطالعتها حفظاً لكيانه ، وصيانة لأدابه ، والله الموفق لما فيه الخير والنفع لعباده .

الراح : دور التمثيل الهزلى

وقع فى يدى من عهد قريب إعلان عن مسرح جاء فيه (هلموا يا أرباب الخط والطرب إلى سماع ومشاهدة رقص وخلاعة السيدة . . .) وامصبيته ! يقولون للراقصة « سيدى » تارة بالزمار البلدى ، وتارة بالأرغول ، وأخرى على آلات الطرب الونترية ، وهى آية فى الجمال ، وقوة فى التصرف ، وتحريك الرجال ، فتبدع وتنفى بصوتها الرخيم غناء العاشق الولمان (روح يا كروان بلغ سلامى) .
(وهى قطعة غنائية غاية فى الإبداع . . . وترقص الرقص الشرقى على أنواعه ، بمساعدة آנסات شرقيات غاية فى الحسن والجمال ، يتحركن بأجسامهن حركة خفيفة تهز أوتار القلوب) .

لأنى أذكر لحضراتكم هذا الإعلان وأنا فى غاية الخجل والأسف ، ولا أريد به التبريز على غشيان تلك الدور ، بل التشهير بها ، والنهى عن الذهاب إليها . وما يؤسف له أن بعض الجرائد ينشر مثل هذه الإعلانات على صفحاته يومياً طمعاً فى اكتساب الأجر عنها ، وهو لا يبالى بأنه يدعو إلى الفسق والفجور .

فمن ذا الذى يطلع على هذا الإعلان ويكون عنده غيرة على الشرف والأخلاق ومكة من العقل ؟ ولا يحكم بأن فى مثل هذا الإعلان تمريضاً على الفسق والفجور ، وأن هذه الدور دور شر وفساد .

وإنى لألوم أصحاب هذه المسارح فهم طلاب رزق وحياة ، إنما ألوم على الشعب وأرباب الصحف .

فماذا روا أيها الصحفيون أن تلتوا أدبكم فى أسأل الدركات ، وتنافروا على كراتنا وأعراضنا أن تمتحن على أيدي أصحاب قلاء الأور .

ارفضوا باحتقار ذلك المساء الذى يأتىكم أبجراً لإعلان عن سلاح مسموم يصيب صميم قلوبنا .

تنازبوا هذه الخنازى ، واطلبوا من الحكومة بإلحاح مصادرتها ، وازجروا الآباء

والأزواج الذين يسمحون لنسائهم وبناتهم وأبنائهم بدخول هذه البقع ليخرجوا منها وقد أراقوا فيها آخر قطرة من ماء الحياة .

أما أنت أيها الشعب الطيب القلب ، السليم السريرة ، فأعزنى سمعك لحظة أن تبثك بما يبدس لك من السم الزعاف خلال تلك العبارات الباردة ، والمناظر الفتانة ، التي يعرضونها على سمعك وبصرك ليضحكوك ويخدروا أعصابك .

إنك تقصد إلى تلك الملاهي لتقطع جزءاً من وقت فراغك في الترويع عن نفسك فتخرج منها وقد علقت بك الأوساخ والأدران التي تسمم عقلك وجسمك ، تخرج منها وقد ألقت أذنك سماع هجر القول وفاحشه ، وتعود نظرك أن يبصر أشنع صور الفساد والقيح .

وأنت أيها الشباب الناهض عليك أكثر التبعة إذا أنت تهاونت في محاربة تلك المفاسد . فحاربها ، فانها عنوك الذي يضحكك ليضحك منك .

كن أيها الشباب . الناهض قائد الجمهور في طريق الرق والصلاح ، واصعد به أوج الكمال والصلاح . وكن سداً منيعاً يحول بينه وبين السفلة الذين يسلطون على مالك وعرضك .

وأنت يا نساء مصر ، يا أمهاتنا الكريمات ، ويا أخواتنا العزيزات ، ويا زوجاتنا المحبوبات ، ويا بناتنا الغاليات ، أسألكن بحمة الدين والشرف الاحتفاظ بما عرف العالم عنكن من فضيلة وشرف . أسألكن بحمة الفضيلة والعفاف أن تربأن بنفوسكن عن غشيان هذه الممارح الفاسدة ، وأن تزجرن أزواجكن وإخوانكن وأبناءكن من أجل غشيانها ، ففيها سموم الأخلاق وقبر الفضيلة .

الخامس : دور التمثيل الصامت

الصور المتحركة (السينما)

هذه الدور من المحترعات الحديثة التي جاءت من أمريكا وأوروبا . وهي بدعة لاقتل ضرراً عن دور التمثيل الهزلي . بل هي أشد فتكاً منه حيث تعرض فيها الروايات الغرامية بأشكالها الفعلية .

وهي بذلك مدارس عالية لتمثيل الرذيلة ، حيث ترى المرأة ما لم تكن تراه من قبل

من ضروب الخلعة ، وأساليب الغواية ، وغير ذلك مما ترغب فيه المدنية الغربية الحديثة ، فلا يعود النساء من هذه الحفلات إلا وقد تأثرت نفوسهن من رؤية المناظر المهيّجة المحركة للعواطف والشعور ، مما يتندى وجهه الحياء خجلاً منه ، كما أنه لا يعود الرجل أو الشاب منا إلا وقد علقت نفسه بحوادث ومناظر تأخذ بلبّه وتؤثر في مجموع أعصابه . وفي هذا من الخطر الأدبي على مجموع الأمة المصرية ما لا يتحى على كل عاقل ورشيد .

أسأل الله لي ولكم العافية ، وأضرع إليه تعالى أن ينير بصائرنا حتى نرى الحق حقاً ، والباطل باطلاً ، وأن يملأ قلوبنا بحب الحق حتى نعمل به وله ، آمين .

التربية الاخلاقية وأثرها في ارتقاء الأمم

التربية الأخلاقية هي المقياس الصادق الذي تقاس به خطوات الشعوب ومضات الأمم ، بل هي الأساس المتين الذي تبنى عليه عظمة الأمم وارتقاؤها ، فارتقت أمة في العالم القديم والحديث إلا وكان سبب ذلك سمو أخلاق أفرادها ، وقناعتهم واقتصادهم وحبهم الناس بحسبهم أنفسهم ، وإخلاصهم في العمل لوطنهم ، وانتشار روح النشاط والإقدام بينهم ، وعدمهم عن التخر والرياء والبسائس والفتن ، وتفورهم من الانقسام والمخاصمة .

قال لوتر : ليست سعادة البلاد بوفرة إيراداتها ، ولا بقوة حصونها ، ولا بجمال مبانها ، وإنما سعادتها بكثرة المهذبين من أبنائها وعلى مقدار الرجال ذوى التربية والأخلاق فيها .

وما انحطت أمة ولا أقل نجم مجدها ، وزال سلطانها إلا بزوال تلك الأخلاق القاضية من نفوس أبنائها وانغماسهم في الشر والفساد .
والأدلة على ذلك كثيرة : انظر إلى الدولة الرومانية القديمة التي أخضعت العالم القديم ، وامتدت شوكتها إلى غالب ممالكه ، تر أن الأخلاق الكريمة كانت سبب رفعتها ، وأن الترف والفساد كانا سبب انحطاطها .

والتي مى نظرة أخرى إلى الدولة العربية بعد ظهور الإسلام ، دين العلم والأخلاق الحسنة . ببلاد المشرق ، وبلاد الأندلس ، تر أنها قد بلغت بين الأمم أسمى ما تصبو إليه نفوس الشعوب الناجدة ، حتى كانت جنة هذا العالم ، وزينة الحياة الدنيا ، وأضحت زامطة عقد حضارة العالم ، والأرة المشرقة في جبين الأيام ، وكعبة طلاب العلوم والآداب ، فاستد سلطانها ، وعلا كعبها وزها نجمها ، وكل بدرها يوم كانت تذر ليوية الحضارة على جميع العالم ، وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان .

لم تزل الأمة العربية كذلك حتى دب ديب الفساد الأخلاق في نفوس أهلها ، وتبلى إلى الخضمس مرفوها ، فحنت عليهم كلمة ربك (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترغيبها ففهموا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) .

حقاً إن أمراض النفوس لأشدُّ فتكاً بالشعوب وأسرع إبادةً للأمم من أمراض الأجسام . ومن نظر في تاريخ الأمة المصرية قديماً ، رأى أن الفضل في تقدُّمها وعظمتها راجع إلى الأخلاق الكريمة التي كان عليها سلفها .

كتب مسيو (بورجييه) الذي كان يرافق العالم الأثري (شمبليون) في سنة ١٨٢٢ بمصر فيها كتب هذه الكلمة :

رأيت الأمة المصرية بالرغم من كوارث الزمان ، وحوادث الدهر التي لو نزلت بأكبر الأمم لقصمت ظهرها ، وأفنت وجودها ، رأيتها على جانب كبير من مكارم الأخلاق والشيم والإباء ، فهي تبسم للعاملين الصادقين من أي جنس كانوا ، كما تبس في وجوه الأشرار ، وتقابل المثل بالمثل ، ولقد قوى هذا الخلق الكريم عند ما تجمل به واليا « محمد على باشا » العظيم ، من إكرام الغرب ، المجدِّ النافع ، وأصبح الاعتراف بالجميل لدى المصريين لدرناً وحكماً .

ومن نظر إلى حالتها الآن ، رأى بعين الأسف أن السبب في تأخرها وانحطاطها راجع إلى عدم الأخذ بتلك الأخلاق الفاضلة ، واتباع معظم أفرادها داعي الشهوات والمنكرات .

لو نظر الإنسان إلى الحركة العلمية يسرّ ويفرح بهذه النهضة القائمة بنشر العلم بين أفراد الأمة المصرية ، ولكن لو مال ببصره إلى الحالة الخلّقة التي عليها الأمة (لرجع البصر خاسئاً وهو حسير) .

يقولون إنه ينقصنا العلم لمباراة الغربيين واسترداد مجد مصر القديم . وهو قول وجيه ، لأن العلم النافع هو الذي يثقف العقل . وينمي الفكر ، ويبعث الذهن على البحث والاختراع والاستكشاف ، وهو قوة لا يستهان بها . ولكن ينقصنا أيضاً ما هو أقوى وأعظم من العلم . ينقصنا الأخلاق التي هي أئزَم لحياة الأمم ورقِيَّتُها من العلم كما قد تنبتا . إذ لو عملنا على نشر العلم فقط . وأصبح المصريون كلهم علماء ، وهم على ما هم عليه من النقص الخلقى ما وصلت الأمة إلى المجد الحقيقي الذي يرفعها ويعلّي شأنها . ولا تصل إلى الاستقلال الحقيقي الذي يرجوه لها كلّ محبّ مخلص لبلادها ، فنحن وإن كنا في حاجة إلى العلم عشرين مرة ، فحاجتنا إلى الأخلاق عشرون ألف مرة .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : تعلّموا العلم ، وتعلّموا للعالم السكينة والحلم .

وقال العالم الأخلاق (صمويل ميميلز) : إن العلم يجب اقترانه بالخير ، فربّ عالم أقلّ من جاهلٍ أمانة وفضيلة وأخلاقاً وعملاً بالواجب . وقال (جورج هوبرت) الشاعر الإنجليزي : الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة .

ألا ترى بعد هذا أن العلم لا يفتنى عن الأخلاق . ومن تأمل بعين الحق المجردة عن الهوى في مواضع الضعف في الأمة المصرية وجدها كلها أخلاقية ، ورأى أخلاقنا في الفردية والاجتماعية دلائل النقص الخلقى تكاد تكون ملموسة باليد ، لو أردنا أن نشرح النماذج الأخلاقية المنتشرة في الأمة لضاق بنا المقام . على أن في سردها إثارة للنفوس وتبيهاً لنخاطر . فأسكتنا عن ذكرها إشفاقاً على القارئ ، وعافظة على مكارم الأخلاق ، فإذا أردتم إصلاحاً وهدى لأمتنا المصرية العزيرة فاجتهدوا في تربية أخلاق أبنائها وتخليصها من بوائق الفساد . وذلك بفكر الدين بجانب معاهد التعليم ؛ فالدين هو روح الأدب . ومنتج الأخلاق الصحيحة المنزهة عن الهوى والمطامع الشخصية .

الدين هو الأساس المتين للتربية الأخلاقية في الشرق قاطبة ، فالشرقيون يخالفون الغربيين في تغلب عواطفهم على عقولهم . والدين موطنه العواطف ، ومركزه الفؤاد ، فأنشأ كثر الشرق من قديم الزمان مهبط الأديان ، وموطن الأنبياء والمرسلين . ولئن جاز بعض الأمم نغرية تجريد التربية الخلقية من روح الدين ، فلا يجوز لأمة شرقية كالأمة المصرية أن تسير على هذا المنهج . لأن الوازع الديني ، والرجوع إلى خالق قادر ، خالق الكائنات . وافق على السرائر المدفونة في أعماق القلوب ، أقوى عامل في إصلاح الأخلاق . بل هو الأساس الوحيد لنجاح الأفراد وعظمة الأمة .

هذا بغرض شريف قامت جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية ، فهدرت شققها حيناً ثم قرأت . والآل قد عادت اشفتها .

والله أن يتخذ بيدها . وأن يوفىها إلى إصلاح الموج من أخلاق الشبيبة المصرية ، وأن ينهيا إلى طريق الخير والصلاح آمين .

الحقوق والواجبات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تنزهه عن الولد والصاحب . وأمرنا باتباع الحقّ وأداء الواجب .
والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله الله شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً
إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى آله وصحبه والتابعين .
وبعد : فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وأمرهم بالعمل والسعى فى الحياة .
فقال تعالى :

(وقل اعلموا فدى الله عَمَلَكُمْ ورسولهُ والمؤمنون) .
وقال عليه الصلاة والسلام : « اعملوا فكلٌ مُمِسَّرٌ لما خُلِقَ له » .
وجاء فى الأثر : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . واعمل لآخرتك كأنك
تموت غداً .

فكان حقاً على كلِّ مخلوق أن يعمل عملاً يدلّ على وجوده فى الحياة . وأن يقوم
بأداء الواجب المفروض عليه ، ليكون سعيداً فى الدنيا والآخرة .
ومضى نظرنا فى أحوالنا ، وجدنا أن سبب تأخرنا هو عدم معرفتنا حقوقنا . وجعلنا
بالواجبات لغيرنا .
ولذا جعلت موضوع محاضرتى فى هذه الليلة :

الحقوق والواجبات

ولنبداً بالتكلم على الحقوق فضول وبالله التوفيق :
الحقوق : هى التى تكون للإنسان على الغير . والواجبات هى التى تكون على
الإنسان للغير . فى عرف كلِّ إنسان ما له من الحقوق . وما عليه من الواجبات .
عاش عيشة راضية مطمئنة ، ومات مرتاح الضمير .
للإنسان حقوق طبيعية ، وحقوق قانونية شرعية :

فالحقوق الطبيعية : هي التي حصل عليها الإنسان من طبيعته . وبعبارة أخرى : هي التي منحها الله للإنسان منذ وُلد ، وليس القانون الوضعي هو المانع لها .
أما الحقوق القانونية أو الشرعية : فهي التي منحه إياها قوانين البلاد ، مثل حق البيع ، حق الشفعة ، حق الارتفاق ، حق الانتخابات وغيرها ، وهي خارجة عن موضوع بحثنا في هذه المحاضرة . فلتكلم في الحقوق الطبيعية للإنسان .

الحقوق الطبيعية

الحقوق الطبيعية للإنسان : هي حق الحياة ، حق الحرية ، حق المساواة ، حق الملك ، حق التربية والتهذيب .

١ - حق الحياة

لكل إنسان الحق في الحياة ، وعليه أن يحفظ حياته ، ويقضيها في أحسن الأعمال التي تنفع الناس جميعاً . وعلى الناس أن يحرموا هذا الحق ، فلا يعدوا عليه بأذى أو يقتل .

وكل من تعدى على حياة شخص آخر عدو قاتل . واستحق أشد العقوبات ، وكان من الحق والعدل أن يسلب منه حق الحياة .

وهنا نتكلم عن القتل وما جاء في تحريره وعقابه . في الزمن الغابر بعض قبائل العرب كانت تدد البنات خوفاً من العار ، وتقتل الأولاد خشية الفقر .

وكثير من الأمم كانت تقتل أسرى الحرب متى ظفرت بهم ، وفي بعض الأمم الرقية لا يزال حق الحياة عندهم مريضاً للخطر كما هو الشأن عند الأمم التي يبيع المبارزة .
وأولئك الناس قدروا الحياة حق قدرها ، وتقدموا في فهم معناها لما تحاربوا ولا تقتلوا ، وقد نهى الله تعالى عن القتل بقوله : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) لأن تمتل دليل على جود القلب وقسوته ، وعلى غضب الرب ويخط الخلق . بل على من ارتكب من الإنسانية .

والتأمل عاصم قد سبحاته وتعالى . خائف لبلاده ووطنه ، ساع في تلاشي العالم وفناء الخلق . معرض نفسه للإعدام ، وبنيه لليم والانتقام ، فمن قتل يقتل (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

القاتل الذى يقتل نفساً بريئةً لجرّد سَوْرَةٍ غضبية ، أو الوصول إلى غرضه مهما
سفل إذا تعرّض له أى شخص آخر ويخالفه في هواه كان أكبر همه قتله ، فهو بذلك
مستعدّ لقتل كلّ من يتنازعه متى أمكته الفرصة .

وعلى هذا فقاتل النفس الواحدة كقاتل النّاس جميعاً . ولذلك كان إثمُه شنيعاً
وعذابه أليماً .

فوجب على كلّ من علم بعزم إنسان على قتل آخر أن يمنعه من تنفيذ عزمه ، كما
يمنعه عن نفسه . للمقتول أولياء وأقارب يطالبون بدمه أمام الحكومة . ولا يبدأ بألهم
إلا إذا اقتضوا من القاتل ، ومثلوا به شرّاً تمثيل . والحكومة تعمل جهدها في التصاص
من الخافى لتتخلف على حياة أفرادها ، بدليل قوله تعالى (ولكم في التصاص حياةٌ
يا أولى الألباب) .

ولقد اتفقت جميع الأديان على معاقبة القاتل في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالخلود
في عذاب النار وبئس القرار . ومما جاء في القرآن الكريم في جزائه قولُ الله تعالى :
(ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه
وأعدّ له عذاباً عظيماً) .

فأى عاقل يقدم على القتل ويرضى الهلاك لنفسه في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة ؟ .
لماذا كله كان حقّ الحياة حقاً مقدساً لكل مخلوق . لا يسمح لأحد أن يتعدّى عليه
بالقتل . وما يقال عن الحياة والحفاظ عليها من اعتداء الغير يقال أيضاً عن صونها من
صاحبها أيضاً ، فليس أشنع جرماً . ولا أقبح ذنباً ، من ينجى على حياته ويقتل نفسه بيده :
أى ينتحر . ونظراً لكثرة انتحار الشبان في هذه الأيام أرى من المناسب أن أذكر
كلمة في الانتحار .

الانتحار

كنّا من زمن غير بعيد لانعرف الانتحار ولا نسمع به ، حتّى أصابنا هذا السيل
الجارف ، وهو اختلاط الغربيّ بنا . ذلك الذى حمل إلينا من قبيح العادات تلك العادة
الخبثية ، والخصلة اللئيمة الحفيرة . وهى الانتحار . فقوّت خلقٌ يُأسى في نفوس شباننا ،
وهو زهرة أمتنا إلى مهواة عميقة عميقة مالها من قرار . فأصبح أولادنا لأذى سبب

ولايسر أمر ينتحرون، أو يقتلون أنفسهم بأيديهم بتعاطي السموم ، أو إطلاق الرصاص ، أو بقر البطن . أو بطريق الفرق . أو الحريق إلى غير ذلك من وسائل الهلاك .
وإني لأجد سبباً يبرز هذا العمل الوضيع الحقيق مهما كبر في نفس ذلك اليأس المسكين المنتحر .

يرشد الآباء أبناءهم . والأولياء مواليم ، ويتشدّدون معهم في الإرشاد رغبة في نجاحهم . فإذا ما سقطوا في امتحان ولم ينالوا رغبة آبائهم . ضاقت الدنيا في وجوههم فيفثرون من الحياة ، ويقدمون أنفسهم للموت بهيئة شنيعة ، استسلاماً لليأس . واتباعاً لخوارزم (آلاء ما يفعلون) .

وأوفكرو قليلاً لعرفوا أن ذلك امتشدّد لصالحهم ، وكلّ ما يظهر من أوليائهم إنما هي نفعهم . فإن الأب يحب أن يكون ولده أكبر الناس ، وأعظم الناس ، ولو صرف في ذلك أعزّ عزيز عليه . وأنفس تيمس لديه . كما أنه يكره أن ينظر فلا يجد قلادة كبده وروضة حياته . ونعيم وجوده في هذه الدنيا وهو ولده .

نوعلم الأبناء ذلك ما أقدموا على الانتحار ولا ضاوه . ولكنه اليأس الذي قبحت نتيجته تلك قلوبهم . فأعنى بصائرهم وأبصارهم . وأفقدتهم سعورهم ، وقادهم ودهم بين غيب الموت مستسلمين .

وقد ينتحر المنتحر لضيق في العيش . أو يأس من الشفاء من مرض مزمن ، أو خوف من الإفلاس . أو فرار من تهمة الأعداء ، أو عدم الوصول إلى مبتغاه من حبيب ينجو . أو دوى محبة . ولكنه والله غطى . فإنّ مع العسر يسراً . ومع المرض شفاء . ومع الحزن فرج . وإن الأمور كلها بيد الله يصرفها كيف يشاء .

قال الله تعالى (لا تأسوا من رُوح الله إنه لا يأس من رُوح الله إلا القوم الكاهنون) .

وقال حكيم : لا معنى للحياة مع اليأس . ولا معنى لليأس مع الحياة .

ينتحر المنتحر فيترك وراءه أمماً تبكيه ، وأباً يتحرّق شوقاً إليه ، وإخوة تنوب حزناً وأبى عليه . ووطناً ربما كان في أشد الحاجة إليه ، وأمة ساءها حظها وضاع أملها . وأكثر من هذا وذلك غضب الله ورسوله . لأنه قد قتل نفسه متعمداً ، ومن يفعل ذلك فعجزوه جهنم وبئس المصير .

فأقبح الانتحار وما أشبهه ، وما أحقر فاعليه ، وما أشق أمّةٌ شاع فيها مثلُ هذه العادة السيئة الوحشية العاقبة ١ .

لو فكّر المستحر وقدّر ونظر في عاقبة الأمر وتبصّر ، لرجع القهقري ظافراً منصوراً بحياته ، ولأتى باليأس من شائق . وادّرع بالثبات والصبر حتى يدرك مرغوبه وينال مطلوبه . ويعيش سعيداً ويموت سعيداً ، فكّم من ساقط نيج . وكّم من خائب فاز . وكّم من فقير أصبح غنياً ، وكّم من شقّ صار سعيداً . ذلك لأنهم صبروا فظفروا ، وتركوهم بعدهم ذكراً حسناً وثناً طيباً . وأعمالاً نافعة . وذلك حزاء الصّابرين .

ألا فليتنجّب العقلاء هذه العادة التي ليست من عاداتنا . رزقنا الله قوّة ندراً بها هذا الشرّ الويل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . ولما كانت معيشة الإنسان معيشة اجتماعيّة لأنّه لا يمكنه أن يعيش بمفرده كان حقاً وعدلاً أن يضحّى بحياته لحفظ حياة المجتمع إذا اقتضى الحال ذلك كما إذا هوجت أمّة من أمّة أخرى قصّداً الاستيلاء عليها . وهذه التضحية واجبة ما دامت في سبيل الوطن . وفي سبيل حبّ الله .

٢ - حق الحرية ، معناها والنرض منها

الحرية غرض الإنسان في الحياة . وكانت ولا تزال هواه الذي طالما أنفق في سبيله المال والجاء والروح . كانت ولا تزال أشرف حال يرضى بها الرجل . وأعلى وصف ييقه لنفسه . وهى لا تُسرى ولا تمنع ولكن تُكسب بالعمل وحسن الاستعداد . ومن التقاليد القديمة ، والعادات الحديثة ، أن يمدح الرجل بأنه رجل حرّ في قوم أحرار . وأن يذمّ بأنه عبد في قوم عبيد ، وما ذلك إلا لأن الحرية قاعدة التفضيلة . ومناط التكليف فأى إنسان خدّث في صدره نار الحرية . وأظلمت حوائب عقله من شعاعها الساحل جدير بالاعتبار إنساناً .

والحرية هبة من الله . هي حقّ للفرد من يوم ولدته أمّه . وقد وُلد النَّاس أحراراً كما قال سيدنا عمر بن الخطّاب لعمر بن العاص : متى استعبدتم النَّاس وقد ولدتمهم أمهاتهم أحراراً . وقال عليّ بن أبي طالب : لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً . وقد منح الناس جميعاً الحرية لسببين :

أولهما - أن حب الحرية طبعى ، متأصل فى نفس كل إنسان ، فمن الظلم أن تسلبه هذا الحق .

ثانيهما - أن الإنسان لا يستطيع أن يقرر شئونه بنفسه إلا إذا كان حراً : أى أنه لا يمكنه أن يكون مسئولاً إلا إذا كان حراً .

ليست الحرية كما يفهم بعض العوام "مسوغة" يرخص للإنسان عمل كل شئ ، ولو محرماً . أو أمراً خارجاً عن حد الشرع والأدب .

فراهم باسم الحرية يتعاطون المنكرات ، ويرتكبون الجنايات ، ويحاربون الفرد والعصيان . وباسم الحرية لا يكرمون والديهم ولا معلمهم ، ولا يحترمون أكبر منهم سنّاً وعلماً وفضلاً . وباسم الحرية تخرج النساء فى الشوارع والطرق ، وتكشفن أذرعهن ووجوههن . ويبدن زينتهن لكل ناظر وسائر ، فهذه هى الحرية الفاحشة ، الحرية المنكرة .

أما الحرية الشرعية المعتبرة . الصالحة للعالم بأسره ، فهى إطلاق صراح الإنسان من رقة الاستبداد . وجور الاستبداد ، فينتلق حرّ الضمير والفكر ، متمتعاً بحقوقه المادية والأدبية . لا يمتدح بامتيازات الإنسان ، ولا يهضم حقوق أحد ، لا يستبد به ، بل يقف عند حده محترماً حقوق غيره . محافظاً على شرفه ومركزه .

فهى حينئذ شعار العدل . وسلم المجد . وملاك الحكم . وقوام الرأى ، وغرس التدين . وأساس الصبر . وروح الأمن . وعماد النظام . وداعية الاستقلال ، وحليف السلام . ينب على الإنسان العاقل أن يتسلك بها فلا يعمل ما لا يليق عمله بدعوى الحرية التى لا معنى لها إلا القوضى والممجيّة ، بل يعرف لها حقها ، ويرعى لها حرمةا . محترماً القوانين مراعيّاً الآداب . لينصف بمعناها الحقيقي ويكون رجلاً حراً . وكما أن له الحق أن يكون حراً ، ينب عليه أن يحترم حرية الآخرين .

يجب أن ينضم إلى شعور الشخص - بأنه حرّ - وأنه سيد نفسه - شعور آخر بأنه ليس يعيش وحده . ولكنه عضو فى المجتمع . وأنه مسئول عن حرية هذا المجتمع . ومن سمات الأمم الشرقية نماء هذين الشعورين فى أفرادها وتعاذلهما : أعنى الشعور بالحرية والشعور بمسؤولية .

وهناك واجب آخر على كل حرّ . وهو أن يستعمل حرّيته فى خيره وخير الناس ، فى أسسه استعداداً . كان خليقاً أن تسلب منه حرّيته .

ولقد أصاب من قال :
من يتمشّق الحرية يجب أن يكون قبل طيباً حكيماً .

أنواع الحرية

للحرية جملة أنواع :

النوع الأول : الحرية الشخصية

وتظهر في ثلاث حالات

الحالة الأولى : أن يكون الفرد حرّاً طليقاً ليس لأى أحد سيادة عليه ، وهذه الحرية هي ضدّ الاسترقاق فيقال : فلان حرّ ، وفلان رقيق ، وقد كان الاسترقاق قاشياً في العصور الماضية ، ولم يكن ينظر إليه بعين المقت التي ينظر بها إليه الآن .
وهنا يحسن أن نذكر كلمة عن الرقّ والاسترقاق في الإسلام ومعاملة الأرقاء .

الرقّ

الرقّ : هو حرمان الشخص من حريته الطبيعية ، وصيرورته مملوكاً للغير . وقالوا :
إن الاسترقاق ظهر منذ كان الاجتماع الإنساني ، وهو قول في غاية الإصابة والسداد .
فانه ظهر حقيقة عندما وقعت الاجتماعات البشرية الأولى أيام كان حجاب الجهالة مسدولاً على عالم الفطرة .

والذي أوجب هذا الفعل هو أنه لما كان العمل من أصعب الضرورات وأشقّها أخذ الإنسان في البحث عما يخلّصه من عنائه ومكابلاته ، فإذا بطلبته بين يديه عند الهيئة الاجتماعية ، فان القوى ألزمت الضعيف بالأشغال ، ومن ذلك نشأ الاسترقاق .
وكان الاسترقاق بالشرق أكثر منه بالغرب نظراً لطبيعة الإقليم . ثم جاءت الحروب وتولّدت الأطماع . فبُعث الاسترقاق في جميع أرجاء العالم وعند معظم الأمم . وصار الناس لا يقتلون العدو بل ييقنون عليه ليهل لهم . ولما ظهرت الديانة المسيحية في بلاد العرب وكان الاسترقاق ضارباً أطناباً عند الجاهليّة من العرب . كان من مبادئ الإسلام غيرهم من الأقوام كان من أصعب الأعمال ، ولا جدال في أن ما جاء به عليه السلام من إخراج العرب من ظلمات الجهالة التي كانوا هاشمين فيها . ومنه حذّاهم الوحشيّة

ونجسهم عن أمر ألفتهم طابعهم أعواماً بل أجيالاً . فلعلنا لم تأمر الديانة الإسلامية بإلغاء الاسترقاق مرة واحدة . ولكنها لم تقره على ما كان عليه ، لأن أحوالها العمومية لم تكن لتطبيق على ما كان جارياً في ذلك العهد . فعملت على إنضاب معيته ، وتقليل أثره من الوجود . وحصره في حدود ضيقة على وجه يخالف تماماً ما كان عليه في تلك الأيام وقررت القاعدة الآتية :

« إن المسلم المولود من أبوين حريين لا يجوز استرقاقه في أى حال من الأحوال . »
 وكان لتقرير هذه القاعدة مزية كبرى . وفائدة عظيمة ، لأنها أخرجت من هذا الظلم الفاحش الميمن قسماً عظيماً من العائلة البشرية .
 وكانت هذه القاعدة مفتاحاً لحل المسألة المعضلة ، مسألة الاسترقاق عند كثير من الأمم .

ثم إن الشريعة الإسلامية أمرت بالعطف والحنان وحسن معاملة الأرقاء بالرفق .
 انظر إلى ما رواه الإمام عليّ كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 « اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم . أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون . فما أحييت فأمسكوا . وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله . » فإن الله مسككم إياهم . ولو شاء للمكهم إياكم .
 وعن أم سلمة قالت : قال صلى الله عليه وسلم « اتقوا الله في الصلاة وفيما ملكت أيما نكم . »

تر أن مراقبة المالك لله سبحانه وتعالى وخشيته منه في معاملة عبده مجعولتان بمنزلة رقية ونذية مفروضتين عليه في القيام بواجب الصلاة ، وهى عماد الدين ومن أهم أركانه إسلام . وفضلاً عن ذلك فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في مرضه ندى أنزل فيه الصلاة وما ملكت أيما نكم . وكانت هذه آخر كلمة نطق بها قبل وفاته عليه الصلاة والسلام .

وعند جاء في الحديث الشريف ما فيه زيادة التصريح والتعريف . فقد روى ابن عمر عه صلى الله عليه وسلم أنه قال « اتقوا الله في الضعيفين : المملوك ، والمرأة » .
 وفي الآخر : لقد أوصاني جبريل بالرفق بالرفيق حتى ظننت أن الناس لا يستعملونه .

فمن ربح في سعة إخلاء بهد وقوفهم على هذه الأحاديث الغراء أن يتهموا الديانة

الإسلامية السمحة بالتوحش والممجيّة ؟ وقد حثّت الشريعة الإسلامية على تدمير التربية والتعليم ونشر أنوارهما وفوائدهما في كل زمان ومكان على كل إنسان . لا يستغنى من ذلك الأرقاء ولا العبيد . فقد قال عليه الصلاة والسلام « من كانت له جارية فعتقها وأحسن إليها وتزوجها كان له أجران » في الحياة الأخرى : أجر عن الزواج والتعليم . وأجر عن العتق .

فهلا ترى في ذلك دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على أن الشريعة لا تلتفت على معاملة الرقيق بالحسن فقط ، بل تأمر أيضاً بهتديه وتأديبه . وفي هذا التقدير كفاية . ومن أراد الزيادة فليطلع على كتاب « الرق في الإسلام » تعريب المرحوم مساعدة أحمد زكي باشا . وقد جدت أنواع الرقيق الأبيض والأسود في العصور القديمة . وفي العصور الوسطى . وما زالت الحرية تظهر وتأخذ مكانتها شيئاً فشيئاً حتى قصت على الرقيق في أوروبا في أواسط القرن التاسع عشر .

ثم استصرخت الحرية الشرق . فكان أول من كتب نداءها المغفور له إسماعيل باشا (ابن إبراهيم باشا) خديوى مصر الأسبق . فنعج الاتجار بالرقيق . وفي ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ عقد مع بريطانيا معاهدة لمنع الاتجار بالرقيق ، وإبطال الرق بالقطر المصري والسوداني . فكان عمله هذا جديراً بالإعجاب الشديد والثناء العظيم من دول الغرب والشرق . ومن هذا الوقت سرت روح الحرية في مصر . وفي أكثر أمم الشرق . ويظن أنه لم يبق للرقيق من أثر في العالم إلا في بعض الجهات النائية في أفريقيا وآسيا .

الحالة الثانية : من مظاهر الحرية الشخصية أن يكون الفرد حراً في غلوّه ورواحه وظننه وإقامته . يقيم في هذا المصر . وينتقل منه إلى ذك القمصر . دون أن يمنعه من ذلك فرد آخر . ودون أن تتعرض له السُلطة في شيء من هذا . إلا إذا كان لهيب ينبغي عليه القانون .

الحالة الثالثة : ألا يكون الفرد عرضة لتقبض عليه أو الحبس أو الحكم عليه بدموية ما لم يكن لذلك مسوّغ قانوني .

النوع الثاني : حرية الملك

حرية الملك : أن يكون الفرد حراً في أن يمتلك ما شاء . وفضني ما شاء من عقار

أو منقول ، وإن يصرف في ملكه كيف يشاء ، وفي أي وقت يشاء ، وألا يُجرّم من ملكه أو يُمنع عنه ما لم يكن هناك مسوّغ قانوني .

النوع الثالث : حرية المسكن

حرية المسكن : لساكن حرمة ، فلا يباح لأحد ، ولا للسلطة الدخول في مسكن الشخص إلا بإذنه ، أو في الأحوال التي يميزها القانون ، وهذا ينطبق عليه قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوها فإدخالها فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم . وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم) .

النوع الرابع : حرية العمل والصناعة والتجارة

هذا النوع من الحرية أن يكون الفرد حراً في أن يعمل ما يشاء ، وأن يشتغل في الصناعات والحرف التي يريدها وأن يتجر بما يشاء إلا بما يحرمه القانون من الأعمال والصناعات والتجارات . فاسع أيها المصري للاستقلال في عملك وصناعتك وتجارتك . واعلم أن في الأعمال الحرة مجالاً لحيّاً لأبي النفس وعزيزها ، ولكبير المنة وعاليها . ونشيد لزيمة وقويها ، استقل بعملك . تكسب إليه ولا تعلم ، لأنك تعلم أن هذه عملاً راجحاً كلها إليك . فلا شريك يقاسمك إياها ، ولا رئيس أو مدبر عمل أو صاحب معمل يتحكمها دونك ، فكل ما تكتسبه فهو لك ، وهذا ما يرغبك في استزاد الكسب . ففتح لك منه باب جديد ، وتستلذ العمل لأنك حر لا يسير عياناً في شدة الحر . وتشتد وأنت في عملك الحر أنك ملك مطلق في ملكته ، ويتسع له المجال . من هذا الباب في مخالفتهم ، وبالتالي يتسع أمامك مجال السعي ، وتزداد ثروتك من ذلك تسهل الكسب أكثر مما يسهل الموظف عمله الذي يزداد كل يوم . من هذا الباب تكتسب ثروتك بملكك كلما رأيت سبيل الاستزاد ما لا يدركه . وتكتسب ثروتك بملكك كلما رأيت سبيل الاستزاد على خزانة الله . والله أعلم .

الحرية في التجارة تتم ثروتك لأن دخلك غير محدود وأنت غير مقيد في استثمار ثروتك . ونيس من يعبرك بالتغيير مهما كنت مفترقاً ، بل قد

يجسبك الناس مُسرِّقا لأنهم يجهلون مقدار دخلك فلا يقابلونه بنقذك ، ومنى كنت ذا مال كنت ذا كلِّ شيء .

واعلم بأن الأمم لاستقلَّ استقلالا حقيقيا إلا إذا تربت أفرادها تربية استقلالية ، وتربية خلقية ، فاستقلَّ أيها المصرى ، استقلَّ فى عملك وصناعتك وتجارتك .

النوع الخامس : الحرية المدنية

لا يتمتع الفرد بهذا النوع من الحرية إلا إذا كان فى أمة قد بلغت حظا وافرا من المدنية ؛ أما إذا كان فى أمة هرجية ، لا يأمن الفرد فيها على نفسه من القتل أو السرقة أو مصادرة أملاكه .

فإذا تقدّم الناس فى الحضارة أصبح لكل فرد فى الأمة الحق فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء ، وأمن أن يُسجن أو يُعذب أو يعاقب أية عقوبة إلا إذا حكم عليه بمقتضى قانون البلاد ، ولا يصح أن يُعتدى عليه فى غير هذه الحالة ، ولا أن يكون ضحية لطمع ملك أو انتقام حاكم أو وزير أو أمير .

وهذا النوع من الحرية يشمل : حرية الرأى ، وحرية الاجتماع والخطابة ، وحرية الصحافة .

ولتكلم على كل منها بناية الإيجاز فنقول :

أ - حرية الرأى والفكر : ونعنى بها أن يكون كل إنسان حرا فى الحكم على الأشياء بما يعتقد أنه الحق ، فليس الاجتهاد والتفكير والحكم على الأشياء بأنها صواب أو خطأ فى حق طائفة خاصة . بل من حق كل فرد أن يقول أو يكتب ما يراه صوابا بعد أن يتثبت منه ويقوم عنده البرهان على صحته وإن خالف العظماء والعلماء . ذلك لأنه لا يعرف كثير من الناس كل الحق ، وإذا منعنا الناس من أن يقولوا ما يعتقدون حُرمتنا ما قد يكون فى قولهم من رأى صائب أو فكرة حقّة ، ولهذا يجب أن يسمح لكل فرد أن يكتب أو يقول ما يشاء ، ثم تتطاحن الآراء والأفكار مصيحتها وفلسفها حتى تظهر الحقيقة وتغلب الحق على الباطل ، والحقيقة تفت البحث .

ب - حرية الاجتماع : نحن بالفطرة أحرار فى الفكرة . وفى الاعتقاد . وفى الكتابة وفى الخطابة ، وإنّا لكللك أحرار فى الاجتماع أيضا .

حرية الاجتماع - وهو أمر طبيعى فى الإنسان . ومظهر من مظاهر الحرية الشخصية .

ونتايجها ذات أثر عظيم يكر شأته مع التطورات المدنية ، ويعجز الفرد عن القيام بالأعمال الحلييلة بغير الجمعيات .

الجمعيات قوآت عظيمة تقاس بها درجات قوّة الأمم ، فأما أمة كثرت جمعياتها القوية ، سياسية كانت أو علمية أو دينية أو تجارية أو صناعية كانت أشدّ مغالبة لطوارق الحداث ، ومهما كان الزمان الذي تعيش فيه ، ومهما كانت مبادئ الحكم التي تسير عليها . فانها بالجمعيات في مأمن من أن تغلبها الحكومة على أمرها أو تنال منها مأرباً .

وحريّة الاجتماع أكثر خطراً على الظلم من كلّ حرية سواها ، لأن الجمعية أكثر من الفرد قوّة وأطول عمراً وأشدّ تأثيراً .

حرية الاجتماع لا يجوز للشارع أن يمسّها من غير أن يظلمنا في أعزّ ما لدينا ، من حيث كونها مظهرًا من مظاهر الحرية الشخصية .

أما من حيث كونها الوساطة الكبرى في مجد الأمة وقوتها ، فلا يجوز للشارع أن يمسّها من غير أن يوخّر الأمة ويحيسها عن الأخذ بأسباب مدينتها ، وذلك أعظم ضرر بالأمة وأبنائها .

والذي نحمد الله عليه هو أن الحكومة السيئة لم تعارض في حرية الاجتماع ما دام ذلك في حدود القانون . ولم يقصد به حصول مؤامرات ضدّ النظام العام .

جـ - حرية الخطابة - حرية الكلام : والخطابة مظهر الحرية الشخصية ، بل هي ألصق مظاهرها بها . وهي الآلة الشائعة لحرية الفكر ، وحرية الضمير ، وهي ألزم للفرد من حرية الكتابة .

حرية الكلام طبيعية . وهي حرقة لها دوافع قويّة في النفس والإنسانية ، فهي لا تنصبر على حبسها صبرها على حبس الجسم عن الحركة ، وعلى حبس القلم عن الكتابة ، ولأنها كسائر مظاهر الحرية الشخصية لا حدّ لها إلا ضرر الغير وإلذاؤه . ولقد تفعل الخطابة في النفوس أضعاف ما تفعله الكتابة ، فهي التي تحرك عواطف الجماعات المائعة . وهي التي نسكّن توران تلك العواطف . وهي أفضل ما اتخذ الإنسان سلاحاً . إنتناع . فمن منع إنساناً حرية القول فكأنما منع الناس جميعاً ، فان قول الحقيقة ليس مجرد حق امرد . يذنه وله تركه . بل هو أيضاً واجب عليه للجمعية التي يعيش فيها ، وسمعة خيده . إن تبا . لا أب تعلم . فلا يتمّ إخلاص العالم للعالم إلا إذا قال ما يعتقده حقاً

من قواعده ، ولا تتم للفرد وطنيته إلا إذا أظهر ما يعتقد صلاحاً لقومه ، وقد قيل :
« السَّكْتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ تُعْرَسُ » .

فالذين يترصّون لحرية الكلام يطلّون حقاً من حقوق الأفراد الطبيعية ، وهم بذلك يمنعون الناس من واجب نحو الاجتماع لاغنى لمتافعهم عن أدائه ، إنهم يطفنون نور الحقّ بأفواههم ، ويمسكون الإنسانية على هُونٍ من الجهل القاتل ؛ وكفى إظهاراً لأهمية الخطابة أنها آلة الإقناع في المجالس النيابية ، وأنها تسحر الألباب ، فتحوّل الناس من فكرة إلى نقيضها ، ومن رأى إلى سواه في جميع الأوساط المتحضرة . والحمد لله فقد انتشرت في مصر حرية الخطابة ولم تتخلّ الحكومة في منعها من المساجد والجميعات إلا في الموضوعات التي تعتبرها خطراً على الأمن العام ، ومضرة برفق البلاد ومصلحتها .
د - حرية الصحافة ، ونعني بها أن تكون الصحافة حرة فيما تكتب ، لا تستفيد بشيء إلا ما يقيدها به القانون العام ، ولا يكون عليها سلطان إلا سلطان عاكم البلاد . إنما منحت هذا الحقّ لأنها الواسطة بين الحاكم والمحكوم ، تعلم المحكومين حقوقهم وواجبهم ، وتبصّر الحكومة برغبات الأمة ، وتبين لها عيوب ما تلعبه من نظام . والصحافة هي المرأة الصقيلة الصادقة للرأي العام يرى فيها خلاصة أفكار جميع الطبقات ، بل وهي معرض تعرض فيه آراء الأمة بأسرها فيستفيد منها الحاكم والمحكوم معا ، فهي تستحقّ حماية الحكومة وحرس الأمة على تشجيعها وانتشارها لأنها الضمد القوي في خدمة البلاد .

النوع السادس : حرية القضاء

حقوقنا رهن باستقلال القضاء . فإن لم يكن القضاء حراً مستقلاً فصالحنا مهمل وحریتنا ضائعة .

لأربب في أن مسألة استقلال القاضي . مسألة شخصية محضة . وصفة ثابتة مهما كان شكل الحكومة التي هو موظف عندها . ولكن كفاءة القاضي بضمانات الحرية والاستقلال في الرأي عن كل سلطة من السلطات كليل باستقامة وأمان الناس على الحقوق والمراقب . ومرجعها سلطة القضاء .

إن استقلال القضاء بمصر لا يزال عقدة العقد . أما في أمريكا فالتقضاء يُكتَحَبُونَ هناك من قبل الأمة بالانتخاب العام . فليس للسلطة التشريعية ولا للسلطة تنفيذية

عليهم من سبيل ، إنهم أحرار في تقدير الوقائع ، مستقلون في أعمالهم القضائية استقلالاً
منهشاً ، فأين نحن من هذه الحرية وذلك الاستقلال ؟ فلتنصّر إلى الله بقلوب خالصة
ولتطلب إلى الله لمصر استقلالاً تاماً حفظاً لحقوق الأفراد والأمة .

النوع السابع : الحرية السياسية

ونقنى بها أن يكون للإنسان نصيب في حكم بلاده . فالأمة التي أمرها بيد فرد
أو فئة لم تنتخبها الأمة لتكون متمتعة بهذه الحرية ، وإنما تتمتع بها إذا كان أفرادها
يتنخبون عنهم من يمثلهم ، وهؤلاء المنتخبون هم الذين لهم حق وضع قوانين البلاد
والعائتها .

والحرية السياسية هي أضمن وسيلة لتمتّع الأمة بالحرية المدنية ، فانه إذا كان
أفراد الأمة هم الحاكمون لما آمنوا من استبداد فرد أو أفراد يسلبونهم حرية الصحافة
أو الخطابة أو غيرها .

النوع الثامن : حرية الأمم واستقلالها

كل أمة في العالم تحب أن تتمتع بحريتها وتحكم نفسها بنفسها كما يحب الفرد أن
يكون سيد نفسه ، ونحس بالصعّة والمدّة إذا حكمها غيرها ، والفائدة التي تعود
على الأمة من استقلالها كقائلة من يملك الحجر عنه ، فإذا منّح المهجور عليه حرية
التصرف قد يخطئ ، ولكن هذا خير طريق ليعنى بشئونه وليكون مسئولاً ، وإنه
إذا كان حرّ التصرف زاد طموحه لتكامل نفسه ، وشعر بأنه إنسان حقاً .

وكذلك الشأن في الأمة ، فإذا نالت استقلالها شعرت بمسئوليتها ، وطمحت ببصرها
لتكون خيراً مما كانت عليه قبل الاستقلال ، واعتقدت أن نتيجة مجهودها لما لا تغيرها
فيضعف ذلك في جدها .

ولانحس الأمة بشخصيتها إلا إذا نالت حريتها ، ولا تنهض وتجهد في نيل كمالها
إلا إذا كانت تدير شئون نفسها بنفسها ، وهذا الحق للأمة من الحقوق التي لا يجوز
للشارع أن ينقص منه شيئاً .

نحن المصريون لم نصل اليوم إلى استرداد هذه الحرية ، ولكننا ظالمون جادون

في الوصول إليها ، معتمدين - بعد الله - في ذلك على إجماع الأمة بضرورتها ، وعلى أعمالنا
المتخلّفة لتقدّمنا ، ثم على الزّمان ، والله الموفّق لما فيه نجاح الأمة وتمام استقلالها .

ﷻ

ولله الحمد ، فقد تمّ بعونه تعالى لمصر « بعد إعلان حضرة صاحب المقام الرفيع
مصطفى النّحاس باشا رئيس مجلس الوزراء في مجلسي البرلمان يوم الاثنين ٨ أكتوبر
سنة ١٩٥١ » إلغاء المعاهدة التي كانت مبرمة بين مصر وبريطانيا في ٢٦ أغسطس
سنة ١٩٣٦ ، واتفاقيتي سنة ١٨٩٩ الخاصّتين بالسودان مع اللنادة للجالس على عرش
مصر (مملكت مصر والسودان) .

وهذا أقوى تسجيل تاريخي للحكومة الرشيدة . نسجّله بكلّ فخار دليلاً على
حرّيتنا واستقلالنا ، مع تضامن جميع الأحزاب المصرية مؤيدين ومعارضين في تعزيز
مركز الحكومة في هذا الأمر الجلل ، والوعد الشريف من كافيتهم بالتضامن وتجميع
القوى ، والاتّصاف حول راية الاستقلال التام .
والحمد لله أولاً وآخراً ، وهو مولانا ، نعم المولى ونعم النصير .

الشرف

كلمة الشرف يهتف لها أقوام من الناس ، إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون . وعلى ضدّها عاملون ، ولو فهم الناس مزايا الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء . لكن منهم فئة ترى الشرف كل الشرف في جمع المال ، وبناء الدّور ، وتشيد القصور ، ووفرة الخدم ، واقتناء الجياد من الخيل ، وركوب العربات والسيّارات ، وإقامة الحفلات والزّينات ، والسّعى وراء اللذّات والشّهوات ، حتّى إنك ترى الرّجل يسلب مال أخيه ، ويبدّد ثروة أمّه وأبيه وذويه وبني ملّته ومواطنيه ليشيد له قصراً ، ويقيم له حراساً ، ويظنّ أنّه بذلك نال مجدّاً أبديّاً ، وفخاراً سرّديّاً ، وأنّه نال غاية الشرف .

فئة ثانية : ترى أن الشرف في لبس الفاخر من الثّياب ، والتزيّن بألوان الملابس ، والتّحقّق بالحواهر الثمينة ، حتّى إنك ترى الرّجل يحدّث في كسب المال بأنّشغ الطرق وأحقرها ليكتسب رفيع الثّياب . ويتزيّن بأجلّ الحليّ ، أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله ويحسّب أنه بلغ درجة من الرّفعة والشّرف لا يبدأ في فيها .

فئة ثالثة : تتخيّل الشرف في نيل الألقاب والرتب (كالليك والباشا) أو في الحصول على الرّسمات المعروفة (بالنياشين) فيصرف الرّجل نهاره وليله في التّفكير في وسيلة ينال بها لقباً من تلك الألقاب . ويحصل بها وساماً أو وشاحاً ، وإن أفقت إلى خراب داره أو ضياع ماله ، أو ذلّة أمّته ، أو تمزيق ملّته ، ويتخيّل إليه أنه ارتقى بذلك إلى ذروة العلا والشرف .

هكذا يتصوّر بعض الناس الشرف ويظنّون أنّهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرف من غير أرواه . وما أفسد عليهم تصوّرهم إلا النّين أحاطوا بهم وكانوا على شاكلهم . وهكذا تقوم هذه الأوهام مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس .

فإذا نجد من نفسه المباهي بقصوره وخدمه ؟ ألا يُحسّ أنّه وإن حاز منها أعلى ما يتصوّره العقل فذاته التي هي أعزّ شيء لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكائن . وأنّ جميع ما حصل عليه أجنبيّ عنه ، وليس له من عمله إلا العناء في التّحصيل ؟

ألم يركب كثيرًا من بلغ مبلغه في الثروة والأبهة قد سلبتهم صُروف الدهر ما بأيديهم ،
فإن لم يكونوا على جانب عظيم من الكمال الإنساني انحطوا في سلك الطبقات السافلة ،
ولم يبق لهم في القلوب منزلة ، ولا في النفوس مكانة ؟ .

ماذا يشعر المخاضر بملبسه وحليته إذا تجرد منها وخلا بنفسه إن لم يكن لذاته حاية
من الفضيلة وزينة من الكمال ؟ ألا يكون هو والقراء المرأة سواء ؟ .

ماذا يتصور المتظاهر برتبته ، المتأخر بوسامه ، إن لم يكن على حالة يستحق معها
التعظيم والإكرام ، والتبجيل والاحترام ؟ أليس يشعر أنه متى سلب الوسام ، أُنزِع عنه
الوشاح ، وأصبحت منه الرتبة ، يعود إلى منزلته من الاحتقار . فإن نال الكرامة عند بعض
السُلُج والوسام معلق عليه أليس ذلك تعطيًّا للوسام واللقب ؟ ألا تكون هذه الكرامة
الظاهرة عارضًا سريع الزوال . وبغير الله الإنسان من حال إلى حال ؟ .

نعم ، لهذه الألقاب الشريفة والرتب شيء يرتفع به النظر إلى صاحبها إذا قام
بعمل يعترف العالم بقدره وشرفه وكان اللقب دليلًا عليه .

إن مما يؤسف له أنه يوجد بين الخاصة الذين يُعْتَدُّ بقولهم ، وتمدح أفهامهم
ومداركهم من لا يفرق بين الشرف المزيف والشرف الحقيقي : أي بين الرذيلة والفضيلة ؛
فلولا فساد التصور ما جلس القاضي المرتضى فوق كرسي القضاء يقتل شاريه .
ويصغر خديده ، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلى المهتم الواقف أمامه موقف
الضراعة والذل والمسكنة ، ولا ذنب له إلا أنه يدافع عن نفسه وعن عياله وعن عرضه
فيحكم عليه حكمًا مخالفًا للقانون والشرف ؛ ولولا فساد التصور ما اجترأ علوق على
سلب شرفه ، وقلب الحقائق في تقريراته ليخلص بها المجرمين من همة الاتجار بالمواد
المخدرة التي تسلب عقول الناس وأموالهم ، فيوقع نفسه في الشر مع شركائه ووسطائه
تظير درامم معدودات ، فيخسر الدين والدنيا معاً . ولولا خراب الذمم وقلة الشرف
لما اجترأ الأوصياء الأديناء على أكل أموال اليتامى ظلماً .

لا شرف في الدنيا إلا الشرف الحقيقي ، وما هو الشرف الحقيقي ؟ هو تاج على رموس
الشرقاء لا يراه إلا أرباب النفوس الطيبة . الشرف الحقيقي هو الذي يحصل عليه الإنسان
ببذل حياته أو ماله أو راحته في خدمة المجتمع الإنساني جميعه . أو نوع من أنواعه .
كإنقاذ من تهلك أو كشف بلهالة ، أو رد حق سلب ، أو تذكير بمجد ، أو إنهاض
من عثر ، أو إيقاظ من غفلة ، أو إرشاد إلى خير . أو تحذير من شر . أو تهذيب

أخلاق ، أو أمر معروف ، أو نهى عن منكر ، أو تنقيف عقول ، أو جمع كلمة ، أو تجديد رابطة . أو إعانة لصبي يتيم .

فن أتى عملاً من هذه الأعمال ، وكان له أثر من هذه الآثار فهو الشرف حقاً ، وهو الذى يستحق التقدير وإن كان يسكن الجبال والأكواخ ، وليس الأسماء . فالعالم شريف يملو صدأ العقل الإنسانى ويصقل مرآته ، والمجاهد فى سبيل الدفاع عن وطنه شريف لأنه يحمى مواطنيه من غائلة الأعداء ويقبض عادية الفتناء .

والحسن الذى يضع الإحسان فى موضعه شريف ، لأنه يأخذ بأيدي الضعفاء ، ويحى أنفس البؤساء . والحاكم العادل شريف لأنه رسول العناية الإلهية إلى المظلومين . وصاحب الأخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته فى عشاره وخطاته ، ويعلمهم بالقُدوة الصالحة أفضل دوس فى الأخلاق والآداب .

قال المرحوم الشيخ « زكى الدين مند » مؤسس جمعية المكارم كلمة طيبة فى شرف النفس . نذكرها هنا اعترافاً بفضلها ، وتحليداً لذكرها :

(شرف النفس صفة كمال . وبها تتفاوت أقدار الرجال ، بها ترتفع النفس عن مدانة الدنيا . وبها تنفجر عيون العزائم من محض الصبر الوثيق ، وبها تقبض أيدي المصم على نواصي المعاني . وبها يعلو سلطان الشهامة على رموس الأعداء ، بها أبانت الشريعة الغراء فضل الأحرار على الأرقاء . بها جعل الرجال قوامين على النساء ، بها حظرت على الشرقيات التأهل بغير الأكفاء .

وليس شرف النفس بلبس رداء الكبرياء ، ولا بمشى الخيلاء ، ولا برفع الأنف فى السماء . بل بنفس عزيزة عن يمينها : عش شريفاً أو مت كريماً ، وعن يسارها : إن لم تكن حفيفاً لم تكن شريفاً .

ليس شرف النفس سوء الرد على الرئيس ، ولا بمد الرجل بين يدي الجليس ، ولا بإطلاق لسان البذاءة . ولا بنطرسة أهل الجراءة ، بل بأن تكون فى نفسك على لعمرك كالتجهم ارتقاء . وفى استقامتك طاهر العرض كالماء نقاء ، وفى حيثتك غيورا وعلى الإسلام غيورا كالتأثر اشتعالاً والأسد إباء .

أما الغيرة على الإسلام فاليا ينتهى الشرف العام ، لأجلها خاض المجاهدون عجمت البلايا ، وتناولوا من أيدي الحروب كتوس المنايا ، لأجلها كان حقاً لكل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وألزم كل مكلف ترك ما عته نهى وفعل ما به أمر .

ولا يتحقق شرف النفس إلا بطهارة الأعراس من الدنيا ، وعلوّ الحسم في المزايا ،
وتوقد الغيرة على الدين ، وفي القبرة على الدين سور من حديد ، يبلغ عن الأمة عوادي
الزمان ومكايد الشيطان . وفي طهارة العرض حسن السير والسيرة وصحة الأبدان
والأديان . وفي علوّ الهمة صلاح المعاش والمعاد ، وتموُّ حركة العمران في البلاد .
وفي الجميع على الجملة رغبة الدين والدنيا . وتتمام شرف الإسلام والمسلمين اه) .
وقال بعض الأدباء :

إذا أردت شريف الناس كُلّهم فانظر إلى ملك في زى مسكين
ذاك الذي حسنت في الناس قائله وذاك يصلح لَدُنْيا ولَلدُّين
وقال أحد الشعراء :

ليس الظريف بكامل في ظرفه حتى يكون عن الحرام عفيفا
فاذا تعفّت عن محارم ربّه فهناك يُلدى في الأنام ظريفا
إخواننا صونوا الحياة بصفّة ليس القى بسوى العفاف شريفا
وقال بعضهم : إن عزّة النفس هي أن تنشأ بعيداً عن الأوصاف الذميمة ،
وتصون ماء وجهك ، وتمصم نفسك وعرضك ودينك . فتعيش مشرفاً مكرماً معظماً
أهلاً لاحترام الناس لك والاحضاء بك ، فإن من أعزّ نفسه أعزّه الناس ، ومن أهانها
كانت على الناس أهون .

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقّها . هواناً بها كانت على الناس أهونا
وإن معيشة تكون مصحوبة بالذلّة والموانى الحياة التّعسّة ، وإن معيشة مقرونة
بالعزّة والكرامة هي الحياة الطبيعيّة السعيدة .

قال عمرو بن العاص : المرء حيث يجعل نفسه ، إن رفعها ارتفعت . وإن وضعها انضعت .
وقال الإمام عليّ في نصيحته لابنه الحسن : أكرم نفسك عن كل دنية وإن
ساقطت إلى الرغائب ، فانك لن تتناض بما تبذل من نفسك عوضاً . ولا تكن عبد غيرك
وقد جعلك الله حراً .

وقال حاتم :

ونفسك أكرمها فانك إن تهنّ عليك فلن تلقى لها الدهر مكروما
وقال آخر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقّها هوانا بها كانت على الناس أهونا

ففضلك أكرمها وإن ضاقت مسكنك عليك بها فاطلب لنفسك مسكناً
ولأنك والسكنى بمنزل ذلة يُعدُّ مسكيناً فيه من كان مُعْسِناً
كان بعض السَّاقِين يُنْشِدُ أثناء سيره في الطريق وهو حاملُ قربة قول الشاعر :
وأكرم نفسي إني إن أهنأ وحقت لم تُكْرَم على أحدٍ بعدى
فسمعه الأصمعيُّ فأراد المزاح منه فقال له : عن أى شيء أكرمت نفسك وهذه
حرقة دنيئة ؟ فقال : إني أكرمها عن ذلِّ السؤال ، وعن الوقوف على باب لثم
مثلك . فأسكته .
قد عرفنا الآن معنى الشرف الحقيقي ، وسنتكلَّم على الوسائل التي يكون بها النَّاسُ
شُرَفاءً إن شاء الله تعالى .

وسائل الشرف

١ - شرف الملوك :

يكون ذلك بعملهم على خير الرعية المستوليين عنها ، بأن يذلوا الأموال الطائلة
في إنشاء المدارس لتعليم أولاد رعاياهم ليكونوا رجالاً نافعين لأنفسهم ولوطنهم ،
وليفخرَ بهم ماوكهم وياهاو بهم الأجانب . وأن يهودوا بالأموال لإقامة الملاهي
للعجزة والفقراء والمساكين ، وتشيد المستشفيات للمرضى وذوى العاهات ، وبأن
يُقرَّبوا منهم العلماء والأدباء والعاملين للخير من أبناء الأمة ، وبأن يساعدوا الجمعيات
الخيرية والعلمية والدينية بالمساك . وبأن يثقلوا أحوال الأمة ، لإصلاح أخلاقها
وتمكن أداها . ومحاربة المفسد والأمراض الخلقية ، وبأن يوثقوا الأعمال من هو
أهل لها . لأنه إذا وثق الأعمال غير أهلها فسدت ، وإذا أراد الله بأمة خيراً وثق
أموارها خيارها . وبأن يكونوا قنوة حسنة لرعاياهم كما قال أرسطو : ليس أصلح
للناس من أوثق الأمر إذا صلحوا . ولا أفسد لهم منهم إذا فسدوا .

٢ - شرف الوزراء والحكام :

يكون ذلك بمراقبة كلِّ منهم شئون وظيفته ، فلا يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها
وعليمها . وبأن يمتد في تحسين حال الأمة في العمل الموكول إليه ، ويحافظ كلَّ المحافظة
على مصلحة وطنه . وإذا دعي لعمل أمر يخالف الواجب عليه ، ويخالف النعم والفضمير
ترك مركزه غير آسف عليه . حتى يخرج منه مرفوع الرأس شريف النفس ، وأن يُقرَّب

إليه الرجال الموصوفين بالنمّة والأخلاق الكريمة ، ويعد عنه المتأقنين والدسّامين
حفظاً لسمعته، ومهمة مصلحته ، وأن يدع الحباية محافظةً على حقوق الرعيّة ، وأن يعمل
على إحياء الشعائر الدينية والعمادات القومية المتفككة مع الأخلاق الحسنة .

٣ - شرف القضاة :

يكون ذلك بإقامة العدل بين كل الناس بدون تمييز في دين أو مذهب ، وبلا مراعاة
لجاه أو ثروة ، وبلا محاباة لأمير أو كبير ، وبدرس قضايا الناس درساً دقيقاً حفظاً
لمصالح العباد التي أصبحت أمانة في عنقهم .

وبالجملة يكون شرفهم بإعلاء كلمة الحقّ والأخذ من القوى للضعيف مع مراعاة
النمّة والنزاهة ، لأن القاضي الذي يبيع ضمته بالمال لا يصلح لهذا العمل الجليل ، بل
يكون وبالاً على أمته وعلى جماعته ، ولن يفلح قوم فهم قضاة يحورون ويهملون .

٤ - شرف الهامى :

يكون ذلك بدرس القضايا درساً جيّداً لمعرفة أسرارها ، والدفاع عن الضعيف
المظلوم ونصرة الحقّ ، لا الدفاع عن الظالم المجرم ؛ وأن لا يبيع الهامى ضمته بالمال ،
بل يتمسك بحبل التقوى والعدل والإنصاف في جميع الأحوال .

٥ - شرف الطبيب :

يكون ذلك بأن يلتقّي في تشخيص الأمراض ووصف العلاج الناجع ، وبأن يقوم
على درس المشكلات التي تصادفه في عمله ، ويراجع الكتب والمجلات الطبية . ولا يجعل
همّه المال ، بل يعتبر عمله أكبر خدمة للإنسانية ، وبأن يحافظ على أسرار الأسر والعائلات .

٦ - شرف مهنتى الرى :

يكون ذلك بتوزيع المياه على الأهالى بالقسط والعدل ، غير مراعاة الجاه والسطوة
والمال .

٧ - شرف الجندى :

يكون بحفظ كيان الوطن ، وذلك بأن يكون شجاعاً غيوراً عبقاً لوطنه محترماً لقوانين
الجندية ، مطيعاً لأرؤسائه بعيداً عن الفتن والحباية . محافظاً على الشرف والأمانة .

٨ - شرف المعلم والعلماء :

يكون بتقديف عقول تلاميذهم ، وتهذيب أخلاقهم وإرشادهم إلى طريق الخير والنفع في الحياة . ويأن يكونوا قدوة "صالحة" لهم . وإذا صح أن يقال إن الناس على دين ملوكهم نظراً لما للملوك من السلطان على الرعية ، صح أن يقال إن الناس على دين معلمهم وعلمائهم . نظراً لما للمعلمين والعلماء من التأثير في عقول تلاميذهم . وإذا كان من واجب الآباء تسليم بنينهم وقت المرض لطبيب ماهر كان أحرى بهم تسليم بنينهم للمعلمين الأكفاء المشهود لهم بحسن السيرة والاستقامة والأخلاق الكريمة والعلم النافع الصحيح .

٩ - شرف الموظفين :

يكون بالإخلاص في أعمالهم فيؤدون بها سرور ويتقنونها كل الإقتان عبر ظانين أن الغرض من الوظيفة هو الاستيلاء على الأجر والرزق فقط ، فن لا يؤدى عمله ومن لا يحسنه كان آكلاً حراماً . إن الوظيفة عمل ككل عمل يقوم به الوطنى يجب أن يراعى فيه الصالح العام "خدمة عامة" . وكما أنه يجب على كل إنسان قوى البنية صحيح الجسم الدفاع عن كيان بلاده إذا طرأ عليها خطراً ، كذلك يجب على كل إنسان إذا شعر من نفسه بالمقدرة على العمل أن يتقدم للوظائف العامة وإلا فلا .

إن من الواجب على الموظف أيضاً أن يكون في معاملته للأهالى متصفاً بالرفقة والأدب ودماثة الخلق ، إذ لا يتسنى له القيام بخدمة الأمة إلا إذا ساد حسن التصاهر بينه وبينهم ، ووجدت رابطة الإخاء والإخلاص والصدق بينهم .

١٠ - شرف التجار :

يكون بالجد والاجتهاد الشريفيين ، لا بالغش ولا بالخيانة ، وبأن يلوم حاجات البلاد التي هو فيها ومعضولاتها والأسواق التي يمكنه بيع المحصولات فيها وجلب الحاجات منها . وبأن يصدق في القول والقول ، ولا يتنزه فرصة جهل الناس فيخدعهم في البضاعة أو في ثمنها . ولا يخس الوزن ولا يتقص الكيل ، بل يكون شعاره دائماً : الصدق في القول والإخلاص في العمل .

١١ - شرف الزارع :

يكون باتقان زرعه وحرثه ومخافته على حقوق جيرانه وعدم اغتيال أرضهم

زرعهم ، وإعانتهم بقدر الإمكان ، وبأن يقوم بأداء ما عليه من الحقوق المالية لأصحابها وأن لا يسيء معاملتهم ، وأن يجتهد في الابتعاد عن الدين والرهن ليحفظ بذلك أطيانه وشرفه وسمعة الطيبة .

١٢ - شرف الصانع :

يكون باتقان صناعته ، والعمل باللمعة ، والمحافظة على مواعيده ، وتوجه فكره إلى ما يمكنه من اختراع آلات حديثة توفيراً للوقت والمال ، وبالاقتصاد في استعمال مواد البلاد الأوكية في صنع الآلات اللازمة للاستغناء بها عما يطلب من الخارج . ويكون أيضاً باتقان العمل ، ففي إتقان العمل غاية الشهرة وبلوغ الأمل ، ويكون بمراعاة الأمانة ، فلهصوص الوقت بين العمال لا يقللون جرماً عن لهصوص المال ، لأن الوقت ملك لصاحب العمل ، فإذا أضاف العامل إلى إتقان العمل والرغبة فيه الأمانة ، فقد جعل نفسه حصناً حصيناً يشرف منه على السعادة .

١٣ - شرف الصحفي :

يكون بالسعي في إنبات حقائق الأخبار وكشف كل غش وتدليس ، ونشر كل فضيلة ، وتقصيص كل رذيلة ، وإرشاد الأمة إلى ما فيه خيرها وإبعادها عن الشر ، وفتح أعين الجهال كيلا يتعاملم ذوو المكر والنفاق بمجهلهم وأساليبهم الشيطانية ، فالصحافة لم توجد إلا لهداية الشعب ، فإذا كان وجودها داعياً للتضليل أو لهش الأعراس فخير ألا توجد .

وإذا كان للطبيب فضيلة وقاية الأجسام من الأمراض ، وللمحاماة حسنة إظهار الحق وانتصاره على الباطل ، فالصحافة مزية تربية العقول ووقاية الآداب من الانحطاط والانتصار للمظلوم من الظالم ، فضلاً عما لها من الميزة في نشر العلوم والفنون ، وإيصال الأخبار الصحيحة من جهة إلى جهة أخرى ، والضرب على أيدي المرتشى والمستبد والمحتلس والخائن ؛ فهي إذا قامت حق القيام بواجبها تقطع الفساد من أصوله . وتصلح المختل ، وكان لها بذلك غاية الشرف .

والخلاصة أن العناية الإلهية تمنح الترف لصاحب العمل الشريف ما دام حياً ، فإذا غابت همة عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة روحه . نعم إنه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بمجسه ، ولكنه قائم في القلوب بعمله الطيب وأخلاقه الطيبة ، فعمت الحياة حياة الخلود . ومثل هذا فليعمل العاملون ، وفي طلب الشرف فليتنافس المتنافسون .

المخاضرة الثامنة :

الدين المعاملة

إن من نظر في أحوال العالم وجد أن المنازعات والمخاصمات الحاصلة بين الأفراد والجماعات سببها في الغالب سوء المعاملات .

فلو أحسن الإنسان معاملة أخيه ، والابن معاملة أبيه ، والأب معاملة بنيه ، والتاجر معاملة زبائنه . والصانع معاملة عماله ، والزارع معاملة زراعته ، وغيرهم معاملة بعضهم بعضاً لعاش الناس جميعهم في أمان واطمئنان ، وهناء وصفاء ، ولزالت العداوة والشحناء . وحلّ الوفاق محل الخلاف والشقاق .

ولكن مع الأسف أصبحت معاملة كثير من الناس في هذا الزمان - بعضها إن لم نقل كلها - غشاً ونفاقاً ومكرراً وخداعاً ونصباً واحتيالاً وظلماً وعدواناً وزوراً وبهتاناً ؛ لهذا قد انحطت الأمة وتدهورت الأخلاق وتلوّثت الأعراق .

ولا علاج لهذا الداء سوى اتباع الدين الحنيف ، والتسك بمكارم الأخلاق ، لأنّ الدين كما جاء في الأثر هو المعاملة . ولتتكلم على المعاملة فتقول وبالله التوفيق .

المعاملة

لا يمكن تعريف المعاملة تعريفاً جامعاً نظراً لتنوعها واتساع معناها ، وإنما يمكن تقسيمها قسمين كبيرين ، ينطوي تحت كل منهما أنواع من المعاملة .

القسم الأول : للمعاملة المادية

ونعني بها المعاملة التي دارها على الأشياء المادية كالمبيعات ومبادلتها بالنقود . وبما أن النقود هي قاعدة هذا القسم ، فهو إذن شديد الخطورة كبير الأهمية نظراً للمنزلة التي للدرهم والدينار في قلوب الناس ، والهيبة الشديدة المتمكنة في أفئدتهم لها ، إذ تراهم على اختلاف آرائهم - وتنوع صنوفهم يسعون وراء المال جهدهم ، ويعتنون دائماً بتحصيله . لأنّ المال والبنين ليسا زينة الحياة الدنيا فحسب ، بل هما قوام الحياة الدنيا . هناك إن أحصف أحد أقال - إحفاف في هذه المعاملة المادية لايسامح على هذا

الدين ولا يقبل منه عذر ، بل تنصب عليه أسهم الملام من كل صوب ، ويُفتح بينه وبين من أبجعت بحقه أبواب الخصام ولو كان من أخلص الأصدقاء وأقرب الأقرباء لأن المال كما قال الشاعر :

المال يفرق بين الأم والولد فذاك أدنى نسب عند كل يد
وحقاً لا يفرق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه سوى المال الذى عليه ؛ إما إصلاح الحال ، وإما سوء المآل ؛ فانصرفت إذن أفكار الناس إلى استنباط الوسائل والطرق لمنع هضم الحقوق والإجحاف بها ، ولربط الدين يريدون أكل أموال الناس بالباطل . وغفل أيديهم لكي يحسنوا معاملاتهم ، فاستعملت الرهونات والسندات وغيرها من الاصطلاحات المعمول بها . ولكن هذه الوسائل لاتضمن حسن المعاملة . إذ لا يمكن استعمالها في جميع المعاملات ، فلا يمكن لكل بائع أن يحرر سنداً على كل من اشترى منه شيئاً ، أو يأخذ رهناً على كل من استدان منه . بل يقتصر على المعاملات التجارية ، وقد لاقى بالمراد لأن الظلم من شيم النفوس ، كما قال الشاعر :

والظلم من شيم النفوس فان تجدد ذا عفة فلعله لا يظلم
والظالمون لا يهابون شراً ، ولا يراعون قانوناً ، فاخترعوا الطرق المتنوعة ليخلصوا من روابط الحقوق الواجبة عليهم ، وكثيراً ما فازوا بمرامهم ، فهضموا الحقوق واستباحوا المحرمات ، ولم تنفع الرهونات ولا السندات . وأكلوا أموال الناس بالباطل ويكون عملهم أكثر شراً وظلماً إذا كان المهضوم حتى يتم أو أرملة مسكينة لا حول لها ولا قوة على المطالبة بحقوقها ، ولا باب لها يرتزقان منه إلا ذاك المال الذى ابتلعه أولئك الظالمون ، فحسن المعاملة والحالة هذه يتوقف على شيم المتعاملين وأخلاقهم ودينهم وحسن تربيتهم . أما من ليس له من نفسه دافع يدفعه إلى الوفاء بحقوق غيره فلا تقوى روابط المعاملة على سقوته إلى ذلك ، وإذا سبق بها قهر فلا يسمى حسن المعاملة (لأن الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى) .

ولذلك نرى الناس متفاوتين في المعاملة . فبعضهم يسيئون جميع معاملاتهم وكثير ما هم . ومنهم من يحسنونها وقليل ما هم . ومنهم من يتوسطون بين الفريقين فيحسنونها في أمرهم وسيئونها في آخر إذا وجلا أقل عذر يتحملونه وهؤلاء هم الأكثرون . ولكن الإنسان يصبو دائماً إلى الكمال الأدنى ، ولا يرضى أحد بالذائل اسماً ولو كان مرتدداً بها فعلاً . وخصوصاً في المعاملة فان أردأ الناس معاملة ينثر من نسبه إلى ذلك .

فيجب إذن أن نشرح حسن المعاملة وفائدتها ، وسوء المعاملة وأسبابها على اختلاف أنواعها ليكون ذلك مقياساً لكل متعامل يقيس عليه معاملاته ليعلم من أي فريق هو في الفرق الثلاث التي ذكرناها ، حتى إذا كان من الفرقتين الكبيرتين يتزهدا وينضم إلى الفرقة الصغيرة الحسنة المعاملة لتحسن سيرته وتطيب ذكراه بين أحبته وعشيرته . وتنقسم المعاملات المادية إلى عدة أقسام :

١ - البيع والشراء

البيع معناه : المبادلة أو المقايضة ، وشرعاً : مقابلة مال بمال مع إيجاب وقبول على وجه مخصوص . والمال : معناه كل ما يقتنى ويملك من الأعيان ، أو كل شيء نافع للإنسان يصح أن يستأثر به شخص دون غيره .

وحكمة البيع نظام المعيشة وعمار الكون ، لأن حاجة الإنسان قد تكون في يد صاحبه غالباً . وقد لا يعطيا له بغير المعاملة . وربما يُفَضَّى إلى التنازع والحصام فيختل النظام ويتفنى العالم . ففي تشريع البيع والشراء وسيلة إلى بلوغ الغرض من غير ضرر ولا حرج . لذلك أباح الله البيع فقال تعالى (وأحلَّ الله البيعَ وحَرَّمَ الربَا) رفقاً بعباده ورحمة بهم - وتسيلاً لمعاملتهم .

ولكن مع الأسف الشديد لقد فشا بين الناس الفسّ والحياة وعمّ بينهم الخداع والمكر والتدليس في المعاملة . يؤذى بعضهم بعضاً . ولا يبالون أمن حلال أكلوا أم من حرام . ولا هم ضمّ سوى جمع المال وإطعام العيال ، وبناء الدور وتشيد القصور ، وقد نسوا يوم يعتسروا فيه إلى الملك العلام . ويؤخّلون بالتواصي والأقدام ، يوم لا ينفع من ولا نود . فيحاسبون حساباً حسيراً ثم يصلّون صعيراً .

يغتال الرجل على كسب كل أنواع الحيل غير ناظر إلى حلال أو حرام ، همه ملء جيبه وأكل أموال الناس بالباطل ، فتراه إذا باعك سلعة يُقسم لك الأيمان الغليظة إنها من أحود الأصناف أيزين . ويرغبك فيها فتغتر وتخدع ، والله يعلم إنه لكاذب فيها قن وآثم في يمينه . فهذا وإنّاه وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : **يُنْتَحَرُ حِمُّ الشُّجَارِ** . قالوا : يا رسول الله أليس الله قد أحلّ البيع ؟ قال صلى الله عليه وسلم : **بلى . ولكنهم يحدون فيأثمون . ويحدّثون فيكذبون** ، رواه أحمد . وطعن هذا انتاجر الكذاب أنه ربيع بقوله هذا . والله يعلم إنه خسر الدنيا والدين ،

واستحقَّ عذاب ربِّ العالمين ، لأنه حصل على ربيع غير حلال ، وهذا الربيع لا يهبط بل يذهب بعد قليل أو كثير من حيث آتَى ، وما صرف في وجه من الوجوه إلا ذهب البركة منه ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الذين القاجرة متفقة للسلعة ، ومحققة للكسب » رواه البخاري ومسلم .

ألا فليعلم التاجر الناشئ أن كسبه نُفِثَ وحرام ، وأن كلَّ لحم نبت من حرام فالنار أولى به . وليعلم التاجر الخالف كلياً أن حقوق الذي خلعه محفوظة يستوفيا من حسناته في يومٍ لا يبيع فيه ولا شراء ، في يومٍ لا درهم فيه ولا دينار .

أما التاجر الصادق الأمين الذي لا يغش الناس ، بل يبين لهم الجيد من الرديء وينصح المشتري ، فهذا كسبه حلال مبارك فيه ، ينمو ويزيد ، وأجره عند الله محقق ، فقد بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال « التاجر الصلوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » رواه الترمذي .

وقد نهى الله تعالى عن بخس الوزن والكيل فقال (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) .

وقال تعالى (وَلِلْمُطَّغْنِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) ، ألا يظنُّ أولئك أنهم مبعوثون ليومٍ عظيمٍ يومٍ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين) .

أمرنا الله تعالى في الآية الأولى أن نوفي الكيل ونثمة وألا نتقص منه شيئاً ، وأن نزن بميزان العدل وألا نقص من حقوق الناس ولا نبخسهم أشياءهم ، ولا نفسد في الأرض باتباع الشهوات وفعل الشرور ، لنعيش في صفاء ووقار .

وفي الآية الثانية أنذر المطَّغنين بالهلاك والحسران ، وهم الذين إذا اكتالوا من الناس أدخلوا حقوقهم أافية كاملة ، وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم يتقصون حقوقهم . لأنهم يمتدِّون أنفسهم على غيرهم ، وما هنا إلا لضعف إيمانهم ، فلو ظنَّ الناس مجرد ظنٍّ بالبعث فضلاً عن التَّعْيِين لما أقدموا على ارتكاب هذه المهرمات .

فاذا أردت أيها التاجر أن تكون من السعداء المحبوبين عند الله والناس . فعليك باتباع الصدق والحق والأمانة ، وترك الغش والكذب والخيانة في البيع والشراء . فاذا كان عندك بضاعة فاكشف للمشتري عن حقيقتها ليشتري منك بحسب قيمتها .

ولا تقل له إنها جديدة مثلاً إذا كانت قديمة ، ولا تقل له إنها سليمة إذا كانت سقيمة ،
لأنك بذلك تخدعه وتغشه وتضره ، وذلك فعل الكذابين المنافقين الخائنين .

فإن أخذها منك المشتري اختاراً بقولك ، فلا بد أن يظهر له بعد ذلك حقيقة أمرها . فيفضح أمرك وعقبتك ويُبغضك ويدعو عليك ويجهد في ردّ بضاعته إليك ،
فإن لم يقدر فلا يزال يشكو من فعلك ويملك ويذكر للناس ما وقع له من الغش^١
والغبن منك ، فتشتهر بين الناس بذلك فلا يأتئك أحد^٢ ، ويمتنع الناس عن معاملتك
ويحترمون منك ويُميتون الظن^٣ بك ، فلا تربح سوى ضياع الشرف الذي لا يُعوّضها
ولا يساويه شيء في الدنيا . فضلاً عن حرمانك من ثواب الله في الآخرة .

فليس هناك والله أحسن ولا أسلم ولا أربح من الصدق في المعاملة والأمانة ، فإن
صاحبها ياتمته الناس ويقبلون قوله ، فتروج بضاعته وتزداد شهرته ويمسح^٤ حاله ،
ويكون مرضياً عنه عند الله والناس . سعيداً في الدنيا والآخرة .
وسأذكر لك مثلاً أعلى عن التاجر الأمين .

التاجر الأمين :

قال ابن الخريف : حدثني والدي قال : أعطيت أحمد بن حسب الدلال ثوباً
وقلت له : به ، وبين هذا العيب الذي فيه . وأريته خرقاً في الثوب ، فصرى وجاء
في آخر النهار فدفن^٥ إلى ثمنه وقال : بهته إلى رجل أعجمي غريب بهذه الدنانير ، فعلت
له . وأريته العيب وأعادته به^٦ قال : لا . وإنني نسيت ذلك ، فقلت : لا جزاك الله
خيراً . اهض معي إليه . وذهبت معه وقصدنا مكانه فلم نجده . فسلنا عنه . فقيل لنا :
إنه رحل^٧ مع قافلة الحججاج .

فأحلت صفة رحل من الدلال . واكثر دابة^٨ ، ولحقت القافلة وسألت عن
رجل^٩ قال عنه . . . : الثوب الذي استريته أمس من الدلال فلان بكنا
وكه . فيه عيب فهو وخد دهر^{١٠} .

فقدم وأخرج ثوب وحت عن العيب حتى وحده . فلما وحده قال يا شيخ
أخرج دهي حتى تراه . وكه لما قبضته لم أميزه ولم ألتقه ، فأخرجته . فلما رآه
ق : هـ . دهي فقدمه يأسح . فنصرت إليه فإذا هو مغشوش (مزيف) لا يساوي
الذهب قد استرب منك هذا الثوب على عيب بهذا الذهب ،
ودفع^{١١} حالي حيداً وعدت به .

هنا مثل التاجر الأمين . أما المشتري الأمين فلنضرب لكم مثلاً عنه :
عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اشترى رجل من رجل عقاراً ، فوجد الذى اشترى العقار فى عقاره جرة فيها ذهب ، فقال له الذى اشترى العقار : خذ ذهبك إنما اشتريت منك الأرض ولم أشتِ الذهب ، وقال الذى له الأرض : إنما بعتك الأرض بما فيها ، فتحاكما إلى رجل ، فقال الذى تحاكما إليه : ألكما ولد ؟ قال أحدهما : لى غلام ، وقال الآخر : لى جارية ، قال : أنكح الغلام الجارية وأنفقاً على أنفسهما منه لتصرفا » .

التاجر الفاش :

لقد روى أن شخصاً كانت له بقرة فكان يخلط لبنها بالماء لبيعه ، فجاء السيل فى واد ، وهى واقفة ترعى فأغرقها ، فصار صاحبها يبكى عليها ، فقال له أولاده : يا أبانا لا تخزن ، فإن المياه التى كنت تخطئها بلبنها اجتمعت فأغرقتها ، وهذا نتيجة غشاً . لأن من يأخذ شيئاً قليلاً بغير حق يضيع الله عليه شيئاً كثيراً من نعمه بالحق .

مثال التاجر الصادق :

دخل رجل حانوت (دكان) تاجر ، فأعجبه لون ثوب عنده وبهره جمال منظره . فأحب أن يشتريه منه . فقال له التاجر : لا يفرئك حسن المنظر ، فإن نوعه غير جيد ، فشكر له صدقه وحسن إرشاده . وطلب آخر من نوع جيد فأسف التاجر لنفاذه ووعدته عند أول رسالة تأتيه أن يغيره . وبعد بضعة أيام ورد النوع الجديد فأعلمه به ليشتري منه ما يحتاج إليه ، فشكره ونشر اسم التاجر بين الناس لما عهد فيه من الصدق والوفاء .

٢ - الإجارة

لا أريد أن أتكلم عن الإجارة من الوجهة السريعة . أو الوجهة القانونية . فهذا خارج عن موضوعنا . إنما أريد الكلام عليها من الوجهة الأدبية فأقول :

الإجارة : هى عقد يلتزم به انؤجر انتفاع المستأجر بمافع السىء الموحجر إليه ورافقه مدة معينة بأجرة معينة . ومما كان الكثير من الناس لا يملك عقاراً أو أضيافاً . اضطرر لتأجير المساكن لتأويه . والأطيان نعمته . فكان حوا على المستأجر أن يقابل

هذه النعمة بالشكر ، ويُحسِن معاملة أصحاب الأملأك ، فلا ينفونهم ولا يغير بهم ولا يأكل حقوقهم . ولكن مع الأسف نرى كثيراً من المستأجرين لا يقوم بشروط الإجارة ولا ينفى بحق المالك . حتى يضطر لرفع القضايا ضده مطالباً بحقوقه ، أو مطالباً بإخلاء العين المؤجرة له ليتخلص منه ويبيع باله من جهته ؛ ومن يتوجه إلى المحاكم الأهلية يرها غاصّة بالقضايا المرفوعة ضد المستأجرين الذين أصبحوا لا يهتمون بالشروط المأخوذة عليهم ، وصاروا يحاولون بكل الوسائل الشيطانية في التخلص منها ، فإذا تَوَقَّع حيز مثلاً على أحدهم ، أسرع ورفع دعوى استرداد ، وادّعت الملكية لمتاعه أو منزله زوجته أو ابنه أو قريبه أو شريكه ، فبذلك تضيع الحقوق على أربابها ، فضلاً عما يتكبّلونه من المتاعب والمصاريف في سبيل هذه القضايا ، وكل ذلك راجع لعدم الترية وخراب النعمة حتى أصبحنا نقول : لا توجد عند الناس ذم بل هم رم ، ويتمنى الإنسان ألا يكون له ملك لكيلا يصاب بمستأجر محتال .

ويحضرني الآن حادثة من أغرب الحوادث ، وقعت من مستأجر لأسرة كبيرة ، وهي أنه استأجر منها ضيعة بما لا يقلّ عن ألف جنيه في السنة ، فاضطرت صاحبة الضيعة إلى مبلغ مائة جنيه ، فأرسلت لحضرة المستأجر تطلب منه هذا المبلغ ، فحضر إليها مسرعاً ومعه المائة جنيه وإيصال مكتوب بخطه بالمبلغ ، فاستلمت السيّدة شاكرةً وأمضت عليه بخمسة ، وشهدت على ذلك كرميتها وزوجها . ولما جاء ميعاد الإجارة طالبت بالمبلغ الباقي . فحضر إليها وقال : كيف تطالبيني يا سيدتي بهذا المبلغ الكبير ، وأنت استلمت منه تسعمائة جنيه ؟ . فلما سمعت السيّدة منه هذا الكلام دهشت وكاد يضيع صوابها ، وأخذت تقنعه بعدم صحة كلامه . وأنها لم تستلم منه سوى مائة جنيه . وانتهى الأمر بأن رفعت عليه دعوى ، واتضح من ذلك أن هذا الشقّ المحتال بعد أن أمضت السيّدة الإيصال بالمائة جنيه ، ذهب إلى منزله وبيّعة قلم بسيطة أضاف كلمة تسح إلى مائة فصارت تسعمائة (وكان تاركاً محلاً يسمها) واستمرت القضية زمناً بين المحكمة والحجاء الذين أقرّوا بصحة السند لعدم وجود دليل على تزويره لأنه بخطه ، وخسرت السيّدة المسكينّة مالها ووقتها ومصاريفها بسبب سوء معاملة هذا المستأجر وطمعه وخراب ذمّه .

فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

٣ - الاستشارة

جاء في المثل : العارية عار ، وهي حقيقة لاشك فيها ، فمن يستمر شيئاً من آخر يعرف بلسان حاله أنه في حاجة إلى من يستعير منه .

والعارية شروط ، وهي الوفاء : أى ردّ العارية في الوقت المعين بمآلتها التي كانت عليها ، وليس أصعب على الإنسان من أن يعير أحد أصلقاته كتاباً ولا يردّه إليه . وفي ذلك نظم أحد الأدباء :

لا تصيرن كتاباً واجعل العنبر جواباً
وخذ الرهن عليه إن في ذلك صواباً
وإذا خالفت أمرى أت ضيقت الكتاباً

ولهذا وضعت دور الكتب شروطاً خاصة للإعارة في الخارج لحفظها وعدم ضياعها وردّها في معادها . ولنضرب مثلاً لكم في جزاء خلف الوعد :

انكسر محراث أحد الفلاحين ، وأهمل إصلاحه حتى جاء أوان الحرث ، فذهب إلى جاره وقال له : أعطني محراثك لأحرث به يوماً ثم أردّه إليك . فقال له : كنت أودّ لإجابة طلبك ، ولكن ما حصل منك في السنة الماضية يمنعني من مساعدتك ؛ فقد أعرتك ليّاه لمدة يوم واحد ولم تردّه إلا بعد ثمانية أيام ، وكنت تعرف أنّي في حاجة شديدة إليه ، وإنّي أعتقد أنّ من يُخلف وعده مرة يجوز أن يُخلفه مرة أخرى . فاذهب وأصلح محراثك أو تدبّر في أمرك .

فذهب إلى بعض أصحابه ، فوجدهم في حاجة إلى محاريهم . ولم يجد وقتاً لإصلاح محراثه ، فتأخّرت زراعته بسبب ذلك وتدم على خلف وعده .

٤ - الاستئذان

أما الدّين فكانا جاء في الأمتال : الدّينُ همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار . وقال الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في حِكْمِهِ : قد حملتُ الأحجار والصُّخور فما وجدت أثقل من الدّين . وقال أحد الحكماء : الدّينُ رِقْلٌ فلا تبدل رِقْلُك لمن لا يعرف حقّك ولكن قد تطرأ على الإنسان أحوال شرعية قوية تدعوه للوقوع في هذا المخطور . فليتبّع في ذلك ما جاء في كتاب الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا إذا تدانستم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل) .

فأمر الله تعالى بكتابة الدين وميعاده ، وإقامة الشهود على ذلك .

والأصل أن يُعْمَلَ المدين جملة الشروط ليكون إقرارا منه بالفعل ، فإن كان ضعيف العقل أو صبيّاً أو شيخاً كبيراً فليعمل الشروط ولي أمره .

والواجب ألا تدن أحدًا إلا إذا اقتضته المعاملة ، ووقفت بأن مدينك ليس مشهوراً عنه السّفة وسوء التصرف . وأنه صادق الوعد ، وأن ما يطلبه منك ليس بقصد إنفاقه في بغيوحته ومسرته ، بل يصرفه في قضاء حاجته وتفريج كربته ، واجتهد في أن تفي بالحقوقي في مواعيدها ، ولا تُفْضِجَ حقَّ أخيك اتكالا على ما بينك وبينه من الصداقة ، واعمل بالمثل للمشهور : (تحابوا كالإخوان وتعاموا كالأجانب) .

• - الأمانات والودائع

الأمانات والودائع على نوعين :

١ - الأول : التجارية

وهي متاع أو مال يودعه تاجر عند آخر لبيعه أو يستثمره على جعل مُعَسَّين يؤدّيه المودع للمودع عنده .

وهذا النوع يبنى على شروط وروابط يصطّلع عليها لا يسع معها أحد الفريقين هضم حق الآخر أو غيبه .

٢ - والنوع الثاني :

ما لو تناع يودعه أحد الناس عند آخر ليُحفظ له عنده على سبيل الأمانة فقط حتى يطلبه . «تلا» يريد أن يسافر وعنده شيء لا يمكن نقله معه فيودعه شخصاً آخر يُثَمِّنه على حفظه حتى يرجع ويأخذه . والمتعارف في هذا النوع ألا يكون المودع عنده أجرة بل كل ما يناله جزاء قيامه بحفظ الوديعة أو الأمانة هو الشكر ، وثقة الناس به وثباتهم إياه على ما لهم .

ولكن هذا جزاء أدبي لا يصح أن يسمى جزاءً لعمل مادي كحفظ الوديعة والقيام بأدائها ؛ ولذلك إن فقدت الوديعة أو سرقت لا يطالب بها قانوناً ، إذ لا يطالب أحد

لعمل ما لم يكن له أجرة عليه . وهذه الكيفية من المعاملة خطيرة . ووخيمة العاقبة في الغالب ، وهي من الدواعي الكبرى لضياع الحقوق ، لأنه قد يطرأ طارئ يذهب بالوديعة ، مثل موت المودع عنده قبل أن يوصى بردها إلى ذوبها . أو قد يوصى ولا يكون ورثته على شاكلته في الأمانة والذمة فلا يؤدونها لأصحابها . أو ما شاكل ذلك من الطوائف الممكنة الخسوف .

وقد دلت التجارب على أن هذه الطريقة من المعاملة تكون سبباً لإيقاع الذين لا يكونون شديدي الأمانة في مهاوى الخيانة . لأنهم إذا ادَّعَوْا أن الوديعة سرقت أو فقدت أو أنكروها بالكليّة لا يكون للمودعين (أصحاب الدائع) تمسكات عليهم تحفظ لهم حقوقهم . لأن الناس ليسوا سواء من حيث الأمانة وعلو النفس وطهارة الذمّة (فهم من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك . ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً) والأمثال على ذلك كثيرة نذكر لخصرائكم بعضها :

استودع تاجر بالكوفة رجلاً من أهلها مالاً جزيلاً . وتوجّه إلى الحجاز لتأدية فريضة الحجّ ، فلما عاد طالب الرجل بماله فأنكره وجعل يخلف له . فانطلق التاجر إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وأخبره بذلك . فقال له الإمام : لاتكلم أحداً بمحموده . وكان عرف الرجل من جليسيه . فقال له وقد خلاهما المكان : إن القوم يفتنوا يستشيرونني فيمن يصلح للقضاء وقد اخترتك لهذا المنصب الرفيع .

ولما انصرف الرجل جاء صاحب الوديعة ، فقال له الإمام : ارجع إلى صاحبك وذكره لاحتمال أن يكون ناسياً . فرجع إليه فاحتاح معه إلى إشارة . بل دفع إليه ماله ، ثم توجّه الرجل إلى أبي حنيفة يذكره بوعده . فقال له الإمام : إني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أهميك حتى يحضر ما هو أنفوس من هذا .

قصة أخرى :

حكى أن رجلاً قدم ببغداد قاصداً الحجّ . وكان معه عقد يساوي ألف دينار . أراد بيعه فلم يجد من يشتريه ، فوضعه أمانة عند تاجر مشهور بالصلاح . ثم حجّ ورجع بهدية فاخرة ، وقدّمها للتاجر وسلم عليه . فقال له التاجر : من أنت ؟ فقال : أنا صاحب العقد الذي أودعته أمانة عندك . فقال التاجر : أنا لأعرفك . وأيسر لي عندي عقد ، ثم طرده من دكانه ، فذهب الرجل إلى عضد الدولة وهو أمير تلك الجهة وقتئذ

وقصّ عليه خبره ، فقال له : اذهب واجلس عند التاجر ، وحيناً أمرّ عليك وأقرّ لك السلام رُدّ عليّ السلام وأنت جالس .

ولما مرّ عضد الدولة بموكبه قال : السلام عليك . قال الرجل (صاحب العقد) : وعليك السلام ولم يتحرك . فقال الأمير (عضد الدولة) : يا أخى أتقصدُ من العراق ولا تنحصر عندنا ؟ قال الرجل : لم يتفق . فنهل التاجر .

ولما انصرف الأمير قال التاجر للحاجّ : ما صفة عقلك ؟ قال : كلنا وكذا ، فقام التاجر وأحضر له العقد واعتذر بالنسيان . فأخبر الحاجّ عضد الدولة بما حصل ، فأمر بصلب التاجر أمام باب دكانه جزاء خيائته . فصلب ومات ولسان الحال يقول : أدّ الأمانة . والخيانة فاجتنب واعدل ولا تظلم بحيلّ المكسب واحتر من المظلوم مهماً صائباً واعلم بأنّ دعاءه لا يحجب ونكتفي بذكر الحكايتين المذكورتين .

وفي حوادث مرقّة الأمانات التي كانت مودعة بمجالس المديريات ومعاينة المختصين لها التي نشرت في الجرائد أكبر عظة وعبرة .

٦ - الوصيات على القاصرين

هذا النوع من المعاملة هو أشدّ الأنواع خطراً وأعظمها شناعةً وفضيحةً في الدنيا وعذاباً في الآخرة . لأنه يتناول أكل أموال اليتامى والسفهاء والضعفاء .

إذا فقد الولد أباه . أقام المجلس الحسبي وصياً عليه للمحافظة على أمواله والدفاع عن حقوقه والقيام بشئونه . فإن كان الوصي من أهل الدنّة والأمانة والاستقامة قام بحفض ما يوصى عليه من المال والمتاع بدون أجر ، بل يفعل ذلك حباً لصالح القاصر ليقيم ومروءة لله تعالى . وإن كان على خلاف ذلك كانت الطامّة الكبرى ، والبلية العظمى ، على هذا القاصر المسكين الذي لم يكفه موت والده ، فتضيع حقوقه أيضاً .

فإذا كانت البركة أهلاً لأكا وعقاراً فقد لا يهتم الوصي بإصلاحها واستثمارها كما يجب أو قد لا يحكمه أشتائه الخصوصية من الاهتمام بأشغال غيره ، فيقع الغبن إذ ذاك على المتأثر . وإذا اهتمّ بذلك وتعب وقع الغبن عليه لأنه لا ينال جزاء أتعابه ، وخصوصاً إذا ضحّى بمصالحه الخصوصية في ذلك . وهذا ما يدعوه في الغالب لأن يرتكب إنم الخيانة . فمأكّل أموال المتأثر التي يقدم عنها حساباً للمجلس الحسبي . الله أعلم به .

ويتفق مع الخبير (الأمين عليه) فيسوّى له حكاية على الطريقة التي ترضيه ويصادق عليه المجلس ، وبذلك تضيق حقوق القاصر ويكون الجميع شركاء في هذا الإثم العظيم . اللهم إلا إذا وجد مشرفاً رجلاً طيباً ، وأخذ يناضل ويناقش الوصى والخبير والمجلس حتى تظهر الحقيقة بعد حين . وإذا ظهرت وكان الوصى مفلساً أو ماطلاً فتكون النتيجة أيضاً ضياع الحقوق وتذهب متاعب المشرف مدّى ، وتذهب معها أموال القاصر . والعيب في هذا كله راجع إلى علم ذمة الأوصياء وسوء نظام المجالس الحسينية والطريقة المتبعة في حساب الأوصياء . وقد فكّر أولو الشأن وولاة الأمور في إصلاح هذا النظام ، فسال الله أن يوفقهم لما فيه الخير لخلاص القصر الأيتام فيعملوا على ما فيه صلاحهم وحفظ حقوقهم .

والمعاملة الحسنة في هذا النوع هي أن يكون للوصى سواء كان وصياً مختاراً أو وصياً معيناً من قبل المجلس أجرٌ معين ليصبح مطالباً قانوناً بحسن إدارة التركة المسلمة إليه ، بشرط ألا يطوح بها في مهوى الخراب ويعرضها للضياع ، وإلا فيكون مسئولاً قانوناً بردها من ماله الخاص . فتصبح التركة مثل مال يرضه الإنسان في مصرف ليُسْتَمِر ويقم رعيه بين صاحبه ومستميره .

٧ - أوامر الله تعالى للأوصياء في أموال اليتامى والسفهاء

لما كان كثير من الأوصياء يأكلون أموال اليتامى والسفهاء بنير حق . أمر الله الأوصياء بليتاء اليتامى أموالهم متى بلغوا سن الرشد ، وعدم أكلها ، فقال الله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً) .

وكذلك أمر الله تعالى الأوصياء ألا يؤثروا السفهاء أموالهم . بل يقولها في أيديهم وينفقوا منها عليهم ويميلوهم بها متى استقاموا أو رشدوا .

وأمر الله تعالى باختيار الأيتام في دينهم وعقلهم وحسن تصرفهم قبل البلوغ . حتى إذا بلغوا ، وتحقّق الأوصياء من رشدهم فاعلم دفع أموالهم إليهم . وأمر الله تعالى بده إسراف الأوصياء في أكل أموالهم والمبادرة بانفاقها خشية أن يكبروا فيطالبوهم بها . ومن كان غنياً فليستغف من أكلها . ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف . وإذا دفع الأوصياء إليهم أموالهم فليشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً . وليخش الأوصياء

خالقهم في أمر اليتامى فليقلعوا بهم ما يحبون أن يفعل بترتيبهم بعد وفاتهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً بأن ينصحوا بعلم الإسراف في الوصية وتضييع الورثة .

قال تعالى (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) .

فحث الله الأوصياء في هذه الآية الكريمة على أنهم يخافون الله ويراقبونه في أمر اليتامى الذين هم تحت رعايتهم كخوفهم على ذريتهم إذا ماتوا وتركوهم ضعافاً : أى أولاداً صغاراً . خافوا عليهم من الضياع والإهانة . فليتقوا الله في أمر اليتامى الضعفاء ، وليقلعوا بهم ما يحبون أن يفعل بأولادهم الضعفاء بعد وفاتهم ، ثم إنه تعالى نبه الأوصياء بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الملاحظة ، فقال تعالى : (وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) أى صواباً .

والفرض أنهم لا يؤخزون اليتامى ، بل يخاطبونهم كما يخاطبون أولادهم بالقول الجميل وإنما نبه الله تعالى الأوصياء إلى حال أنفسهم وذريتهم لأنهم إذا تصوّروها وعلموا أنهم لو ماتوا وتركوا أولاداً صغاراً يكونون عليهم في اشتغال قلب وتغير حال . فإذا عرفوا تلك الحالة في أنفسهم وفي أولادهم . نظروا إلى حفظ مال اليتيم بعين العناية ، وتوجهوا إليه بعين الشفقة .

وهذا خلاف الحاصل الآن . فإنا نرى كثيراً من الأوصياء لا يبالي بقوله تعالى ولا يعمل به . بل بالعكس يأكل أموال اليتامى جهاراً ليلاً ونهاراً وهو لا يدري ولا يمي قول الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) .

ثم إن الله تعالى أكد الوعيد والزجر في أكل مال اليتامى ظلماً رحمةً منه تعالى بهم لأنهم لعجزهم وضعفهم صاروا مستحقين منه تعالى مزيد العناية والكرامة .

فقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا) أى على وجه الظلم من ولاية النسب رفقته لاعلى وجه المعروف (إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ) أى ملء بطونهم (نَارًا) أى ما يغري النار ويؤدى إليها ، وكأنه نار في الحقيقة ، فقد روى أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنه وعينه ، فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا فهل من يتعظ به ؟ .

٨ - اللقطات

لا يحقّ للإنسان أن يأخذ شيئاً لا يملكه بغير استحقاق . فإذا أصاب في طريقه مالا أو متاعاً لا يليق به أن يأخذه لنفسه ، بل يجب عليه أن يبحث عن صاحبه ويردّه إليه . أو يذهب به إلى مركز الحكومة فيسلمها إياه ، وإلا كان هو واللسّ سواء .

ومن أطف الحكايات التي يُضرب بها المثل في هذا النوع من المعاملة : أن رجلاً كان سائراً مع ابنه ، فوجد حقيبة مملوءة نقوداً . فقال الولد : يا لها من صفقة محمودة فقد أصبحنا أغنياء ، قال أبوه : لا يا بنيّ هذه الدراهم ليست لنا . وعلينا أن نبحث عن صاحبها ونردّها إليه فقد تكون كل ما يملك . قال : وإذا كان الذي أضاعها غنياً لا يضره فقدما ؟ قال : قد يكون كما ذكرت ولكن ذلك أبعثاً لا يسوّغ لنا أخذها . بل يجب ردّها لصاحبها كيفما كانت حاله ، قال : وإذا كانت الحكومة قدسها فلا بأس من أخذها لأن الحكومة غنيّة جداً حتى إنها لا تعبأ بهذه النقود . قال : إنك لفي ضلال مبین يا بنيّ ، لأن أموال الحكومة في عهدة أشخاص معيّنين يُعطون حساباً عما يصل إلى أيديهم من النقود . فإذا أضاع أحدهم أقلّ مبلغ يقع في أكبر مسئولية . وبالاختصار لاحقاً لنا في امتلاك هذه الدراهم . بل نأخذها ونقيها معنا وديعة حتى يعلم لنا صاحبها ، وظلا سائرين والرجل يلتفت إلى كل جهة يطلب أن يجد صاحب هذه الدراهم وإذا برجل أقبل مطرقاً برأسه يبحث في طريقه وعلامات الخزع والياس بادية على عيانه حتى اقترب منهما وسألما عن المفقود . فردّه الله إليه . فأخذته هزّة الطرب وصار نارةً يضحك، وتارةً يكي . وتلعثم لسانه عن الكلام ولم يجد واسطة يعبر بها عن شكره لهما إلا تقبيل أيديهما . لأن تلك النقود كانت ثمن كل ما ملكه في دنياه . باعه وعزم على الرحيل إلى بلاد أخرى ، فالتفت الرجل إلى ولده وقال : يا بنيّ إن سرورى برد هذا المال لصاحبه لأعظم منه لو أخذته . فاتبع مثالي واسع مقان . وكن أبنياً . وعامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك .

فليكن قول هذا الرجل وعمله قاعدة لكل من يصيب لقطة . ويجب على صاحب اللقطة أن يقوم بواجب الشكر لمن يرد إليه ما فقد . وإذا كان من الفقراء فيجب أن يجازيه جزاء مادياً أيضاً ، وإلا فيكون ناكراً للجميل وكافراً بالإحسان .

وقال آخر : حكى أن تاجراً فقد كيساً فيه مائة دينار . فأرسل نادياً ينادى عليه

في الأسواق ، وإذا برجل تقدّم إلى المادى وقال : إننى وجدت كيساً فاذكر لى علامة الكيس الذى تشده حتى إذا كان هو أعطيتك إياه ، قال : علامته كذا ، قال : هو بعينه فتعال معى إلى يلقى ، فذهبا ووصل الرجل ففتح صنتوقاً وناول المادى الكيس ، فتعجب المادى من أمانته مع أنه فقير وغير مهمّ بالكيس وقال : تعال معى إلى صاحبه فأسمى لك فى جائزة جزيلة وأخذه وأخبر التاجر بما كان وقال : إنه يستحقّ مكافأة جزيلة ، وكان التاجر بخيلاً جداً . فشقّ عليه وأراد أن يحتال فى التخلّص منه ، فأخذ الكيس وعدّ دنانيره وادّعى أن الرجل أخذ منه جانباً ويكفيه أن يتركه له ، أخذ يشتمه أمام الناس . فغضب الرجل وأجمعه كلاماً مرّاً ، فساقه التاجر إلى الحاكم وأخبره بما جرى وطلب منه أن يحصل ما أخذه الرجل ، فاستنطق الحاكم الرجل فحدثه بالقضية ، وكان الحاكم ذكياً فعلم أن صاحب الكيس كاذب كيداً هرباً من بذل المكافأة ، فالضت إليه وقال : أعلم أنك من كبار القوم ، ولا أشكّ فى صدق كلامك ، كما أنتى أشكّ فى أمانة هذا الرجل المسكين ، ولذا أرى أن هذا ليس كيسك فأرجعه إلى الرجل ليحفظ عنده إلى أن يظهر صاحبه ، وأنت قدش على كيسك عند غيره ، فاضطرب التاجر وأطال المحاولة . فأمر الحاكم بضربه ف ضرب وأخذ الكيس منه عنوة وأعطاه إلى ذلك الرجل . وقال الحاكم له : خذه وتصرف به حالاً ، ودع هذا الخبيث يفتش على كيسه الذى أعلم أنه هذا بعينه ، ولكن الطمع أضاعه مرة أخرى .

ولا يليق بأحد أن يدعى إذا رأى نقطة بأنها له ما لم تكن له . فذلك من أردأ أنواع الخيانة وأسوأ ضرورب المعاملة . والدليل على ذلك ما جاء فى أقوال قديمة ووصايا زمّة سطر لها اليونان والرومان أساطير كثيرة لترسيخها فى عقول أبنائهم .

٩ - الأمانات التى ينقلها شخص إلى آخر

إذا أعطى شخص أمانة ليوصلها إلى آخر وجب على الناقل أن يحافظ عليها ويحمّد فى إيصالها لصاحبها . وأن يعترس من الخيانة وإلا فيكون ردىء المعاملة ، ولا حاجة لبيان ما يتجم من الخسران والوقوع فى أضرارك الهوان .

نحن نورد لك حكاية الآن . قضيا ما يكفى لردّ الخائن عن خيانه ، وهى : كان أحد أرباب السيادة فى بلاد الإنجليز مغرماً بالزراعة وتربية المواشى ، فرأى

بقرة عند أحد الفلاحين أعجبه ، فاشترها وأوصاهم أن يرسلوها إلى بيته في الغد ، وحدث أنه يكرّر في ذلك الغد يتفقد بعض المزروعات ، وإذا بولد يقود البقرة ولا يكاد يقوى على كبح جماحها ، فلما رآه الولد ظنّه من عامّة الناس ، فتاداه ليأتى ويساعده في إيصال البقرة ، وقال : إن أصحاب المنزل من كرام النّاس ، وأؤمل نوال أجر على ذلك ، فتعال وأعنى فأعطيك نصف ما أتال ، فضحك الدّوق سرّاً وأراد أن يمتحن أمانة الولد ، فأقبل وأخذ يقود البقرة ، وأمر الولد أن يسوقها حتى وصل إلى البيت . وحيثل زاع ودخل من باب آخر وتناول أحد ختمه ديناراً وأمره أن يعطيه للذي يأتي بالبقرة ، فتناول الخادم الأمانة ودخله روح الطّمع ، فقال في نفسه : إن الولد فقير ويستعظم أقلّ شيء ، فأعطاه درهماً ، فتناوله الولد شاكراً وخرج فرحاً وهو ينظر بمنة ويسرة ليشاطر شريكه التّحفة ، وإذا بالدوق مقبل ، فصاح الولد : لقد تكرم على أصحاب المنزل بهذا الدرهم ، فهاك نصفه ، فتحمّر الدوق من ذلك وقال : لابل أنت نلت ديناراً ، قال : لأدرى ما تقول ، بل أعلم أن هذا جزء عظيم ، قال لا ، عد معي فأحصل لك على أكثر لأن أصحاب المنزل أصدقائي ، قال : إن ما نلتك ليس بقليل فخذ نصفه وامض ، فأخذ الدوق من يده وأدخله البيت وقرع الجرس وجمع الخدم وقال لولد : أرنى الذي أعطاك الدرهم ، فشرح الولد يتوسّم وجوههم حتى عرفه وقال هذا ، فن يقدر أن يصف الخيول الذي نزل على ذلك الخائن الذي خرّ على ركبتيه وأراد أن يسترحم مولاه ويطلب الصّفح ؟ لكن الدوق لم يدع له فرصة للكلام ، بل أمره أن يعطي الدينار للولد وطرده قائلاً : إن خيانتك ضيّعت منك مركز وصيتك . وسرّ جلدا من أمانة الولد فوضعه في المناريس على نفقته .

هذه حادثة من ألوف من الحوادث الدالة على وجوب الأمانة ، ونجيب الحياة إذا لم يكن حباً في الأمانة مجرداً فطعماً في فرائدها ، وهرباً من ذلّ الحياة وأضرارها .

التسم الثاني : المعاملة الأدبية

المعاملة الأدبيّة ، ونعني بها المعاملة التي قاعدتها الالتزامات الأدبيّة مثل : الوفاء بالوعد ، والصدق في القول ، وغير ذلك من الصفات الحميدة .
فاذا وعد الإنسان آخر حقّ عليه الوفاء بوعدته عملاً بقوله تعالى (وأوفوا بالعهد) إنّ العهد كان مستولاً (وقوله تعالى (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وليأتى تارة بعد تارة)

وقد جاء في كتاب الله ووصايا الحكماء والأدباء أمثال مختلفة تحريضاً على الوفاء بالوعد مثل قولهم : وعد الحرّ دينٌ عليه ؛ وإن الوعد كورق الشجرة ، والوفاء كالثمرة ، ولكن يبطئ الوعد سريع الوفاء ؛ إن الوفاء بالوعد دينٌ تُوجب عليك الشهامة والمروءة أدائه . ولهذا ينبغي أن يفكر الإنسان قبل أن يعدّ فاذا ما وعد تحمّ عليه أن يتجزّ وعده مهما كانت الموانع والعقبات كما قال الشاعر :

إذا قلت في شيء « نعم » فأتمه فان « نعم » دينٌ على الحرّ واجب
وإلا فقل « لا » تستريح وتريح بها لتلا يقول الناس إنك كاذب
إنك حين تعد شخصاً بأمر فقد بنى على موعدك مصالح كثيرة ، وإن في خُلُفك
لوعده ونقضك لعهدك نقضاً لهذه المصالح . وليس هذا من الدين ولا من المروءة .

إنك لتجد من نفسك امتناعاً ، وفي صدرك ضيقاً ، حينما يعدّك عامل أو صانع أو تاجر أو غيرهم بعمل من الأعمال ثم هم لا يوفون بوعدهم .
فاذا كان إنسان مسافراً مثلاً وأرسل خيراً لأهله وأصحابه بقدمه في وقت معين وجب عليه الوفاء بالحضور في الموعد المضروب ، لأن تأخيرهم يوجب لهم قلق البال وتبليد الأفكار من جهته . وقد ينتج لهم خسائر مادية وأتباعاً ، لأنهم غالباً يعدّون لغائبهم إن كان قريباً أو صديقاً معدّات غير اعتيادية تكلفهم تعباً ونفقةً ، وهم لا يعدّون بها إذا وفي بوعده ، ووافقهم في الأجل المعين .

ولكن إذا أُجِّل حضوره وضرب لهم موعداً آخر قد لا يلبثون له ذلك الاهتمام بعدئذ عن طيب نفس . بل يكون تكلفاً مملأً ، ونزك عليهم الضيف ثقيلًا .

نعم . قد تحدث موانع تحول دون وفاء الوعد ، وقد يكون له عذر مقبول ، ولكن بعض الناس يتحلّ أعذاراً قد تكون أتبع من الذنب وهؤلاء سيئو المعاملة .

وإذا ضرب أحد الإخوان لصديقه موعداً ومكاناً بالتحقيق فيه ، وجب عليه أن يوافيه في الزمان والمكان لمعين . ويفكر الذي يُعده الكسل عن الوفاء بالوعد في تنصّبٍ وانكسارٍ لا انتهى إلته ، صاحبه المهترئ فيجد دائماً للقيام بوعده .

لا تسرّ لك عليه ما وعدته إذا لم يدفعه في الحال يضرب له أجلاً يدفع فيه ذلك قد أخاف وعدته غير غير سرعى أوتاب العليل فيه . وإذا تكرّر منه خُلُف

مثال في الوفاء بالوعد :

من اشتهر بالوفاء بالوعد حتى ضرب به المثل « السموأل بن عادياء » . فن وفائه أن امرأ القيس الكندي الشاعر المشهور أودع عنده ابنته ودرعه وسلاحه وعاهله ألا يعطيها سواه ، ثم جاء أعداء امرئ القيس وقبضوا على ابن السموأل خارج حصنه ، وطلبوا إلى أبيه أن يفتديه منهم بدرع امرئ القيس وسلاحه ، فأبى أن يخون الأمانة ويتصرف فيها بغير إذن من أهلها ، فأصرّوا على قتل ابنته إن لم يفعل ، فأصرّ على رأيه . فقتلوا ابنته وهو ينظر إليه غير مكترث بذلك ، لأن شهامته ومروءته وهمته أبت عليه أن ينقض عهده ويغير ذمته وقال : « ما كنت لأخسر نمتي وأبطل وفاي » .
ومن قوله في ذلك مفتخرًا :

وفيت بأدور الكندي إنى إذا ما القوم قد غدروا وقت
ولذلك ضرب به المثل في الوفاء . واستحق من الناس حسن الذكر وجيل الثناء .
مثال آخر من وفاء سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

حضر بين يدي سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسير من الفرس يسمى المرمزان ، وكان من كبارهم . وكان محكوماً عليه بالقتل . فقال له : يا أمير المؤمنين أريد شربة ماء . فلا تقتلني وأنا عطشان ، فأمر سيدنا عمر بتركه حتى يشرب . وأمر له بقدر من الماء . فلما أخذ الرجل بيده قال له : يا أمير المؤمنين أنا آمن حتى أشرب هذا القدر . فقال سيدنا عمر : نعم لك الأمان حتى تشرب . فرمى الرجل القدر من يده وأراه على الأرض ثم قال : الوفاء بالوعد يا أمير المؤمنين نور أبليج . فقال سيدنا عمر : اتركوه الآن ولا تفتاوه . فأسلم الرجل . وكان سيدنا عمر يعمل برأيه ويشاوره بعد ذلك في أمور عظيمة .

وهذا النوع من المعاملة يتبع التربية والتهذيب . فإذا رأى الولد أباه وأمه ينجزن له ولغيره وعدهما . ثم رأى ذلك في معلم مدرسه . ثم في معاشره يخوانه ينفرون فيه الميل لأن يكون حسن المعاملة . يني بالوعد . ويصدق في القول .
فينبغي على الأهل والمعلمين وكل من يتدخل في شئون تربية ناس أن يكون مثالا صالحا يقتدى به في الأقوال والأفعال .

الخلاصة

أختتم هذه الكلمة في حسن المعاملة على وجه العموم فأقول :

على العاقل أن يقضى هذه الحياة الدنيا القصيرة في خيرٍ وصلاحٍ وإخلاصٍ
كرمية ومعاملة للناس طيبة حسنة ، ليتمتع في الدنيا بالراحة والنعمة ، ويفوز
في الآخرة بالثواب والرحمة ، وخيراً للإنسان أن يعيش مع الناس في مودة ، ويعاملهم
بالأخلاق الممدوحة والمعاملة الحسنة والأمانة والوفاء والاستقامة ، ويكون محباً لأهل
بلاده وأبناء جنسه على العموم ، يسعى في خيرهم ومنافعهم ، ولا يشوش على نفسه
في هذه الدنيا بعناوة الناس ومباغضتهم ومحاسنهم ، ليعيش بينهم مستريحاً خالي البال ،
فيكرّمونه ويودونه ويساعدونه في حاجاته أيام حياته ، ويذكرونه بالخير بعد مماته .
أسأل الله ربّ العالمين أن يوفقني وإياكم إلى ما به تطيب ذكرانا وتحسن سيرتنا .
والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيّد المرسلين في البله والختام ، والسلام عليكم
ورحمة الله .

المال

قال الله تعالى في كتابه العزيز (المالُ والبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) .

يَبَيِّنُ اللهُ تعالى في هذه الآية الكريمة أن المال والبين زينة الحياة الدنيا ، فكل ما كان من زينة الدنيا ، فهو سريع الزوال قريب الاضمحلال ، وما كان كذلك فلا يحسنُ بالعاقل أن يفخر به ، أو يفرح بسببه ، أو يقيم له في نظره وزناً .

وقدّم المال على البين ، لأنّ المال وجوده ضرورى لبقاء النفس ، والبين لبقاء الجنس ، وعمران الكون ؛ ولأن الحاجة إلى المال أشدّ من الحاجة إلى البين ، ولأنّ المال أقدمُ منهم في الوجود ، ولأنه زينة بلونهم . فن له بنون بلامال ، فهو في أصحّ حال ، وأشدّ تكال .

ثمّ يبيّن سبحانه وتعالى أن الباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ؛ ومعنى ذلك أن خيرات الدنيا زائلة متقرضة ، وخيرات الآخرة دائمة باقية ، والدائم الباقي خيرٌ من المتقرض الزائل .

كل شيء مصيره للزوال غير ربى وصالح الأعمال .
ولأن خيرات الدنيا حقيرة دنيئة ، وخيرات الآخرة عالية رفيعة ؛ ولأن خيرات الدنيا مادية حسية ، وخيرات الآخرة معنوية عقلية ؛ والعقلية أشرف من الحسية .
والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات أقوالاً كثيرة :

منها قولنا : سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقال صلى الله عليه وسلم : استكثروا من الباقيات الصالحات ، قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : التّكبير ، والتّهليل ، والتّسبيح . والتّحميد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ومن يحطّن الخطايا ، كما تحطّ أشجرة ورقها . وهى من كنوز الجنة .

وبعضهم يقول : إن المقصود من الباقيات الصالحات هو جميع أعمال الحسنات .
 وجميع أنواع الخيرات .
 والخلاصة أن كلَّ عملٍ وقولٍ دعائك إلى الاشتغال بمرقة الله ومحبتِهِ وخدمته ،
 فهو في الباقيات الصالحات . وكلَّ عملٍ وقولٍ دعائك إلى الاشتغال بأحوال الخلق .
 فهو خارج عن ذلك .
 أما قوله تعالى (خيرٌ عند ربِّكَ ثواباً وخيرٌ مملاً) أى كل عملٍ أريد به وجه
 الله تعالى . فهو لاشكَّ أن ما يعلِّق به من الثواب . وما يعلِّق به من الأمل يكون
 خيراً وأفضل . لأن صاحبه يؤمل في الدنيا ثواب الله . ونصيبه في الآخرة .

المال في نظر خواص البشر

سئل سيدنا عيسى عليه السلام عن المال ؟ فقال : لا خير فيه . قيل : ولم يا نبيَّ
 الله ؟ قال : لأنه يجمع من غير حيل . قيل : فإن يجمع من حل ؟ قال : لا يؤدِّي
 حقه . قيل : فإن أدَّى حقه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الكبر والخيلاء . قيل : فإن
 سلم ؟ قال : يشغله عن ذكر الله تعالى . قيل : فإن لم يشغله ؟ قال : يُعطِّل عليه حسابه
 يوم القيامة .

فتأمَّلوا رحمكم الله ، تجعل هذا الكلام النفيس وما أبدعه . وكيف أن أمام صاحب
 المال خمسَ عصابات هيبت أن يتجاوزها سالماً .

وقد سئل بعض الصالحين عن رجل يجمع المال من حلال ، ويُنْفقه في حلال ؟
 فقال : إذا نوقش الحساب هلك . ولم يذكر الله المال في مقامٍ يشرِّفه فيه أبداً ، بل
 ذكره حيث يستهان به في نظر العاقل . قال تعالى :

(زَيْنَ السَّامِ حُبُّ انْثَرَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ
 الذَّهَبِ وَالْصِّفَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَلَهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) .

فقد اندم مع الشهوات والملذات . وأضافه إلى الحياة الدنيا . وهي لا شيء في نظر العاقل
 وقال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ
 سِئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وقد التَّمَّار (أى أن المال لا يغني عن المجرم شيئاً .
 وقد تَمَّار في موضع آخر (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ

يُجِبَلْ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ) وهل بعد ملَّة الأرض ذهباً مال ؟ كلا . ومع ذلك فقد أخبر الله عنه أنه لا يقضى الكافر من العذاب وما لا يقضى لا يجدى نفعا أبداً .

ولما سأل بنو إسرائيل نبيهم من بعد موسى عليه السلام أن يجعل لهم ملكاً قال : (إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا) وكان طالوت قديراً . فاعترضوا عليه وقالوا : (أئني يكون له الملك علينا ونحن أحقُّ بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال ؟) فضنوا لقصور مداركهم أن المال والغنى من أسباب التفضيل . فقال لهم نبيهم (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ . وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُتَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) فأبان لهم فضله عليهم بالعلم والصحة والعقل . وأن ذلك كاف لأحقية بالملك عليهم . وأما المال الذي يذكرونه فليس من القضاة في شيء .

السعادة ليست في الجشع والإقبال في جمع الأموال

قدّمنا لك فيما تقدّم أن السعادة ليست في الإقبال في الأموال والملاذ . وسنقد على ذلك حكايات شائقة تتصل بالموضوع ، وها نحن أولاء متبناها بأخرى فنقول : من أبدع ما سمع في حكايات الصالحين والزهاد أنه حصل غرق في البصرة في حياة حسن البصري الزاهد المشهور . فاشتغل الناس بنقل ما لهم وأمتعتهم ، وصاروا يستغيثون وأدركهم التعب . فخرج الحسن البصري حاملاً عصاه وليس له شيء غيرها . فسبق القوم إلى النجاة ووقف بعيداً وقال لهم : (يا أهل البصرة لعدنجا المحفون) يضرب لهم بذلك صلاً بأن ذا الحمل الخفيف أقرب الناس إلى النجاة . وحكى عن سقراط الحكيم . أن الملك قال له : ما تفكر يا سقراط ؟ فقال : لو عرفت راحة الفقر لشغلتك التوجع لتفك عن التوجع .

وما ذاك إلا لما يجره المال من الأجرام العديدة التي استراح منها الفقير . فنعاقل بحسبه الناس شقياً فيما يمدّه هو سعادة . والجاهل يرى نفسه سعيداً فيما يمدّه المتعلاء سقاءً . والحقيقة أن السعادة ليست هي الغنى والثروة كما يتوهمه البعض : إنما هي المناء في المعيشة . وراحة البال . والتصرف والتبذير في المعاشة .

البدع في الموالد

الغرض من الاحتفال بالموالد : الذكرى الحسنة ، وتكريم الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين . وأوّل من أحدثها بالقاهرة الخلفاء الفاطميّون في القرن الرابع ، فابتدعوا سنّة المولد النبوي ، ومولد الإمام عليّ ، والسيدة فاطمة الزهراء ، وسيدتنا الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين . وبقيت هذه الموالد إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش ، ثم أعيدت في خلافة الحاكم بأمر الله في سنة ٥٢٤ هجرية .

وأوّل من أحدث المولد الملك المظفر أبو سعيد في القرن السابع بمدينة (إربل بالموصل) ، وقد استمرّ العمل بالموالد إلى يومنا هذا ، وتوسّع الناس فيها ، وتبدّعوا بكلّ ما تنوّه أنفسهم ، ويزيّن لهم الشيطان ، ولا نزاع في أن الموالد من البدع ، وإنما النزاع في حسنها وقبحها .

أما حسنها فينحصر في قراءة القرآن الكريم ، وحديث الرسول عليه أفضل الصلاة وأنمّ التسليم ، وإقامة الأذكار على الوجه الشرعيّ اللائق ، وإطعام الطعام للفقراء والمساكين ، وبذل الصنقات لإدخال المسرات على نفوس أفراد الأمة بتلك الذكريات العظيمة .

وأما قبحها فهو لما اشتملت عليه هذه الموالد من المفاصد المحرّمة والمكروهة شرعاً . فمنها : إضاعة الأموال في الزينات بكثرة الوقود في المساجد والطُرقات ، وإيقاد الشموع في الأضرحة ، وكل ما يرجع إلى الإسراف والتبذير . وفي الحديث الشريف « إن الله كره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » ، على أنه لو صرفت هذه الأموال في مشروع خيريّ كبناء مسجد أو مستشفى أو ملجأ ، لكان خيراً وأبقى لهم وللأمة الإسلامية .

ومنها : انتهاك حرمة المساحد بتقليدها بالأكل والشرب والمبيت فيها ، وكثرة اللغط ، ودخول الأطفال والرجال والبنات والنساء حفاة أو بالتمال ، فلا يكاد يتميّر لأحد إقامة الشعائر الدينية في مسجد يُعمل فيه مولد .

ومنها : خروج النساء متبرجات صافرات ، واختلاطهن بالرجال إلى حد لا يؤمن معه الفتنة وعدم العفة والحيانة .

ومنها : استعمال الأغاني وآلات الطرب في إقامة الأذكار على الوجه المحرم شرعاً بالإجماع .

ومنها : قراءة القرآن على غير الوجه المشروع الدال على عدم الاحترام لكتاب الله تعالى ، بل إهائه والاستخفاف به .

ومنها : شرب الخمر في مجالس القرآن ، والتشويش على القارئ والإعراض عن استماعه بالمحادثة والمطالعة .

ومنها : ما ينفقه بعض الأغنياء في سبيل المولد يلحياه بعض الليالي بأسمائهم حياً في الظهور ، وطلباً للشهرة والسعة ، وغير ذلك ، مما يفسد أخلاق أبناء الأمة ، ويبعث في نفوسهم الميل إلى الشهوات وانتهاك المحرمات .

فالواجب شرعاً على المسلمين عامة ، وأولياء الأمور خاصة ، أن يمنعوا الناس عن تلك المقامد والمخازي ، وأن يعملوا على إبطال تلك العادات في المولد ، وتهديب تلك الاحتفالات لتكون مطابقة لأوامر الدين ، ليفوزوا برضاء رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

حول التبشير والبشرين

داؤنا منّا . ودواؤنا فينا

بمناسبة الضجّة الهائلة التي قامت بمصر بسبب حركات التبشير وجرائم المبشرين وما قامت به الأمة من علمائها وأمرائها وعظماؤها وجمعياتها ورجال صحافتها ، من بث الدعوة ضدها ، والحث على مقاومتها ، ومعالجتها بالطرق المشروعة ، أرى من واجبي الديني أن أذكر كلمة صغيرة في أصل هذا الداء وبيان الدواء ، راجياً من الله نصر الدين ، وصلاح حال المسلمين ، آمين . فأقول ، وعلى الله التبول :

لكل داء دواء ، ولكل طريق هداية واستواء . فمن عرف الداء وصل إلى الدواء . وحصل بفضل الله على الشفاء . ومن ضل عن الطريق تاه في البلاء . ومن سلك سبيل الهدى بلغ غاية المنى .

وأشدّ الأدواء استمحالاً . وأفظعها حالاً ومآلاً . داء انحلال القلوب . وارتكاب
 الذمى والذنوب . وضعف العقيدة . وفقد الآراء السليمة . وتفرق الكلمة بين
 المسلمين . وهجر الآداب والدين . واتباع خطوات الشياطين . وغارقة رب العالمين .
 لقد دَبَّ في هذه الأيام بعد صلوة التبشير والمبشرين في قواد كل مسلم ،
 الشعور بالحاجة إلى الاتحاد ديبب الصحة في الأجساد . وسلوك سبيل الرّشاد ، فجزى
 الله المبشرين بما يستحقّون . لأنهم أيقظوا أبناء الأمّة من غفلتهم ، ونهّوهم إلى
 واجهم . وأشعلوا في نفوسهم نار النّيرة على دينهم . وإن كانوا من قبلُ لمن الغافلين ،
 وجاءتهم موعظة من ربهم لهم يتذكّرون .

نعم . سرى هذا الشعور في كل قلب . وعلم المسلمون بتفاهم الخطب . فقاموا
 للدفاع عن دينهم . والحفاظ على أولادهم من سريان علوى هذا الداء في نفوس الأبناء .
 ولكن اختلفت آراء الكتّاب . وكثرت التّداءات والاقتراحات . وتباينت أقوال الأطباء
 في طريق العلاج . وتقويم الاعوجاج .

إلا أن الآراء على تشعبها . والأدوية على اختلافها لا تخرج عن بذل النصيحة والدعاية
 إلى إنشاء ملاجئ ومستشفيات . لإيواء الفقراء والأيتام . وعلاج المرضى منهم ، وانتشالهم
 من غلاب المبشرين الضالّين .

كلّ هذا حسنٌ مقبول . ولكنه علاج وقّتي لا يبيّئنا المأمول . فضلاً عما فيه
 من تشجيع للعاطلين إن لم يكن مقروناً بتعليم الدين . ولو أمعنوا النّظر وبخّشوا عن حقيقة
 الداء . لعلموا أن الداء متأصل في الآباء . والدواء الوحيد في إصلاح حالهم قبل الأبناء .
 لأنهم بسبب إهمالهم وتركهم أمر دينهم . كانوا أسوة سيّئة لهم . فأضاعوا أولادهم
 وجزّزهم إلى هذا التّدهور . ودعّوهم إلى الإلحاد والارتداد . فوجدوا من عطف
 المبشرين حناناً وإحساناً . وانفس تميل دائماً إلى حبّ من أحسن إليها .
 أحسن إلى الناس . تعبدوا بهم . فطالما استعبد الإنسان إحصاناً
 فبأيها الآباء عليكم :

أولاً — بالنّسبة بأهذاب الدين . لتكونوا قدوةً حسنةً لأبنائكم . فيسلكون
 مسلككم . ويتبعون سيرتكم . والولد كما قيل : سرّ أبيه .
 ثانياً — يجب قبل كل شيء تربية أولادكم تربية دينيّة صحيحة ، وتعويدهم من

صغرهم على الصلاة في البيت أو المسجد . فينشأون نشأةً صالحةً . وينوقون حلاوة الإسلام والإيمان . والولد ينشأ على ما كان عليه والده . كما قال الشاعر :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

ثالثاً — يجب على المدارس عموماً ، والأولى والابتدائية خصوصاً جعل التعليم الديني إجبارياً . وإلزام الأولاد بالصلاة في أوقاتها . بانصلي المدة ثم في المدرسة . أسوةً بالمدارس الأجنبية (عند دخول الطلبة في الصباح وقبل خروجهم في المساء) .

رابعاً — يجب على رجال الدين . والجماعات الدينية . القيام بالدعوة إلى الدين ليس في المساجد فقط . بل في الملاهي والمستشفيات والسجون وغيرها .

خامساً — يجب توزيع المصاحف والكتب الدينية مجاناً على المسلمين . كما يفعل الأجانب من توزيع الإنجيل مجاناً ، نشرّاً للدين . ولإيقاظ الناس على حقيقة توحيد رب العالمين . وتصليق النبي الأمين .

فبذلك ينفرس في نفوس الأبناء من صغرهم حب الدين . ولا يؤثر فيه غواية الشياطين من أولئك المبشرين مهما فعلوا وبذلوا من مال . وعلى الله إصلاح الحال . في الحال والاستقبال .

اتصاف الدين على المدنية

خلق الإنسان وخلق في صدره ملكٌ وشيطان . بنبل قوله تعالى :
(ونفس وما سواها . فأنسها فجورَها وتقواها . قد أفلح من زكّاها .
وقد خاب من دساها) .

أي أن الله تعالى خلق النفوس وعدلها وبين لها طريق الخير والشر . فمن زكّى نفسه وطهرها من الكفر والمعاصي . وأصلحها بالمصالحات من الأعمال . فقد أفلح . أما من حاد بها عن طريق الهدى والصواب . ومان بها إلى المعصية . وترك طاعة الله فقد فشل وخاب .

فاذا أراد الإنسان أن يأتى عملاً من السيئات رقص له شيطانه ضرباً . وأخذ يزين له حب الشهوات وما ينجيه منها من اللذات . ولكن لا يلبث حتى ينثره منكبه بنويل والثبور وعظائم الأمور . من عقاب شديد في الآخرة . وذئ ونحطاط في الدنيا . فيقف حائرًا بين شيطانه وملكه .

فاذا كانت له إرادة قوية ، وهداية رباتية غرسها فيه مبادئ الدين الصحيح ،
لجى نداء الخير ، وصدّ شيطان الشر ؛ وأما إذا كان ضعيف الإيمان ، رقيق الدين ،
فلا يقوى على معاندة صوت الفواية ، بل يتقاد لداعى الشهوات ، فيقوده صاغراً إلى
حفرة الرذيلة وأحوال الضلالة ، حيث تتمرغ روحه فى الأدران ، تفقد طهارتها ،
ويحيط بها ظلام الموت الأدنى .

لهذا ، كان رجال الفضيلة والتقوى ، هم أبطال الرجال كما قال الشاعر :

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتق الله البطل

هم أبطال الرجال ، لأنهم أعتقوا أنفسهم من رق الشهوات ، وسمّوا بها فى عالم
الأرواح ، فوضعوها فوق هامة الحيد ، لئلا المال يستعبد لهم طرحوه تحت أقدامهم ،
ولا الشهوات تغريهم وتغويهم ، لأنهم زهلو الدنيا ومتاعها (وما الحياة الدنيا إلا
متاع العُروِر) زهلو الحياة الدنيا لاعتز عجز التمتع بها ، بل عن إباء وتكبر ، وعزة
نفس ، ينظرون بعين الاحتقار والازدراء إلى عبدة المال ، أو بعبارة أخرى : إلى عبادة
المال وأرقاء الشهوات ، فيضحكون من ضلالهم وضعف عزيمتهم .

ظنّ بعض الناس أن الفضيلة من غرس المدنية الحديثة ، وأنّ مسابجا القانون
الأرضى . وسورها الخوف من الناس ، ولكن قد خاب ظنهم ، وضلّ سعيهم ، فإن
المدنية قد عجزت عن إدراك الفضيلة ، والقانون أشهر إفلاسه ، وطأ رأسه ، أمام
الدين ، والقانون الساوى (قانون ربّ العالمين) .

ماذا تُعبد المدنية الحديثة المبتنية على المنفعة الذاتية ؟ إنها لم تنب لنا سوى الربا
والزنا والخمر والميسر ، ولم تشر سوى الرذيلة المستترة ، لأن من يخشى الناس ويخاف
القانون يحتال فيرتكب فى الخفاء الماضى ، فيسرق ويغش ، ويحتال فيرتشى وراء
الستار . والناس يعامون أنه مجرم مذنب دنس منقطع ، ولكن مع الأسف يجعلونه
سأله . أو لمركره . أو لجأه .

وأما الذين امتزجت نفوسهم بحبّ الدين الصحيح ، الدين الذى يأمر بالمعروف
وينهى عن المنكر . فقد عرفهم الناس من ثمار أفعالهم وفضائلهم ، أولئك
ابسوا وجهاء ولا أغنياء . بل هم كالذهب الإبريز صيغوا من الفضائل ، شعارهم
أخياء . ودثارهم أوفاء . وطريقهم الاستقامة ، ترفضوا عن الدنايا فى السر كما نبهوها

في الجهر ، قتلوا شياطينهم بقيود المبادئ الدينية الصحيحة ، وأطلقوا العنان للاثمهم فحملوها إلى معاني الشرف الأسمى ، ونالوا العز والرضوان من الملك الديان .
ضعيف ومسكين هذا القانون ، ما صدد ظلماً ، ولا كبح جراح طامع سالب ، بل قد تفنن الماكرون في استعماله ، فجعلوه آلة للتشكيل بالبسطاء وسلب أموالهم وهتك أعراضهم .

وأما الدين ، الصحيح ، فهو حفرة النجاة التي ينشأ عليها صرح الفضيلة ، وترفع بأصحابها إلى أعلى الدرجات في الحياة وبعد الممات .

هذه كلمة صغيرة ، بل حكمة أوجهها إلى الآباء ، فإذا أردتم صيانة أولادكم وحفظهم من عدوى الرذيلة ، فانصبوا حولهم سوراً منيعاً من المبادئ الدينية الصحيحة علمهم لتلايفتروا إذا رأوا الأشرار الفسجاء يتقدمون ويرتفعون في بعض الأحيان ، فانهم سيسقطون ، وسيكون سقوطهم عظيماً ، كما قال الشاعر :

ما طار طيرٌ وارنق إلا كما طار وقع

يسقطون فسقط معهم أسيهم ، وتذهب كرامتهم ، وتضيع ثروتهم بسبب هجرهم للدين ، وغفلة رب العالمين .

أما الأمة التي تشبع قلوب رجالها بحب الفضيلة والتقوى ، فبشرها بالفوز المبين وارتقاها إلى أعلى عليين .

علموا أن الذنب متبوع بالعقاب ، وأن العقاب وإن تأخر فهو واقع لا محالة .
وأن عقاب الكبير كبير ، وأن الجزاء من المستقيم الجبار يقع على الكبار والصغار ، فلما إلى الجنة ، ولما إلى النار ، وأن الفقير الشريف خير من الغني البذاء . وأن المعاصي مسقطه لأصحابها وإن ارتكبت في الخفاء ، وأن الفقير المستقيم يجب عليه أن ينظر إلى الغني المفسوج المغموس في أحوال الرذيلة بعين الازدراء والاحتقار ، ويمجد الله على ما أنعم به عليه من نعمة الشرف والتخار .

علموا أولادكم أن في الدين الغنى والثروة ، وفي التقوى السعادة ، وفي الفضيلة الحياة ، وألا شرف بلا دين ، ولا استقامة بلا تقوى ، ولا اعتبار لأحد بلا فضيلة .
قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

إذا علمتموهم هذه المبادئ فقد أعدتموهم للفوز في معترك الحياة ، وانصبر

في المعركة الكبرى التي قامت بين التفضيلة والرديلة . منذ خلق الله الإنسان ، ووجه التمييز بين الخير والشر . وفضله على سائر الحيوان بفضيلة العقل واللسان . إذا قمتم بهذا الواجب نحو أنفسكم ونحو أولادكم ونحو وطنكم ونحو الإنسانية ، فابشروا بخس الأجر والثواب ، وطوبى لكم وحسن مآب . والسلام عليكم ورحمة الله .

الدعوة إلى الدين

الدين هو القانون السماوى الذى أنزله الله على رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام لهداية الخلق إلى الحق وإسعادهم في الدنيا والآخرة . بانقيادهم لأحكامه ، وخضوعهم لأوامره . فلا تختلف بهم الآراء . ولا تلعب بأفكارهم الأهواء (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

الدين ما أنزل إلا تهذيب النفوس . وكبح جماحها عن الشهوات . وصدتها عن ارتكاب المنكرات . وهدايتها إلى الطريق القويم . والخلق الكريم .

الدين أحكم دستور لحفظ النظام العام من القوضى والاضطراب . ليعيش الناس في أمان وسلام . فلا صلاح لهم إلا به ، ولا سلامة لهم من المخاطر إلا به ؛ إذ ما من فضيلة إلا حث على التخلق بها . وأشار إلى حسن نتيجتها ، وما من رذيلة إلا حذر منها وتبين سوء عاقبتها .

الدين أكبر زاجر للضال . وأعظم مصلح للسرائر . رقيب في الخلوات . ونصيح في المناسبات بما حواه من النصائح والإرشادات .

الدين أعظم قانون لصلاح الحياة الاجتماعية واستقامتها . وأنفع وسيلة لتنظيمها وسلامتها . بما أرشد إليه من الأحكام العادلة . والأوامر الكاملة .

فكان حقاً على كل مسلم أن يكون به متمسكاً ، ويقواعده عملاً ، وعليه محافظاً ، وإليه داعياً ، فوالله لأسعاده للأمة الإسلامية إلا بالدين . ولا دواء لها إلا بالدين ، ولا قوة ولا حياة إلا بالدين .

وقد جاء في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى : كتاب الله ،
رسنة رسوله .

ومن المحقق أن كل قانون أو نظام . لا يكون له رجال يعمونه . ويدافعون عنه . ويعتصمون عبث العابثين به . فلا يلبث أن تتعطل أحكامه . وتنطمس آثاره . وتبدد معاملته ، وتتوارى محاسنه . ويهون مكانه على النفوس . فيقول " أخذ الناس به . ويشند انتصافهم عنه مهما كان كافلاً لمصالحهم . محققاً لسعادتهم . لأن النفوس البشرية كما هو معلوم نزاعة إلى الهوى . ميالة إلى حب الدنيا الفانية . لهذا كان من الضروري جداً النشاط في الدعوة إلى الدين من جانب حضرات العلماء ، وأن يكون من وراء هذه الدعوة قوة تؤيدها وتشد أزرها من جانب حضرات الحكماء والأمراء والأغنياء .

فقد جاء في الحديث الشريف « إن الله كثيرُ الخزع بالسلطان ما لا يزع باقرآن . فواجب أولاً : على حضرات العلماء أن يؤدوا الأمانة التي وضعها الله في عقولهم . وأن يشمروا عن ساعد الجدة لهداية الناس . ولإرشادهم إلى سنن الدين . وأن يثبتوا للخلق ما أنزل الله في كتابه المبين من الآيات البيّنات والحكم الباهرات .

وواجب ثانياً : على حضرات الحكماء والأمراء والأغنياء أن يعضدوا حضرات العلماء بمالهم وقوتهم وجاههم . وأن ينصروا الدين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وأن يضربوا على أيدي العابثين بأحكام الله وسنة رسوله .

فالجميع مسئولون عن ذلك بين يدي أحكم الحاكمين (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) .

ويجبنا لو فكرت مشيخة الأزهر الشريف في تعيين حضرات العلماء الذين نخرجوا من مدة ولا عمل لهم ، لأن . وهم كما بلغني كثيرود . ووزعتهم على جميع الجهات . خصوصاً في البلاد التي يكون فيها معاهد التدبيريين . ويكون مرتبهم من الأموال الجارية جمعها من الجماعات التي قامت لنفاعة عن الدين . أو بتخصيص لذلك مبلغ من ميزانية وزارة الأوقاف من الأبواب المخصصة للتبليغ والإحسان .

وذلك لنشر الدعوة الدينية . ومحاربة تلك الحماة المدبرة ضد الإسلام والاسمين والعمل على إحباط مساعي المشين .

وهذا في اعتقادي وفي اعتقاد كل مسلم غيور على دينه محب لوطنه خير من إنشاء ملاجيئ ، لأننا لا نريد إيجاد تكايا للفقراء والعجزة واليه طين . ويكفي مشروع حكومتنا

السنية القائمة به الآن من عمل ملاحي ؛ إنما نريد تعلية دينياً يصلح أخلاق أبناء الأمة
الفئالين ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويرد الملحين والمرتين إلى حظيرة الدين
القويم . والله الهادي إلى سواء السبيل .

أثر الدين في النفوس

يعيش الإنسان تارة في عزّ وهناء ، وطوراً في ذلّ وعناء ، ثم ينتقل من دار الفناء
إلى دار البقاء ، فيفنى ويفنى معه كل شيء يتعلّق به إلا الدين .

قال صلى الله عليه وسلم : إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ،
أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، وكل هذه من فضائل الدين .
وقال لبيد الشاعر المشهور :

ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ وكلّ نعيمٍ لا عمالة زائلٌ
وقال آخر :

كل شيءٍ مصيره الزوال غير ربي وصالح الأعمال
قد بُنِيت الإنسان في ماله ، ويُفجّع في عياله ، ويُرزأ في عافيته وصحته ، فيفوته
حقب ذلك صديقه ، ورفيقه ، وصاحبه ، وحييه ، وقربيه ، ونسيه ، ولا يبق له
شريك في السراء والضراء ، وصديق في الغنى والفقْر ، ورفيق في السُرور والحزن ،
سوى الدين .

ينتقل الإنسان من بلد إلى بلد ، ويستبدل أرضاً بأرض ، وأهلاً بأهل ، فلا يناله
من أبيه وأمه وإخوته حين يفارقهم إلا دعة وداع ترسلها العين ، أو كلمة ينطق بها
الهم . ولا يناله من صديقه إلا كلمة تشجيع ، أو نظرة توديع ، أو دعاء له بالسّلامة
في الرحيل والإقامة . حتى إذا مضى شعر من نفسه بذلك الرفيق الذي ينسب وحشته ،
ويؤنس وحدته . ويبقى في نفسه الصبر والجلد والتّسلية والاحتمال .

هذا الرفيق الأعلى هو الله الذي شرع له الدين (وهو معكم أينما كنتم) بمرض
الإنسان فتتمتق اللذة في حسنه . ويذهب الوهن في عظمه ، وحوله من الأهل
و"رحال والمال . ما لا يدفع عنه بعض ما به من الآلام والأسقام ، فلا يجد وسيلة إلى
الشّجاء من المرض . ولا سبيلاً لاستيقاء الحياة إلا الدعاء لله ، فيقول : يا ربّ أسألك
الشّفاء . وأعوذ بك مما أجده من اللّام ، ويردّد في نفسه قول الله تعالى حكاية عز .

مسيدنا إبراهيم الخليل : (الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطمعنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يُميتنى ثم يُحيينى ، والذى أطعم أن يغفر لى خطيئى يوم الدين) .

وإذا شعر بدنو أجله ، وقد فى الحياة كل أمله كانت التوبة إلى الله أول ما يلوك لسانه ، والاستغفار أول ما يجرى فى صدره ، وكان خير زاد يدخره للأخرة ، ويعتمد عليه فى حال انتقاله ، تلك العقيدة المستكنة فى قواده ، وهى عقيدة الدين ، عقيدة الإيمان بالله ورسله وكتبه ، تلك العقيدة هى التى تهون عليه سكرات الموت ، وتذهب عنه الخوف والملع من العقاب ، هى التى يسلو بها حب الدنيا ، ويميل بها إلى حب الدار الآخرة ، ويقول فى نفسه : (مرحباً مرحباً بقاء ربى) .

تلك العقيدة الدينية ، هى التى تنزل معه حفرته ، وتبقى معه فى وحدته وعزلته ، بعد أن يسكن القبر ويوسد الصخر .

فاو علم الإنسان ما وراء هذه الحياة الفانية من نعيم مقيم ، أو عذاب ألم ، ما اتخذ له طريقاً سوى الطريق المستقيم ، طريق الذين أنعم الله عليهم غير الضالين الملحطين .

قال تعالى (فامأأ من طغى ، وآسَرَ الحياة الدنيا ، فان الجحيم هى المأوى ، وأماً من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هى المأوى) .

ولئن سألت صاحب الدين عن دينه لأجابك : إن عزته لدينه قبل عزته لنفسه وحياته .

وإن عرضت عليه أن يترك دينه أم يقتل ؟ لأجابك بلا تردد : القتل أحب إلى من الكفر .

ولئن سألته : هل يختار لابنه الكفر مع الحياة والنعيم فى الدنيا ، أم الموت مع اتقفر والإسلام ؟ لقال : أختار له الموت عن الخروج من الإيمان والإسلام .

فترى صاحب الدين الحقيقى المتمسك به يفرط فى ماله وولده وحانيته ولذائذ دنياه ، وكل ما يكون أحب إليه فى الحياة ، قيل أن يفرط فى دينه الذى يدخره لرضاء ربه ، ويحفظ به ليجد السعادة التى لا تخطر على قلب بشر .

كذلك الأمة التى تكون متمسكة بدينها ، ترى أنه وسيلها إلى السعادة . ولا ترى عليها حرجاً فى أن تلقسه وتشره فى الناس وتدعو إليه بكل الوسائل المشروعة ، حتى تخالط بشاشته القلوب .

فهل هؤلاء الملحدين الخارجين على الدين باسم المدنية ، أن يعتبروا ويتقنوا ، ويعاموا أن خروج روحهم من أجسادهم خيرٌ لهم وأشرف من هذا الخروج القاهر ، والكفر الظاهر .

وهل هؤلاء المبشرين أن يخشوا ويرجعوا عن دعوتهم الباطلة الكاذبة ، ويعلموا أن ما يتفقون في سبيلها خسران ووبال عليهم ، ومستود عليهم بالحسرة والتندامة كما وعدم الله بذلك في قوله (إِنَّ الدِّينَ كَفْرٌ ابْتِغَايُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُغْفِرُهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) . وفي الختام أدعو الله أن يوفق المسلمين للتمسك بدينهم الخفيف . وأن ينصر هذا الدين . ويحبط أعمال المبشرين إنه السميع الحبيب .

للسعادة إلا بالدين

قرأت كلمة عن بشارك والدين في تاريخ المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أذكر خلاصتها ، فقها عبرة وعظة لأول الألباب . ودليل على أنه لاسعادة للإنسان إلا بالدين . ولا سعادة للأوطان إلا بالإيمان . قال :

لأنني لأفهم كيف يعيش قوم وكيف يمكنهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليه . إذا لم يكن لهم إيمان جاء به وحى سماوى واعتقاد في إله يحب الخير . وحاكم ينتهى الفصل إليه في الأعمال في حياة بعد هذه الحياة ؟ . (في هذا دليل على أن الرجل يؤمن بالله واليوم الآخر) .

ثم قال : لو تقصت عقيلتى بدنى لم أخدم بعد ذلك سلطانى ساعة من الزمان ، وإذا لم أضع ثقى في الله لم أضعها في سيد من أهل الأرض قاطبة . لكن انظروا إلى تجنوني قد ملك من -رارد الرزق ما يكفينى . وارتقيت في المناصب ما لا مطمع بعده . فاماذا اشتغل ؟ ولم أجهد نفسى في العمل ؟ ولم أعرضها إلى الهوم والآلام ؟ إنه لا يبعنى على شيء من هذا . إلا شعورى بأننى في جميع ذلك أعمل عمل لوجه الله تعالى ، لو لم يكن لي إيمان بالعبادة الإلهية اتى قضت بأن يكون هذه الأمة الأمانيّة شأن كبير وأثر في الخير عظيم . لفرحت لداعى ما أحل من أقال أعمال الحكومة ، ماذا أقول ؟ بل ولا ذلك الإيمان لما قبلت شيئاً من هذه الوظائف . لأن المرتب والأتعاب لابهاء لها ولا فائدة لها في نظرى . ولولا يقينى بنعمة بعد الموت لما خلت وطنى ، اسلبونى هذا

الإيمان تسليوني محبتى لوطنى . وهذا يؤيد القول المأثور : (حب الوطن من الإيمان) .
اعلموا أننى لو لم أكن مخلصاً لدينى لوئيت ظهري جميع الحاشية . ولو وجدت منى
فى الغد خلتماً يكون أخلص منى فى يقينه لركت منصبي فى الحال . ما أعظم مسرقى
بهجر الوظائف لو تعلمون . إني أحب المعيشة فى القرى وبساتط الخليفة .

هذا كلام بشارك السيامى الألماني الداهية الشهير . وهو يدلنا على أن هذا الرجل
العظيم كان يعتقد أن عظام أعماله إنما كانت من مظاهر إيمانه وتمسكه بالدين . وأن
الاعتقاد بالله وباليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما إلى مراتب السيادة وأوج
السعادة فى دولته وأمتة .

وحقاً إن من تمسك بالدين نال السعادة فى الدارين . وقاز برضا رب العالمين .
وقد قال المرحوم الشيخ زكى الدين سند رئيس جمعية مكاره الأخلاق ومؤسسها
فى هذا المعنى :

لأملت ما نلت من عزّ ومن كرم إن لم أوفّ لشرع الله بالذمم
وإن أنا لم أكن بالدين معتصماً فلا ترقّت لى هاه العلاء همى
نـأى الله أن يوفّقنا لتتسكك بالدين . واتّباع سنّة سيد المرسلين . صاوت الله
وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

كيف نربي أبنائنا

بمناسبة افتتاح المدارس ، قد رأيت أن أذكر كلمة في كيفية تربية الأبناء ليكون فيها عبرة وذكرى الآباء ، يكفى الناقد البصير أن يُعبر الوجود لفظة ليرى احتياج الإنسان إلى التربية ، فانما يولد صغيراً مجرداً من كلِّ مميزات الرجال ، فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تُخلق ساذجة قابلة للكمال ، ولذا صار من الوجوب المعنى العناية بتربية الأبناء وتدريب أخلاقهم ، وتغليبهم بالعلم ، وتدريبهم على عمل يقومون به في حياتهم ، ويقومون به أود عيشهم ، ولكنه لا يجب أن يوكل أمر تربية الأبناء إلى أنفسهم ، أو يترك لاختيارهم ما يرونه وسيلة لعيشهم ، فإن ذلك يستدعي خبرة وممارسة لا يستطيعون اكتسابها في وجيز عمرهم ، إلا أن التربية والتعليم أصولاً يجب معرفتها . ولا يبان لهذا الباب أجلٌ في الأعين وأقربُ للفهم مما جاء في كتاب إحياء علوم الدين للفرالي رحمه الله أذكر ملخصه هنا :

إن الصبيَّ أمانةٌ عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرةٌ نفيسةٌ خاليةٌ عن كلِّ نقشٍ وصورةٍ ، وهو قابلٌ لكلِّ نقشٍ ، مائلٌ إلى كلِّ ما يوجه إليه ، فإن عودَ الخيرِ وعلمه نشأ عليه ، وسعد حاله في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه ، وكلُّ معلمٍ له وودبٌ ، وإن عودَ الشرِّ وأهميلَ إهمالِ الهائمِ شقيٌّ وحلكٌ ، وكان الوزرُ في رقبةِ القيمِ عليه والمتولى أمره . فالواجب إذن على الوالد صيانة ولده وتربيته التربية الحسنة ، بأن يودِّبه ويهذِّبه ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء ، ولا يموِّده التمتع ، ولا يُحبِّب إليه الزينة وأسباب الرفاهية ، فيضيق عمره في طلبها إذا كبر ، ويهلك هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره ، فلا يستعمل في حضناته وإرضاءه إلا امرأةً سالحةً متديّنةً ، تأكل الحلال ، لأن الابن الحاصل من الحرام لا يركب فيه . وإذا وقع عليه نشوء الصبيِّ انعجت طبيته من الخيث ، فيبيل طبعه إلى ما يناسب الخباث . وينبغي للوالد دقّة ملاحظة نظافة ولده ، وألا يتركه مع خدام

يقتبس منه سبي الخلق وضاد التربية ، ومتى رأى فيه خيال النيز أحسن مراقبه ، وأول ظهور ذلك مبادئ الحياء ، فإنّ الولد إذا كان يحتم ويسبح ويرك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، وهذه عطية الله تعالى إليه ، وبشارة تدلّ على اعتدال الأخلاق ، وصفاء القلب ، وكمال العقل عند البلوغ ؛ ولكن الصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحياته وتمييزه . وأول ما يغلب على الصبي من الصفات شره الطعام ، فينبغي أن يُعَلِّم آداب الأكل ، مثل ألا يأخذ الطعام إلا يمينه ، وأن يقول عليه (باسم الله) وأن يقبّح عنده كثرة الأكل ، بأن يشبه له كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وأن يُجيب إليه القناعة في الطعام ، وألا يؤثر طعاماً على آخر . ويجب أن يُحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التَّعَسُّمَ والرَّفَاقِيَّةَ وليس الثَّيَّابُ الفَاخِرَةُ ، وعن مخالطة كل ما يرغبه فيها ، فإن الصبي متى أهمل في ابتداء نشوه يخرُجُ في الغالب رديء الأخلاق كذئاباً حوداً سرّاقاً تماماً لحوماً ، ذا فضول وضحك . ويُحفظ من جميع ذلك بحسن التأديب ، وذلك بتعويده من الصغر على ترك الكبر والإعجاب وحببة النفس ، وتكليفه باستعمال الرق واللين والتلطّف مع الغير ، وكذا يلزم أن يثبت في عقل الصبي العقائد الدينية التي تأمر بالمعروف ، وتنهى عن القبحاء والمنكر ، وتبيّن له مزايا الفضيلة ليحبها ، ويتمسك بها ؛ ويقبّح عنده الرذيلة ليفرّ منها ، ويبعد عنها . هذا ، ومتى ظهر من الصبي خلق جميل ، وفعل محمود ، فينبغي أن يُكْرَمَ عليه ، ويُجَازَى بما يفرح به ، ويمدح بين الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة يتغافل عنه ، ولا يهتك ستره ، ولا يكشفه الأمر لاسياً إذا ستره الصبي من نفسه ، واجتهد في إخفائه ؛ فإن أظهر ذلك عليه ربما يفيد جسارَةً حتى لا يزال بالمُكاشَفَةِ ، فإن عاد يُعاقب سرّاً ، ويعظّم الأمر له ، ولا يكثر عليه العقاب في كل حين ، فيكون عليه سماع الملامة ، وإرتكاب القبايح ، ويسقط وقع الكلام من قلبه ، ولكن الأب حافظاً هيئة الكلام مع ولده ، فلا يشتمه لئلا يعود عليه . ولا يوبخه إلا أحياناً ، والامّ مخوفه بالأب ، وترجعه عن فعل القبايح . وينبغي أن يُمنع عن كل ما يفعله في خفية ، فإنه لا يجتنبه إلا وهو يعتقد أنه قبيح . ويعود في بحر اتِّهَابِ المَشْيِ والحركة والريضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ولتقوى عضلاته . وينبغي أن يُمنع عن أن يفترح على أقرانه بشيء مما يملكه والداه ، أو بشيء من مطاعه وملابسه وأدواته .

بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشروه . والتلطّف في الكلام معهم ؛ ويجب أن يُمنع عن أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له حسناً بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لأبي الأخذ . وأن الأخذ دناءة وخسة .

وبالجملّة يقبّح إلى الصبيان حبّ الذهب والفضة ، ويحذّرون منها أكثر مما يحذّر من الحية والعقرب . فان آفة حبّ الذهب والفضة والطمع فيهما ، أضرت من آفة السُّوم على الصبيان . بل على الكبار أيضاً ؛ ويجب أن يعود الأمانة والصدق . ويُحرّم عليه الكذب . ويُمنع من الحلف رأساً ، صدقاً كان أم كذباً ، ويُعلّم آداب المحادثة فيُمنع من لغو الكلام وفحشه ؛ وينبغي أن يتحمّل عقاب معلّمه لأنه أولى الناس بمحبة نفعه .

وينبغي أن يؤدّب الصبي باللّعب لعباً جيلاً بعد انتهاء الشغل ليستريح من عناء الدرس بحيث لا يتعب فيه . لأن منع الصبي عن اللّعب وإرهاقه في التعليم دائماً كالشّح عليه بالدرهم ، ويُبغض قلبه ، ويُبطل ذكاه . ويُنقص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً .

ومنى بلغ الصبي سنّ التمييز لا يُسمحُ في ترك أمور الدين ، وتعلّم آدابه وفضائله ، فان من لا يتمسك بدينه ولا يحرص عليه لا يُرجى منه خير . فاذا بلغ تشبّه الصبي كذلك . وقارب سنّ البلوغ . أمكنه أن يعرف أسرار هذه الأمور فيذكر له أن الأطعمة أدوية ، وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله والعمل . وأن الدين وخدمة الوطن ونفع النّاس أمور واجبة ليستمرّ عليها في أدوار حياته . وهي الكفيلة له بالنّجاح والسّعادة في الدنيا والآخرة .

هذه هي الآداب الصحيحة . والدروس الأساسية للتربية الحقيقية التي يجب تلقينها للصبي فإنها الوصايا المتلى في جعله إنساناً كاملاً ، وبغيرها يتمدّد تهذيبه ، وتكون كلّ التّعاليم التي تأتي إليه خيالية لا تؤثر على وجدانه بشيء ما .

ولما كانت التربية لا تصلح إلا إذا كان القائم بها مرشداً كان أو مربياً . متخلّفاً بالأخلاق الحسنة . والطّباع المألوفة التي يراد بها تعويد الصبيان عليها ، حتى يكونوا خير قدوة لهم في قولهم وعملهم . وجب على القائمين بتربية الأبناء حسن الاعتناء بتأديبهم . والحرص على تعويدهم على الكمالات النفسانية ، وعدم مسامحة أنفسهم ، ومغافرة ذنوبهم بإهمال أدرهم . فانما هم المسئولون عن هذه النفوس الصغيرة أبناء

العصر ، ورجال المستقبل ، حقق الله فيهم الأمل . وهذان جميعاً إلى نشر الفضيلة
وصالح العمل .

كيف نربي بناتنا

إن تربية البنت مما يساعد على زيادة تحسين حالها ، وحال بيتها . وتوسيع نطاق
معارفها فيما يتعلق بواجباتها المنزلية حتى تصبح كعامة لأولادها وخمها من غير
إخراجها عن وظيفتها حيث إنها ستصير أما ، والأم هي الحجر الأساس للأسرة .
كما قال المرحوم حافظ إبراهيم :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم أستاذة الأساتذة الألى شغلت مآثرهم مدى الأفاق
أنا لأقول دعوا النساء سوافراً بين الرجال يحلن في الأسواق
في دورهن شئونهن كثيرة كشئون رب السيف والزراق

ولم يمنع الدين الإسلامي مطلقاً من تعليمهن لقوله صلى الله عليه وسلم : طلب العلم
فريضة على كل مسلم ومسلمة .

فالعلم الذي لا بأس في تعليمه البنات : هو القراءة والكتابة ضمن تعليم القرآن
الكريم وقواعد الدين وآدابه لتعرف البنت ما يجب عليها . وما يجب لها من الحقوق
والواجبات كما قال حافظ رحمه الله :

ربوا البنات على الفضيلة إنها في الموقنين لمن خير وثاق
وعليكم أن تستقين بئاتكم نور المسلى وعلى الحياء الباقى

وكذا تعليمهن مبادئ الحساب والخطمة والجغرافية . خصوصاً جغرافية مصر
وبلد العرب . ومختصر تاريخ الإسلام . ولا سيما تاريخ النساء المسلمات لشهيرات .
ليكون في ذكرهن أكبر عظة لمن . وأحسن قلدوة لمن . وتاريخ بلادهن . فان
هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ومعرفة . تجعلهن صاحبات لمشاركة الرجال في الكلام
والرأى فيعظمن في قلوبهم . ويعظم مقامهن لديهم .

ويجب أن تكون البنت عالمة بخدمة المنزل . وتدبير شئونه . فيزه أن تتعلم فن
تدبير المنزل ، ومبادئ القوانين الصحية . والإسعافات المرضية . وما يلزم من الخيضة
والتطريز والطبخ الخ : أى كل ما يحتاجه المنزل .

قال النبي صلى الله عليه وسلم (لَا مَ سَلْمَةَ) «إذا أدّت المرأة فريضة ربها ، وأطاعت بعلمها ، وحركت الميزل كانت كأنها تُسبِّحُ الله ، وما دام الميزل في يدها كانت كأنها تُصلي جماعة» ، وإذا طبخت القلور لأجل أطفالها تساقطت ذُنُوبُها .

هذا ما يمكن تعليمه لبناتنا ، وأظنّ فيه الكفاية لحسن تربيتهن ، وفيه الكفاية لجلها أمّا صالحة مهذّبة مربية .

أما التوسّع في المعلومات ، فهذا لا يفيدنا شيئاً ، وخروج بها عن وظيفتها . وسبق أن تكلمنا عن وظيفة المرأة فلا داعي لتكراره ، وقد ظهر للأمة فساد تربية البنات من التطرّف في تعليمهن .

فلو أخذنا بنتاً وعلمناها القراءة والكتابة ، وحفظت يسيراً من القرآن الكريم والعقائد والآداب الدينيّة والعبادات ، وطرفاً من قانون الصّحّة والتاريخ الإسلامي وتاريخ مصر ، وكيفية تدبير البيت ، وتربية الأولاد ، والأشغال اليدويّة ، ثمّ تصرفاتها في بيتها كان منزلها هو المدرسة الثانوية لهذا التّعليم الابتدائيّ تجري فيه تطبيق ما تعلّمته ، لأن وظيفتها تقتضي جميع هذه المعلومات كما لا ينكره أحد ، وبذلك لا تنسى ما تعلّمته ولا تتغير أخلاقها .

وما الفائدة من تعليمها علوماً عالية ما دامت بحاجة لها في منزلها . فإذا ربّينا البنت على هذه المبادئ ، وحلّيناها بالكالات ومكارم الأخلاق ، ومنعناها من الخروج الفاحش ، والابتدال في الطّرفات ، وقويّنا فيها فضيلة الحياء والعفة ، أمكنها أن تنفع نفسها وأهلها ووطنها ، وقامت بوظيفتها التي خلّقت من أجلها (وهي الأمومة) أحسن قيام .

والله الموفّق لما فيه صلاحهنّ .

الواجب

الواجب كلمة صغيرة تنطوي تحتها معاني كثيرة . وفضائل كثيرة .
الواجب : ما لزم القيام به ، وتَحَمُّمُ أدائه على كل فرد من أفراد المجتمع الإنساني
وبعبارة أخرى ، هو الحق الذي على كل إنسان أن يقوم به لغيره ولنفسه ولوطنه .
وإن شئت فقل : الواجب دينٌ على كل شخص أن يقوم بسداده لإخوانه وأُمته .
وذلك بالسَّعي في معترك الحياة بما ينفعه وينفع النَّاسَ ، ولا يضرَّ غيره .
الواجب ملازم للإنسان في جميع أدوار حياته ، فتبتدئ واجبات الإنسان في يوم
ولادته . وتنتهي بموته . لأنه مخلوقٌ له حقوقٌ وعليه واجبات ، خُلِقَ لتفسيها
والحصول عليها .

ففي المنزل : واجب الآباء للأبناء ، وواجب الأبناء للآباء ، وواجب الزوج
لزوجته . وواجب الزوجة لزوجها . وواجب الخادم لسيده ، وواجب السيد لخادمه .
وواجب الأخ نحو إخوته ، وواجبهم نحو أقاربهم وجيرانهم .

وفي خارج البيت : واجبات الأصحاب والإخوان والأصدقاء . وواجب الرئيس
نحو المرعوس ، وواجب المرعوس نحو رئيسه . وواجب الحاكم والمحكوم ، وغيرهم
في رجال السلطة والإدارة .

الواجب ملازم لنا من يوم دخولنا هذا العالم إلى يوم خروجنا منه : فواجب علينا
لخالقنا . وواجب علينا لأنفسنا . وواجب علينا لغيرنا . وواجب علينا لأنماطنا .
وواجب علينا لمن فوقنا . وواجب علينا لمن دوننا ، بل ولأعدائنا . وواجب علينا نحو
الوطن ، ونحو الحيوان الأعجم .

وأينما وجد العمل وجد معه الواجب ، وما نحن في هذه الحياة الدنيا إلا خدامُ نعمل
لمصلحتنا ومصلحة النَّاسِ ، كما قال الشاعر :

النَّاسُ لِلنَّاسِ من يلو ومن حضرٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدامُ

والواجب كما عرّفه بعض علماء الأخلاق : هو العمل الأخلاقي الذي يبعث على الإتيان به الوجدان .

والواجب دعامة الأخلاق الفاضلة ، وهو الذي يشدُّ عضد الإنسان في أكبر مواقفه . فان جهل المرءُ واجبه ، وعجز عن القيام به ، اضطربت حياته ، وساءت معيشته مهما كان قوياً .

أما إذا عرف المرء واجبه وقام بأدائه انقلب ضعفه قوة ، وجبته شجاعة ، مهما كان ضعيفاً جباناً .

الواجب هو الذي يحفظ النظام العام ويحمله قوياً متيناً ، فاذا لم يقم كل إنسان بواجبه اختل النظام . وساء الحال . أما إذا قام كل امرئ بواجبه ، ساد النظام ، وعم الأمن والسلام .

فلو عرف المسلم الواجب مازق ، فكان متجاوزاً حداً من حدود الله ، هاتكاً عرض ابنة أخيه في الحياة . فانحأ لها باب الانقياد لسواه . لو عرف المسلم الواجب ما شرب خمرًا تشرب عقله . وتقيع فعله وتأكل ماله . لو عرف المسلم الواجب ما تناول عرض أخيه بلسانه . ولما سعى بالغبية والخيبة ضده . لو عرف المسلم الواجب ما كان هو والأمة إلا روحاً واحدة في أجسام متعددة .
والذي أضرب مثلاً لذلك :

قد أصاب الناس قحطٌ في خلافة الصديق رضى الله عنه ، فلما اشتد الأمر قالوا : يا خليفة رسول الله ، إن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، وقد توقع الناس الهلاك ، قال : اصبروا فإني أرجو الله ألا تمسوا حتى يُفرج الله عنكم هذا الكرب العظيم . فلما كان آخر النهار جاء الخبر بأن عيراً (لعنان بن عفان) جاءت من الشام وتُصبيع في المدينة . فلما جاءت خرج الناس يلتقونها . فاذا هي ألفت بعير حاملةً براً وزيتاً وزبياً . فأناخت بباب عثمان ، فجاء التجار . فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : إنك لتعلم ما نريد . قال : كم تُربحونني ؟ قالوا : الدرهم بدرهمين ، قال : أعطيت زيادة على هذا ، قالوا : أربعة . قال : أعطيت زيادة ، قالوا : خمسة ، قال : أعطيت أكثر . . قالوا : يا أبا عمرو ما بقي في المدينة تجار غيرنا . وما سبقنا إليك أحد ، فن الذي أعطاك ؟ فقال : إن الله أعطاني بكل حسنة عشرًا ، فأنا أشهد الله أني جعلت ما حمت هذه العير صدقة لله على الفقراء والمساكين في عامة المسلمين .

ذلك هو الواجب الذى قام به (ذو التورين عثانُ بنُ عفانَ رضى الله عنه) .
وقد أشار إليه علم الهدى ، ومهبط الوحى ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم
فى قوله « المؤمنون كرجل واحد . إن اشتكى عضو اشتكى كله . وإذا اشتكى رأسه
اشتكى كله » . وفى قوله « المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ . والمؤمنُ لنحو المؤمن . يكف عن
ضيعته ، ويحوطه من ورائه » .

ذلك هو الواجب الذى لأجله يتألم المصرى لمجاعة العربى . ولأجله يحزن أفندى
لمعاكسة الصينى والتركى . لأجله يحمى المسلم الصادق وهو فى الشرق أخاه من العدو
المنافق . وهو فى الغالب . لأجله أتقن الصانع صناعته ، وأحسن الزارع زراعته . وأتمر
التاجر تجارتة . ودبر الأمير إمارته . لأجله على الجملة جاءت الشريعة الإسلامية الغراء
بهذا القانون المستورى بأن كل إنسان راع . وكل راع مسئول عن رعيته .

أداء الواجب

على كل إنسان أن يؤدى واجبه . لأن الإنسان فى هذه الحياة لا يعيش لنفسه فقط .
بل يعيش لنفسه وللناس . وإن الإنسان الذى لا ينظر إلا لنفسه . ولا يعمل إلا لنفسه .
ويؤثر الحياة الدنيا على الآخرة فيقال عنه : رجلٌ (أنانى) يحب نفسه . والأناية هى
أحط درجات الإنسانية . والمتصف بها يكون محترماً مردولاً . أما المرء الذى ينظر إلى
من يحيط به من قرابته وعشيرته . ويعمل الخير لهم . يكون إنساناً كاملاً محبوباً من
الجميع . والإنسانية لا ترتقى إلا إذا كان المرء فيها ناظراً إلى عمل الخير لأمة وبلاده .
ثم ترتقى إلى درجة الكمال . وهى درجة العاملين لخير الإنسانية كلها فى جميع الأجناس
والشعوب والأديان .

فالفرد الواحد مرتبط بالجماعة المنضمة التى يعيش فيها بروابط تبرزل منافع
المادية والمعنوية . والتمتع بالحريّة والمساواة . وتوفر أسباب الأمن والضمانية على
النفس والعرض والمال .

فهناك تضامن بين أفراد الجماعة . ففى كان الفرد متمتعاً بحقوقه . فرضت عليه
واجبات يؤدىها لئلا تمتعه بهذه الحقوق . إذ كما يستفيد الإنسان يجب أن يفيد .
إن الأفراد فى الجماعات أشبه شئ بأعضاء الشركة . لا يملك العضو حقوقاً فقط .
بل هو ملزم لئلا هذه الحقوق بواجبات تفرضها عليه ضرورة التعاون والتآزر .

فلا سبيل لأن ينال الفرد أو الأفراد حقوقهم ما لم يقوموا بواجباتهم . ولا يستطيع الفرد أن يستقلّ حقوقه ، بل هو ملزم أن يُضحّي شيئاً من تلك الحقوق بقيامه بالواجبات المفروضة عليه نظير الفوائد الجمّة التي يمنحها من الحياة الاجتماعية .

فحياة الأفراد الاجتماعية تبقى وتلوم بأن يقبلوا فيها بينهم الحقوق والواجبات . فافذ الواجب دليل الحياة وقوامها وعمادها . فمن لا يقوم بواجبه فلا حياة له ولا قيمة له في الوجود .

والدليل على ذلك أن من نظر إلى أعضائه ووظائفها ، رأى أن الراحة كلّ الراحة في إتمام واجباتها بغاية الدقّة . وعلم أن المرض والآفات والأوجاع إنما هي دليل على تقصير تلك الأعضاء عن القيام بوظائفها ، وأدرك أن القيام بالواجب من مقتضيات الطبيعة . وأن راحة الإنسان متوقّفة على قيامه بأداء الواجب .

وإذا رجع الإنسان إلى نفسه . وبحت ملياً في الأسباب التي دعت إلى تأخيرها ، وكدرت عليه صفاء عيشه . ودرس أسبابها ودقّت فيها ، وجد أنها ناجمة من تقصيره في أداء الواجب .

فالأغنياء الذين يؤدّون ما عليهم من التبرعات للجمعيات الخيرية وبناء المستشفيات وغيرها من المنافع العمومية . يزدون في راحة النّاس وسعادتهم ، ويكتسبون الفضل الجليل . والذكر الجميل .

والعمالّ الذين يعملون لخير البلاد ولأنفسهم يسعدون ويسعدون أمّهم . وبالعكس . العمالّ الذين يهملون في أداء الواجب عليهم ، وعلم إطاغهم لقوانين البلاد يزدون في شقاء العالم وتعامته .

ولا يبقى العالم ولا يرقى إلا بأداء الواجب ، فلو أن مجتمعاً قصّر في أداء كل واجباته أياماً لفنى وتلاشى .

والتلميذ الذي يؤدى واجبه لمدرسته وأسرته يسعد والديه ويسرهم (والسعيد من سعدت به النّاس) . ولو رفض طلبة المدارس أن يتعلّموا وأضرّوا عن الدرس مثلاً . ولم يؤدّ أفراد الأسرة واجبهم . ورفض كل ذي عمل أن يؤدّي عمله ، لحاق بالجموع الإنساني الفناء العاجل . والحرب الشامل .

ولو أهملت الأمّة القيام بالواجب . لأصبحت حركة نموّها سكوتاً ، ثم أضحت بقية حياتها وعزّها ذلّةً وهواناً . ثم باتت وهى طعمة لكلّ مستعمرٍ جبارٍ عنيدٍ .

(إنَّ في ذلكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) .
والخلاصة : أنه لو عرف كل إنسان الواجب عليه لأتقن الصانع صناعته ، وأحسن
الزراع زراعته ، وأتمر التاجر تجارته ، ودبر الأمير إمارته ؛ ولأجل هذا جاءت
الشريعة بقول النبي صلى الله عليه وسلم « كلُّكم راعٍ وكلُّ راعٍ مسئولٌ عن رعيته .
والرجلُ راعٍ في أهله ومُسئولٌ عن رعيته ، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ
عن رعيتها ، والخادمُ راعٍ في مال سيده ومسئولٌ عن رعيته ، والرجلُ راعٍ
في مال أبيه ، وهو مسئولٌ عن رعيته ، ألا كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن
رعيته » .

فهذا الحديث الشريف دِعامَةٌ كبيرةٌ في القيام بالواجبات والحقوق ، والإحسان
في الأعمال ، والرعاية لما تحت اليد ، وإنه ليقرّر مسئولية كل فردٍ فيما وُكِّلَ إليه
من نفوسٍ وأموالٍ ومصالحٍ وأعمال .
وفقنا الله جميعاً لمروة الواجب . وأداء الواجب ، لنعيش عيشة راضية ، ونفارق
هذه الحياة الفانية . ونحس على أسعد حال ، ونحس مآل .

العفاف وأقسامه

العفاف :

العفة أو العفاف أو الزاهدة لغةً : الكف والامتناع عما لا يحل ولا يحمل . والمتصف بها من الرجال يسمى عفيفاً ونزيباً ، ومن النساء عفيفة ونزيرة .

وفي العرف : العفة : ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية ، وقمع الأهواء المختلفة التي تثير الشهوات البدنية . وقصر النفس على الاكتفاء بما يُقيم أود الجسم ويحفظ صحته ، واجتناب الإصراف والتفتير ، ومراعاة الاعتدال في جميع الأحوال ، فهي وسط بين الإفراط (وهو الشره) ، والتفريط (وهو جود الشهوة) .

وهي أسمى الفضائل وأشرف صفة للإنسان ، إذ بها يمنع نفسه عن ارتكاب الأمور الخسيسة والأحوال الدنيئة ، التي تنقص قدره . وتحط من شرفه ، وتجعله عند الناس محقرًا ذليلاً مهانًا .

رأس العفة يتعلق بضبط القلب من الشهوات البدنية المتعلقة بالبطن والفرج ، ومن اعتقاد ما يكون سبباً جالباً للبغى والمعدوان ، وتماها يتعلق بحفظ الجوارح .
ففي حُرْمِ عفة القلب والعقل يكن منه التقي وسوء الظن اللذان هما أس كل رذيلة ، لأن من تقي ما في يد غيره حسده . فاذا حسده عاداه ، وإذا عاداه نازعه ، وإذا نازعه فرما قتله .

ومن أساء الظن عادى وبغى وتعدى . ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عنهما فقال (وَلَا تَسْتَوُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ) « سورة النساء » .
وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) « سورة الحجرات » .

فأمر فيهما بقلع إحدى شجرتين يتفرع منهما معظم الرذائل .

أقسام العفة

ولا يكون الإنسان تامّ العفة حتى يكون عفيف اليد . واللسان . والسمع . والبصر ، والفرج .

١ - فعفة اليد تكون بالامتناع عن أخذ أموال الناس بالباطل وسلبهم حقوقهم . وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدّكوا بها إلى المحكّم لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) سورة البقرة . وتكون أيضاً بالامتناع عن أخذ أموال اليتامى وأكلها ظلماً وعدواناً لقوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تكبدوا عليهم بالطيب . ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً ظلماً كبيراً) «سورة النساء» .

٢ - وعفة اللسان تكون بترك الكذب والغيبة والنميمة وفحش القول والسخرية والأزدراء والممز واللمز والتنابز بالألقاب .

٣ - وعفة السمع تكون بعدم الإصغاء لسماع القبايع والأقوان المنزوية . والمحافظة على الأسرار وكتبتها لقوله تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا إنما أعمالنا ولكم أعمالكم) سورة القصص .

وقال تعالى (قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفرجهم حافظون) «سورة المؤمنون» .

٤ - وعفة البصر تكون بنظر العفّ عن المحارم . وزينة الحياة الدنيا انزلة للشهوات الرديئة . قال تعالى (ولا تمدّن عيذك إلى ما متعت به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) «سورة طه» .

٥ - وعفة اللمس تكون بحفظ الفرج وصيانة العرض لقوله تعالى (قلّ للمؤمنين يفضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقلّ للمؤمنات يفضّضنّ من أبصارهنّ ويحفظنّ فروجهنّ) «سورة النور» .

وهذه العفة هي أهمّ الأنواع الخمسة ، وهي المقصودة بالذات من موضوعنا هذا .
وعمد عفة الجوارح ، ألا يكلفها صاحبها شيئاً مما يخصّ كل واحدٍ منها إلا فيما
يسوغه العقل والشرع دون الشهوة والهوى ، لقوله تعالى (وأما من خاف مقامَ رَبِّهِ
ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) « سورة النازعات » .

فمن أراد أن يكون عفيف النفس نزيهاً فلا يطلب من أحد شيئاً ، ولا يأخذ منه
بغير إرادته ، أو بدون وجه حقّ ؛ وإذا رأى عند أحد شيئاً أعجبه فلا يحدّق النظر
فيه حسداً . ولا يظهر رغبته في الحصول عليه طمعاً ؛ وإذا وجد شخصاً يأكل شيئاً
يشبهه فلا يقعد بجانبه ليدعوّه للأكل معه ، ولا يلتفت إليه ؛ وإذا وجد في طريقه
شيئاً (لقطة) فلا يأخذه . وإذا أخذه فليرده لصاحبه ، إن كان له به معرفة ، أو يذهب
لإيداعه في دار الحاكم للبحث عن صاحبه وتسليمه إليه .

وإذا سار في طريق فليغضّ بصره عن النظر إلى ما حرم الله ، لأنه تعالى يعلم
خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وقيل : من غَضَّ طَرَفَهُ تَمَّ طَرَفُهُ ، كما قال
الشاعر في هذا المعنى :

ليس الظَّريف بكاملٍ في ظَرفه حتى يكون عن الحرام عفيفاً
فاذا تغفّف عن محارم ربّه فهناك يُدعى في الأنام ظريفاً
إخواننا صونوا الحياة بَعْفَةً ليس اتقى بسوى الغفاف شريفاً

وإذا اجتمع بفتاة أو امرأة فلا يمنّحها في شرفها وعرضها ، وليستغفّف كما أمره الله
تعالى بقوله (وليستغفّر الذين لا يمجّدون نِكَاحاً حتى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَتْلِهِ)
« سورة النور » .

أى ليجتهدوا ويسع في طلب العفة وكسر الشهوة ، الذين لا يمجّدون ما يتزوّجون
به من المال حتى يرزقهم الله من فضله بالشئ الذي يقدرّون به على الزواج .

وهذا وعدٌ من الله تعالى للعاجزين عن الزواج بالتفَضُّل عليهم بالخير تقوية
لقلوبهم . وتسليّة خاطرهم في الصبر على العفة .

ولذا حرم الله الزنا . وقال في تحرّمه (ولا تقربوا الزنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
وصاءً مبيناً) « سورة الإسراء » .

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي الْعِفَّةِ

أَقْوَالُ الْأَدْبَاءِ وَالْأَطْبَاءِ :

العِفَّةُ والطهارة والنِّظَافَةُ بمعنى واحد . ومن العِفَّةِ اشتُقَّتْ لفظة عَفِيفٌ : أى طاهر ونَتَى ونَظِيفٌ ، وهى تُسْتَعْمَلُ فى جملة مواضع ، فيقال : الماء الطَّاهِرُ : أى النِّظِيفُ ، الخالى من الأتِّلار . والحُبُّ الطَّاهِرُ : أى الشَّرِيفُ الخالى من الشهوات والميول الفاسدة ، وهلمَّ جراً .

أما الرجل العَفِيفُ أو المرأة العَفِيفَةُ : فهو الشَّخْصُ البعيد عن الأفكار السَّاقِطَةِ والميول الخبيثة الحسيسة ، المائل بطبيعته للعِفَّةِ والصِّلَاحِ .

ويُرَادُ بالعِفَّةِ كبح جماح الشهوات ، وإخلاء الفكر والأخلاق والتَّصَوُّراتِ و شوائب الحسَّة والدُّنَاة ، وهو العلاج الأدبى الوحيد الذى يمكننا أن نقاوم به ميولنا الحسيسة ، وشهواتنا البهيمية الدُّنِيَّةَ .

(النهضة النسائية — السنة الثالثة) .

العِفَافُ تاج عِبد الإنسانية المتألِّق شرقاً وفخاراً ، وروح الكمال الذى تفصل به الإله الكريم على الإنسان خاصَّة ، فرفع به شأنه وقدره فوق رموس الخلائق جميعاً .

العِفَافُ : هو قوام الفضيلة ، وعماد الإباء والشَّمَم ، ودِعامَةُ الهداية والإرشاد ، وأُسوة طيِّبة للأبناء والأحفاد ، وشهادة حقِّ على نقاء القلب وطهارة النَّفْس ، وقُدَّامة الرُّوح (عليَّة الشُّراقوى بمجلة النهضة) .

وقال سولون : العِفَّةُ زينة نفوسنا ، وزخرف أبداننا ، ورائد ميولنا .

وقال لونيئس : العِفَّةُ كنز الطَّاهرين ، وهى توجد إما فى العزوبة التامة ، أو فى الزَّوَاجِ الصَّحيحِ .

وقال إديلبوس : يجب احترام المرأة العَفِيفَةِ ، واحترام المرأة العاهرة .

وقال خبيكس : العِفَّةُ زينة النَّفْس : وزخرف الحياة التى تحترق الشهوات ، وهى لا توجد إلا عند من يحفظون أجسامهم داخل سياج العِفَّة والطَّهارة .

وقال هلورك : لا يجعل الرجلُ محترماً في نظر المرأة غيرُ رصانه . وعفة نفسه ، وشجاعته . وقوة روحه .

وقال جوبير : عفة النفس تجعل للإنسان سلطاناً على حواسه .

وقال جون ملتون : السماء تحبُّ الأطهار ، فعليك يا أختي بالعفة .

وقال أيضاً : المرأة العفيفة متلذذة بلذع من حديد .

هذه هي بعض آراء الاجتماعيين في العفة . ومنها يستدلُّ على أنه يجب على الإنسان أن يعيش عفيفاً ليكون سعيداً هنيئ البال ، بعيداً عن القيل والقال ، وعن كلِّ ما يشوش الفكر . ويؤلم الجسم ، ويشتت الضمير .

أما الدعاة . فهي عكس العفة على خطِّ مستقيم . وهي سبب انحطاط الجسم البشري وعدم ارتفاعه .

(عن مجلة النهضة النسائية السنة الثالثة) .

قال أحد الأطباء : إن العفة صيانة دينية وعقلية ، يجب أن تسعى في حفظها للشباب . وإنما لانصرَّ الجسم ولا النفس . وإنَّ وازعها أقوى ، وحكما أنفذ ، ويستطيع أي رجل أن يصبر عليها إذا أراد احترام نفسه ؛ وكثيراً ما استشارني من أصيبوا بالمرض العصبي والسوداء بإتيان الفاحشة ، ظانين أنها دواؤهم ، ولكن لم يسمعني أحداً أن حالته تحسنت أو صحتته اعتدلت بعد هذا الفعل الرديء ولم أوافق على رأيه .

وقال آخر : يجب على الشاب أن يصون عفافه قبل الزواج وبعده أيضاً ، حفظاً لصحته وشرفه .

وقال آخر : من الحتم على الفتى والفتاة أن يحفظا بعفهما حتى الزواج . وقد يسهل ذلك أو يصعب لإدراكهما هذه الحقيقة وهي : أن الراحة والسعادة في الزواج متوقفتان على تلك المدة المحفوظة بالمخاطر ، وهي زمن الصبا ، ويجب أن يعلما أنهما سينجزان عن عفتها بصحة وافرة . وقوة كبيرة . وأن العفة والطهارة مطابقتان للقوانين الصحية والأدبية .

أقوال الشعراء :

قد شاعر عربي في ولاده بمنَّ عليهم بحسن اختياره زوجته ، ويمتدح عفتها :

فأولُ إحسانِي إليكم تحسُّري لما جلدَ الأعراق بادٍ عفاها
وقال الهادي على لسان قتاة قصَّره بعفاها :

بروحِي في الدنيا أصونُ عفاي فما كنزه للقاطنين بخافي
إذا أظلمت مصر نثرث بأنفها ثمجوم الحجا أو باسمين عفاي
علوتُ الثريا فهي دوني رتبةً ولسكت حبّ التّضليلات شخافي
وقالت ليلي الأخيلية . وهو أفضل ما قيل في العفة :

وذو حاجة قلنا له لا تبُحْ بها فليس إليها ما حيت سبيل
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه وأنت لأُخرى صاحبٌ وغليل
وقالت السيدة عائشة التيمورية رحما الله تعالى :

بيد العفاف أصون عزّ حجابي وبغشّي أسمى على أترابي
وقال أحد الشعراء المقدّمين :
أحبُّ الذي ينني الفواحش ممعةً كأنّ به عن كلّ فاحشة وقرّا
سلم دواعي الصبر لا باسلاً يدي ولا مانعاً خيراً ولا قاتلاً هجراً
وقال آخر :

أصون عرضي بما لا أدنّسه لأبارك الله بعد العرض في المال

عفاف الرجل

والعفاف من أمهات الفضائل التي حثّ عليها الشرع الشريف ، سواء في الرجال
أو النساء .

أما عفاف الرجل . فيكون بصيانة النّفس من ارتكاب الفواحش والآثام .
والسّعي إلى الزواج .

فاذا ترك الرجال التّوامن على النّساء هذه التّفضيلة . وتجنّبوا . ووات النّفس
الخبيثة ، وعدم صباها . وارتكبوا ما حرّم الله . واستحكّم هذا الدّاء في المجتمع
الإنساني جرّ ذلك ولا ريب إلى فساد النّساء . وساوكن هذا المصيّب المزعزّز
القيبيح ، طارحات العفاف ظهرياً . وبرقع الحياء جانباً .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، عفوا تعفّ نساكم .
وقال الشاعر العربي في هذا المعنى :

عَفُوا تَعَفَّ نَسَاؤُكُمْ فِي الْحَرَمِ وَتَجَنَّبُوا مَا لَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ
يَا هَاتِكَا حَرِّمَ الرِّجَالِ وَقَاطِعًا لَوْ كُنْتَ حَرًّا مِنْ سَلَالَةِ مَا جَدَّ
وَقَالَ آخَرُ :

وَلَا تَكْ مِثْلًا لِعَرَضِكَ وَاجْتَنِبْ رُكُوبَ الْمَعَاصِي يَجْتَنِبُكَ عِقَابُهَا
وَقَالَ مُحَمَّدُ الْوَرَّاقُ :

رَأَيْتُ صَلَاحَ الْمَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيُلْحَقُهُمْ دَاءُ الْفَسَادِ إِذَا فَسَدَ
وَيَشْرَفُ فِي الدُّنْيَا بِفَضْلِ صَلَاحِهِ وَيُحْفَظُ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ
وَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الزَّوْجِ حِفْظًا لِلدِّينِ وَالصَّحَّةِ فَقَالَ :

« مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ حَفِظَ نِصْفَ دِينِهِ ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي النِّصْفِ الْآخَرِ »
وَقَالَ أَيْضًا « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ ، مِنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْنَى
لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنَ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » . أَيْ مِنْ وَجَدَ
مَا يَقْدِرُ بِهِ عَلَى تَحْصِيلِ الْمُسْتَمْتَعِ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَحْصَنَ لِدِينِهِ ، وَهَنْ عَجَزَ عَنْ وَجْدَانِهِ
وَوَسَائِلِهِ ، فَلْيَقْطَعْ عَنْهُ شَوَاغِلَ الشَّهْوَةِ الَّتِي لَا يُثْبِرُهَا إِلَّا كَثْرَةُ الْغِلَاءِ وَالِامْتِلَاءِ ، وَهَذَا
تَأْيِيدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) .
وَالْإِنْسَانُ لَا يَكُونُ حَفِيفًا إِلَّا بِشَرَاظَةٍ ، وَهِيَ :

أَنْ يَكُونَ تَعَفُّفُهُ مِنَ الشَّيْءِ انْتِظَارًا لِأَكْثَرِ مِنْهُ ، أَوْ لِأَنَّهُ لَا يُوَاقِفُهُ ، أَوْ لِحُمُودِ شَهْوَتِهِ ،
أَوْ لِلْإِشْعَارِ بِالْخَوْفِ مِنْ عَاقِبَتِهِ ، أَوْ لِأَنَّهُ مَمْنُوعٌ مِنْ تَنَاوُلِهِ ، أَوْ لِأَنَّهُ غَارِفٌ لِقُصُورِهِ .
فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يُعَدُّ عِفَّةً ، بَلْ هُوَ اصْطِبَارٌ أَوْ تَطْيِيبٌ ، أَوْ مَرَضٌ ، أَوْ عَجْزٌ ،
أَوْ جَهْلٌ .

وَتَرَكَ ضَبْطَ النَّفْسِ عَنِ الشَّهْوَةِ أَزْمَ مِنْ تَرْكِهَا عِنْدَ الْغَضَبِ ؛ وَلِذَا قِيلَ « عَبْدٌ
الشَّهْوَةِ أَذْلُ مِنْ عَبْدِ الرَّقَى » .

وَالْعِفَّةُ لَا تَكُونُ مَقْصُورَةً عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فَحَسْبُ ، بَلْ تَكُونُ فِي الْفُقَرَاءِ أَيْضًا ، لِأَنَّ
النَّفْسَ غَنَى النَّفْسِ لَا غَنَى الْمَالِ .

وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ الْفُقَرَاءَ الَّذِينَ يَتَعَفَّفُونَ عَنِ السُّؤَالِ ، وَيَرْفَعُونَ عَنْهُ ، حَتَّى إِنْ الْجَاهِلُ
يَحْسِبُهُمْ أَغْنِيَاءَ ، وَوَصَفَهُمْ يَقُولُهُ سَبْحَاتُهُ : (يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ
تَعْرِفُهُمْ بِسِيَاهِهِمْ لَا بِسَائِلُونِ النَّاسِ إِلَّا خِفَافًا) « سُورَةُ الْبَقَرَةِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : ليسَ المسكينُ الَّذي تَرُدُّهُ التمرة والتمرتان ، ولا
الْبُقْمَةُ ، ولا اللقمتان ، إنما المسكينُ الَّذي يَتَخَفُ ، واقربوا إن شئتم - . يعني قوله
(لا يسألون الناس إلحافاً) .

عفاف المرأة

عفاف المرأة تاجها .

هذه الفقرة سيأتى ذكرها فى المحاضرات الخاصة بالإناث .

أمثلة من عفاف الرجل

١ - تعفُّ الحسن بن علي :

خرج معاوية حاججاً ، فرَّ بالمدينة ، ففرَّق على أهلها أموالاً جزيلة ، ولم يحضر
الحسن بن علي ؛ فلما حضر قال له معاوية : مرحباً برجل تركنا حتى نفد ما عندنا .
وترفض لنا ليبيخلنا .

فقال الحسن : كيف يتنفد ما عندك وتخرج الدنيا يبيعى إليك ؟ .

فقال معاوية : قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند .

فقال الحسن : قد رددته عليك وأنا ابن قاطمة الزهراء .

٢ - تعفُّ عمر بن عبد العزيز :

١ - مثال أول :

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز أعف وأعدل بنى مروانَ وهو ابن مروان بن
الحكم . وُلِدَ سنة ٦٠ ستين من الهجرة ، حين كان أبوه والياً على مصر . وكان له بعده
الفاروق أسوة حسنة ، ما أخذ لنفسه ولا لأولاده من بيت المال شيئاً .

ومما يؤثر عنه أنه استفتح ولايته ببيع ما كان يملكه سلبان من ملايس وغيرهما حتى
اجتمع لديه من ذلك مبلغ عظيم وضعه فى بيت المال . كما أنه باع ثوب قريته بنت
عبد الملك ووضعه فى بيت المال ، علماً أنه أن ما أنفق عليه هو من بيت مال المسلمين .
وكان إذا قدم عليه وفود الشعراء لم يأذن لهم . وكان يقول لآيته : (قل لى تخاف
إن عصيتُ ربى عذاب يومٍ عظيم) .

ومات عن اثني عشر غلاماً لم يترك لهم شيئاً لعفته وأمانته .
ولما حضرته الوفاة - جمعهم وجعل يصوب نظره إليهم ويصعده حتى اغرورت
عيناه بالدموع - ثم قال :

« بنسي فية تركتهم ولا مال لهم - يا بني إني خسرت نفسي بين أن تفتقروا
إلى آخر الأبد - وبين أن يدخل أبوك النار ، فاخترت الأول . يا بني : عصمكم
الله ورزقكم . وقد وكلت أمركم إلى الله الذي أنزل على عبده الكتاب ، وهو
يتولى الصالحين » .

وكان عنده وقتئذ مسلمة بن عبد الملك ، فوجه أربعين ألفاً لفرقها على أولاده
وقال له : عن طيب نفس فعلت . فقال رضى الله عنه : أوصيك أن تفرقها على من
أخذت منهم ظملاً .

ثم توفي رحمه الله سنة ١٠١ هجرية ، ومكث في الخلافة سنتين وخمسة أشهر كان
فيها متحريراً سيرة الخلفاء الراشدين .

ب - مثال ثان من عفة عمر بن عبد العزيز :

من شدة عفته يقال إنه كان ينظر ليلاً في قصص الرعية في ضوء السراج ،
فجاء غلام فحدثه في أمر يتعلق ببيته ، فقال له عمر : أظني السراج ثم حدثني ، لأن
هذا الدمن من بيت ما للمسلمين . ولا يجوز استعماله إلا في اشتغال المسلمين .

ج - مثال ثالث :

أعدى رجل إلى عمر بن عبد العزيز تفاحاً لبنانياً كان قد اشتبه ، فردّه لصاحبه ،
فقال له : قد بلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل الهدية ، فقال إن
الهدية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية حلالاً ، ولنا رشوة أكلها حرام
في حرام .

وكان من دعوته : اللهم أعطني من الدنيا ما يكفيني عن شهواتها ، ويعصمني من
فتنها - وتفتني به عن جميع أهلها .

كما كان يقول أحد لصاحبه : اللهم اكفني شرّ هذه الدنيا وشرّ بلاها ، ولا
تجعلها أكبر همّ لنا .

د - مثال رابع :

فل حبيب بن حرّ عن رجل عن فاطمة بنت عبد الملك قالت : اشتى عمر بن

عبد العزيز يوماً مسلماً ، فلم يكن عندنا . فوجَّهنا رجلاً على دابة من البريد إلى (بعلبك) فأتى بعلبك ، فقلنا يوماً : إنك ذكرت مسلماً وعندنا صلِّ فهل لك فيه ؟ قال نعم ؛ فأتيانا به ، فقرب إليه ثم قال : من أين لكم هذا الصلِّ ؟ قال : قالت : وجَّهنا رجلاً على دابة من دواب البريد بدنانيرين إلى بعلبك فاشتري لنا بهما مسلماً . قال : فأرسل إلى الرجل فجاءه فقال : انطلق بهذا الصلِّ إلى السوق فبعه ، فأردد إلينا رأس مالنا . وانظر إلى الفضل واجعله في بيت مال المسلمين خلف دواب البريد .

٣ - مثال العفة والزهادة ؛

أصيب شخصٌ بمرضٍ شديد ، فأشار عليه الأطباء بالتوجه إلى إحدى مدن الوجه القبلي لتغيير الهواء وطلياً للصحة . فقصّد أحد أصدقائه الأطباء الأتماء ونزل عنده ضيفاً فأكرم مثواه وقام له بواجب الصداقة ، ولكن مع الأسف أدركته الوفاة وهو في داره . وكان معه خرج به بعض ملابسه الضرورية ، وكيس نقود يحتوي على أربعة آلاف جنيه ذهباً مجموع ثروته التي جمعها في حياته ، فأبّت نفس هذا الصديق العفيف أن يأخذ شيئاً من ماله . بل أخذ الخرج وما فيه من الأمتعة والنقود وذهب به إلى المديرية التابعة لها المدينة . وقدّمها إليها وأثبتها في دائرتها حتى يحضر ورثته لاستلامها ، ثم عاد إلى صاحبه فشيّع جنازته . ودفنه بمقبرته . وأخطر أسرته . وبذلك قام بواجب العفة والوفاء . واستحق من الناس الثناء . وجميل الذكر المستطاب ومن الله جزيل الأجر والثواب .

لا تأكلوا أموال الناس بالباطل

يحكى أن إبراهيم بن آدم مرّ يوماً ببساتين (بخارى) فنزل في بعض أنهارها . وإذا بتفاحة يحملها الماء . فقال : هذه لاقية ذافاً كلها . ثم وقع له في خاطره من ذلك وسواس . فزم أن يستحل صاحب البستان . فلما قرع بابها خرجت إليه جارية فقال : ادعى لي صاحب البستان . فقالت : إنها امرأة . فقال : استأذنني عليها . فجاءت فأخبرها بغير التفاحة ، فقالت له : إن هذا البستان نصفه لي ونصفه لاهلطان . وقد نزلت عن حقّي ، وكان السلطان حموذ (بياخ) فذهب إليّ راعترضه في وكبده

وأخبره الخبر واستحلّه ، فاندخل السلطان من أمره وتعجب من رقة ضميره وأمانته ووصله بصلة .

العفاف قرين العدل والانصاف

حكى أن رجلاً اشترى داراً من رجل آخر ، فوجد المشتري فيه كنزاً ، فأبى نفسه العقيقة أن يأخذه ، ومضى إلى البائع وأخبره به ، فقال له البائع : إنما بعثتك داراً لأعرف فيها كنزاً فهو لك ؛ فقال المشتري : لا بد أن تأخذه فانه ليس داخلًا فيها اشتريت ، فقال الجدل بينهما فتحاكما إلى الملك كسرى ؛ فلما وقفا بين يديه ، وذكر له أمر الكنز أطرق الملك ملياً . ثم قال لهما : هل معكما أولاد ؟ فقال البائع : إن لي ولداً بالغاً ؛ وقال المشتري : إن لي بنتاً بالغة ؛ فقال كسرى لهما : امرتكما أن تزوجا الولد بالبنت ليكون بينهما صلة وقربة ، وأنفقا ذلك الكنز في مصالحهما ، فعلا ذلك امتثالاً لأمر الملك العادل . وكان هذا العفاف منهما موجباً للعدل والإنصاف .

الرجل النزيه والعلام الصادق

روى أن تاجراً أرسل ولده لأحد عماله ومعه صرة من النقود ، فسقطت منه أثناء سيره . فصار الولد يبحث عنها وهو يبكي ، فرآه رجل كان قد وجد الصرة بطريق الصدقة ، فسأله عن سبب بكائه ، فقص عليه القلام أمره ، فأخرج الرجل له صرة كبيرة كانت معه ، وقال له : أهذه صرتك ؟ فقال الولد : لا ، ثم أخرج له أخرى أصغر من الأولى ، وهي الصرة التي وجدها في طريقه ، وقال له : أهذه صرة نقودك ؟ قال : نعم . فقدّمها إليه وقال له : اذهب فهي حلال لك ؛ وأثنى على صدقه كما أن العلام أنى على الرجل لنزاهته وعفته نفسه .

نزاهة قوسيون

هذا القائد الطائر الصيت في أثينا كان دائماً من دُعاة السلم مع (مقلونيا) فأرسل إليه الإسكندر ملك مقدونيا برحائلاً عن اثنتان هدية ثمينة ، فسأل قوسيون الذين حلّوها إليه عن غاية الإسكندر من تقديم هذه الهدية السنية إليه ؟ فأجابوه : لأنك أشرف رجل عرفه الإسكندر في أثينا لأن ، فقال : إن كان الإسكندر يعتبرني بهذه الصفة ، فليأذن لي

أن أبقى ثابتاً عليها ؛ وأبى قبول الهدية . وحينما فعل ذلك الفعل الشريف ، كان هو بنفسه يستقي الماء من بئر ، وامرأته تحبب الخبز .

وعزم فيا بعد على رفض هدايا الإسكندر والملوك خلفائه تحفقا منه . ولما قيل له : إذا كنت لا تقبل المال لنفسك ، فعليك أن تقبله لأولادك . أجاب : إن كان أولادى عقلاء فيكتفون بما يكتفى ، ويعيشون شرفاء . وإلا فكثير عليهم ما عندي .

زاهة هنرى دى مسم

لما عرض هنرى الثانى ملك فرنسا منصب المدعى العمومى على رجل الفضل (هنرى دى مسم) أحد مشاهير المتشرعين فى عصره ، نبه هذا الرجل إلى أن هذا المنصب لم يكن خالياً بل يشغله رجل غيره ؛ فأجاب الملك : إن المحلّ خال لأنى قصدت أن أخلع عنه من يشغله ، فقال هذا المشرع : عفواً يا مولاي . أحبُّ إلى أن أحضر الأرض بأظافرى من أن أدخل إلى هذا المنصب بمثل هذا السبيل . قال ذلك (هنرى دى مسم) بعد أن امتدح بلطف العامل الشاغل لهذا المحلّ الواقع تحت خطر العزل والانفصال . فاعتبر الملك بهذه الملاحظة ، واستبق المدعى العمومى فى منصبه .

فهذا العامل يادر إلى (هنرى دى مسم) يقدم له شكراته . ولكن هذا الرجل النزيه الكريم أجابه : كيف أشكر على عمل أعدّ القيام به فرضاً واجباً . والإخلال به عاراً فاضحاً .

فانظر إلى عفة نفس هذا الرجل وكرم أخلاقه .

عزة النفس أو الكرامة

عزة النفس : هى إكرام المرء نفسه واحترامها ووضعها فى المقام اللائق بها ، وهى من أهم الفروض التى يجب عليه أداؤها ، لأنه كما يحب المرء نفسه ويحافظ عليها ويتقى الحر والبرد لأجلها ويسعى ويحذر ليضمن رفايتها ونعيمها ، ويخرج إلى المنزهات والخلوات لرياضتها وزهتها ، ويذهب إلى محال الأتس والطرب لسرورها واستراحتها ، فإنه يجب عليه أن يعزها ويكرمها ويحترمها ويعطيها حقها من الإكرام والاعتبار . على أنها قوة كسائر القوى . تساعد المرء على نيل أمانه ، والتصرف فى أموره ، وأن لها فضلا بالألباب ، وسلطاناً على النفوس لاتضاهيها فيها قوة أخرى .

ومن الخطأ أن يحسب المرء العامل فى أقدار الناس أنما هى الأموال التى جمعوها ، أو العلوم التى حصلوها ، أو المناصب التى نالوها . وإن كانت هذه الأمور من وسائل الاحترام فى الجملة .

وليس الغرض من عزة النفس وإكرامها الترفع عن الناس والتعاضم عليهم أو الغرسة وشموخ الأنف . بل الاعتماد عن كل ما يشينها مع إعطائها قسطها من الاحترام والإكرام .

وكما أن الإنسان يسر خاطره ، وينشرح فؤاده . عند ما يرى الناس يحترمونه ويأثرونه . ويعتبر هذا من الواجبات المفروضة عليهم ، فإنه خليق به وأحرى أن يكون فى مقدمة الذين يحترمونه ويأثرونه فيحترم هو أيضاً نفسه .

والمنقصد من احترام النفس أن الإنسان لا يندلل ولا يهين ، ولا يحط بقدر نفسه ، ولا يزرى بشرفه ومقامه . وكل رجل لا يشعر بكرامة نفسه ، ولا يذود عنها خليق بالاحتقار والازدراء .

وغنى النفس أو شرف النفس صفة كمال ، بها تفاوت أقدار الرجال . بها ترفع النفس عن مدانة الدنيا . بها تستطیع دون الدلل ككوس المنايا ، بها أبانت الشريعة المرء فضل الأحرار على الأرقاء . بها جُعلت الرجال قومين على النساء ، بها حظرت على الشرىفات الاقتران بغير الأكفاء .

ولا يكون شرف النفس بلبس رداء الكبرياء . ولا يجر أقدام الخليلاء . ولا يرفع الأنف في السماء ؛ بل يكون بنفس مكتوبٍ عن يمينها : عش عزيزاً أو مت كريماً ، وعن يسارها : إن لم تكن غيوراً فكن في التراب مقبوراً .

ليست عزة النفس بسوء الأدب مع الرئيس . ولا بمدّ الرجل بين يدي الخليل . ولا بإطلاق لسان الوقاحة والبداهة . ولا بظومة أهل الجراءة ؛ بل تكون في نفسك على الهمة ، كالنجم ارتقاء ، وفي استقامتك طاهر العرض كالماء نقاء .

فلا تسلك أيها العاقل سبيل التملق والتفاق والخضوع الزائد مثلاً نفسك . زاعماً أن هذا هو التواضع والرفقة ، ولا ترتكب خطية الخليلاء والكبرياء والمباهاة قاتلاً : إن هذا هو الاحترام والرفعة بل اتبع خطّة الاعتدال .

فلا تملق تملق الثعالب فيحترقك الناس ويزلقوك بأبصارهم . ولا تتكبر تكبر السباع فلا يحضروا بك . بل يضربوا عنك صفحاً .

وانظر في جميع أقوالك وأحوالك . ولا تأت أماً خارجاً عن حدّ الذنب والاعتدال . فإن الناس يعدّونه عليك ويؤاخذونك به . فإن لم تكن فيك نفس ترفلك عن الأمور الحقيرة . وتدفع بك إلى طلب منزلتك التي لك . فليست على شيء من عزة النفس ولا تجد إذن من يكرمك . بل تكون أهون عليهم منك على نفسك كما قال الشاعر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حشماً هواناً بها كانت على الناس أهون
واعلم أن عزة النفس هي أن تنشأ عافاً عن هذه الأوصاف الدنيئة . وتحصن ماء وجهك ، وتحصن نفسك وعرضك ودينك . فتعتصم بكرماً معضماً أهلاً لأن يكرموك ويحضروا بك . فإن من أعزّ نفسه أعزّه الناس . ومن أهانها كانت على الناس أهون .

من يهين يسهل الهوان عليه ما لحيمٍ بميتٍ إبلاء
وإن معيشة تصحب بالملذّة والهوان فهي الحياة الخبيثة . وإن معيشة تقترن بأعزة والكرامة هي الحياة الطيبة السعيدة .

من الملذّة أن تجيب كل من دعاك . وتدعو من لا ينييك . بتواضع من ينكر عليك ، وتتعرّف بمن ينكر لك .

أتبمع ماء حياءك بماء حياتك . وتستبدل بالعز والكرامة للذلّة والهوان ، وترضى من رزقك بالمنة والامتنان . وأنت تعلم قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) وأن لا فاعل ولا مؤثر في الحقيقة إلا الله تعالى ، وأن المخلوقات ليست إلا مظاهر لقدرته وإرادته .

ذكر ما قيل في عزة النفس

- ١ - قال الله تعالى (من كان يريد العزة فله العزة جميعاً) « سورة فاطر » .
- ٢ - وقال الله تعالى (وفيه العزة والرسله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) « سورة المنافقون » .
- ٣ - قال صلى الله عليه وسلم « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » عن أبي هريرة .
- ٤ - وقال الإمام عليّ في نصيحة لابنه الحسن : يا بُنَيَّ أكرم نفسك عن كل دنيئة وإن سافقتك إلى الرغائب ، فانك لن تعاض بما تبذل من نفسك عوضاً ، ولا تكن عبداً غيرك وقد جعلك الله حراً .
- ٥ - وقال عمرو بن العاص : المرء حيث يجعل نفسه ، إن رفعها ارتفعت ، وإن وضعها انضعت ، فكما أن وضع المرء لنفسه دون رتبها حطّة من قدره ، كذلك وضعه لها فوق رتبها يثير عليه أحقاداً تغلي في الصدور غلّي الماء في المراحل . ويجلب له المقت ويجعله عرضة للوم والنقد .
- ٦ - وقال الإمام الغزالي : ثمانية تجلب الذل لأصحابها :
 - ١ - جلوس المرء على مائدة لم يدع إليها .
 - ٢ - التآمر على صاحب البيت .
 - ٣ - الطمع في الإحسان من الأعداء .
 - ٤ - مضى المرء إلى حديث اثنين لم يدخلاه بينهما .
 - ٥ - احتقار السلطان .
 - ٦ - جلوس المرء فوق مرتبته .
 - ٧ - التكلم عند من لا يستمع الكلام .
 - ٨ - مصادقة من ليس بأهل .

وقال المحروم الأستاذ عبد الرحمن زغلول في كتابه « الأخلاق » :
من أسباب عزة النفس شعور الإنسان في نفسه بالفضيلة وإقدامه ، فانه كلما شعر
الشخص في نفسه بالفضائل ، ولم يجد له إقداماً ، عزت عليه نفسه ، وأقام لها شعائر
الاحترام ، وإن النفوس البشرية تهون على ناقصي الإقدام والذين يطوِّحون في النقائص .
تهون على المرء نفسه متى استولى عليه الشعور بالنقصية . حتى إنه ليحسب راحته
في الحرب منها .

ألم تتركب ينتحر بعض الناس إثر إقرارهم بالنقصية ؟
فلا شيء أذهب براحة النفس وأحطاً لها وأعملُ في صغارها من النقائص .
أف من النقائص ، ما أشقى الأحرار بها ! والجواد قد يكبو ، وما أقدرها على
التطويح بهم في نارٍ حامية .
إن بعض الناس لسقوطهم في النقيصة تغيرت عوائدهم وآدابهم وأخلاقهم حتى
صاروا خلقاً جديداً .

اعوجَّ طريقهم وقد كان من قبل سوياً ، وسفلت أخلاقهم وقد كانت عالية .
وانحطت آدابهم وقد كانت راقية . ورضوا بأن يُساموا الحسَف من جميع الناس بعد
أن كانوا من أباة الضيم ، وبدا للتأخرين إليهم خططهم في كل شيء بعد أن كانوا
متسمين بالكياسة وأصالة الرأي .

ذلك لأنهم سقطوا في النقيصة على مشهدٍ من الناس . فهانت عليهم أنفسهم
ونابهم انكسارٌ أضعف إقدامهم الذي كان يأخذ بأيديهم ويتقدم بهم حيث مستقر
النفوس العزيزة .

فلتحذر النقيصة والرزائل لأنها تذهب بعزة أنفسنا ، وتبيد سعادتنا . وتنحرف بنا
عن الطريق السوي ، طريق الدين والحكمة وعزة النفس . لنحرص على الأخلاق
الفاضلة ، فإنها الأساس المتين لسعادتنا وعزة أنفسنا .

وقال بعضهم : احتمال الفقر أحسن من احتمال الذل .
وقال أحد الأدباء : أُنِي النفس يشتري بالمعروف عِرْضه من الأذى ، فلو كانت
الدنيا له فأنفقها صيانة لنفسه لاستقلها .

وقال حاتم :

ونفسك أكرمها فانك إن تهنَّ عليك فلن تلقى لها الدهرَ مُكرِّما

وقال آخر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها
ففسدك أكرمها وإن ضاق مسكن
وليك والسكنى ينزل ذلة
وقال القاضي أبو الحسن الجرجاني :

وقالوا توصل بالخصوع إلى الغنى
ويبقى وبين المال شيطان حرما
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه
وقال عنزة العيسى :

لانسقني ماء الحياة بذلة
ماء الحياة بذلة كجهم
وقال بعض الشعراء المتعلمين :

تكلفني إذلال نفسي لعرزا
تقول سليل المعروف يحيى بن أكرم
وهان عليها أن أهان لتكروما
قللت عليه رب يحيى بن أكرم

« ليس الغنى عن كثرة العرّض ، ولكن الغنى غنى النفس » حديث شريف :
العرّض : ما ينتفع به من متاع الدنيا . ومعنى الحديث : ليس حقيقة الغنى كثرة
المال . لأن كثيرا ممن وسع الله عليهم في الثروة ، مجردون من القناعة النفسية شراة
وحرصا . فمن كانت هذه صفته من الأغنياء فهو فقير لشدة حرصه وعظم شراة
وطمعه .

أما الغنى الحقيقي فهو غنى النفس ، وإن أحرزت البلدان الأموال .
وقال القرطبي كما نقله المقرئ : معنى الحديث : أن الغنى الشاف ، أو العظيم ،
أو المملوح هو غنى النفس .

وبيانه : أنه إذا استغنت نفسك كفت عن المطامع ، فزرت وعظمت ، وحصل
ها من الخطوة والزاهة والتشرف والملح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس
حرصه . فانه يورطه في رذائل الأمور ، فيكثر من يذمه من الناس ويصغر قدره
عندهم . فيكون أصغر من كل صغير . وأذل من كل ذليل حقير .

١ - كريم النفس خير من كريم المال

سُئِلَ حاتم الطائي عن أي إنسان أعظم منه كرماً ، وأفضل نفساً ، وأحسن شيئاً . فقال : ذبحت يوماً أربعين حِلابة للأضياف ، ثم سرت في اليبداء أريد أمراً . فقلت أجرة فيها رجلٌ محتطب ، فقلت له : أما سمعت بكرم حاتم طيٍّ وسماحته ؟ قال : بلى ، قلت : هلا استضافك ؟ قال : ثكلتني أبي لو أنه استضافني وقبِلت ضيافته . ودعاني فأجبت دعوته ، فأنني مادمت أستطيع الكسب بمرق جيني وتعَب يميني ، فمن العار أن يكون لكريم يدٌ أغضِي لها حين يغضب .

ولا خير في مالٍ عليه أليّةٌ ولا في يمينٍ عوقدت بالمآثم
فقلت للمحتطب : أنا حاتم طيٍّ . وأنت وربّ الكعبة أعلى مني كعباً في الكرم .
وأقرب إلى المروءة . وأسبق إلى عمارن الشم .

٢ - كريم النفس يعونها عن ذلّ السُّؤال

كان أحد الكنّاسين . وهو يكنس في الأسواق يكتشد هذا البيت :
وأكرم نفسي إنني إن أهنتها وحقق لم تكرم على أحدٍ بعدي
فسمعه رجلٌ وفهم معناه وقال له : وعن أي شيء أكرمت نفسك وهذه المكينة
بيدك ؟ فأجابه في الحال : إنني أكرمتها عن ذلّ السُّؤال . وعن الوقوف على باب
بخيلٍ مثلك بحمل هذه المكينة .

٣ - عزيز النفس لا يطيق الهوان

كان سليمان بن وانوس رجلاً جليلاً أديباً . وكان وزيراً عند الأمير عبد الله صاحب
الأندلس من بني أمية . فلخل عليه يوماً وكان عظيم اللّحية . فلما رآه الأمير مقبلاً
جعل يهجوهُ بأبياتٍ تدلّ على الاحتقار والازدراء . فقال له سليمان وقد غضب : أيها
الأمير . إن الناس يرغبون في هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم . وأما إذا صارت
حالته للذلّ ، فلنا دورٌ تسعنا وتغنينا عنكم . فان حاتم بيننا وبينها فلنا قبورٌ تسعنا ولا
تقدرون على أن تحولوا بيننا وبينها . ثم خرج من غير أن يسلم ونهض . فغضب الأمير
وأمر بخله عن الوزارة ورفع دمه (مجلسه) الذي كان يجلس عليه وبقي كذلك مدة .
ثم إن الأمير حزن على فقدِه لصفاه وأمانته ونصحه وفضل رأيه . فقال لوزراء :

لقد حزنْتُ لفقد سليمان ، وإن أردت استرجاعه وتبرأ منّا كان ذلك غضاضةً علينا ، فوددت أن يبدأنا بالرغبة ؛ فقال له الوزير أبو محمد بن الوليد : إن أذنت لي بالمسير إليه أستنهضه إلى هنا ، فأذن له ؛ فنهض إلى دار سليمان واستأذن عليه ، وكانت رتبة الوزارة بالأندلس أيام بني أمية ألا يقوم الوزير إلا لوزير مثله ، فانه كان يتلقاه ويذل معه على مرتبته ولا يحجبه نخطته .

فأبطأ في الإذن على أبي محمد حينئذ ثم أذن له ، فدخل عليه فوجده قاعدا ، فلم يتزحزح له ولا قام إليه ؛ فقال له أبو محمد : ما هذا الكبر ؟ عهدى بك وأنت وزير السلطان وفي أبهة رضاه تتلقاني على قلمي ، وتزحزح لي عن صدر مجلسك ، وأنت الآن في موجده (غضبه) بضد ذلك ؛ فقال له : نعم لأنني كنت حينئذ عبداً ذليلاً مثلك ، أما الآن فأنا حرّ عزيز النفس .

فيئس أبو محمد منه ، وخرج ولم يكلمه . ورجع إلى الأمير فأخبره ، فابتدأ الأمير بالإرسال إليه . وردّه إلى أفضل مما كان عليه لشرفه وعزّة نفسه .

٤ - كيف تُذكرُ النفوس الأبيّة

لما بلغ (قورس) ملك الفرس أن أهل (ليدية) خرجوا عن طاعته استشاط غضباً وقال لقارون : إني لأجعلهم عبيداً أرقاءَ كلّهم ، فاستعطفه قارون وسأله الصّبح عنهم ، ثم قال : مرهم بأن يعتزلوا السّلاح ، ويتباهوا بالملابس الفاخرة والحليّ الباهرة ، ويلهوا بسباع آلات الطّرب . ويتمتعوا بأكل السّحوم وشرب الخمر ، فتذلّ نفوسهم الأبيّة . وتموت شهامتهم . ويميلوا إلى الراحة والخمول ، والتخلّي بأخلاق ربّات الخمر ، فلا يخرجوا عن طاعتك .

ففعّل (قورس) حسب رأى قارون ، وكان كما قال وتمّ له ما أراد ، وفي هذا دليل على أن الملامى وحبّ الشهوات تُذلّ النفوس وتحطّ الرموس .

السعادة ووسائلها في نظر علماء الأخلاق

السَّعَادَةُ ضالَّةٌ كلِّ إنسانٍ ، والحياة بدونها كالعلم ، بل الموت أفضل منها .
وللناس في طرق التماسها مذاهب شتى ، لو أردنا استقصاءها لضاق بنا المقام ،
وما وصلنا إلى غاية المرام ، فلنذكر أهمَّ هذه الطرق .

١ - فن النَّاسِ من يَنَالُها تقوم بالمأكل والمشرب والملبس وغير ذلك من الملذَّات
الجسديَّة ، فيصرف همه في تحصيلها ، والانهماك فيها ، وهو إنما يعيش ليأكل ويشرب
ويلبس ويتمتَّع ؛ وإذا استرسل مع أهواله قلَّ حياؤه ، وكثر استناره ، وألف
أصحاب اللُّهُو والفُجُور ، وسُرَّ بمعاشره الجهلاء والسُّفهاء ، وربما دعت نفسه وعجبة
ذاته إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها ، وحلته على التهور وارتكاب المحرمات
والمحظورات كما قال الشاعر :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم يَتَبَّهها ثاقَّت إلى كلِّ باطلٍ
وساقت إليه الإنم والعار بالثنى دعت إليه من حلالة عاجلٍ
ويكون بذلك طبعه أقرب إلى البهيمة منه إلى الإنسانيَّة ، بل تكون الأيام تسعدُ
منه حالاً .

٢ - ومنهم من يرى أن السَّعَادَةَ في جمع المال ، فيسعى وراءه سعى المجدِّ ،
ويحمل نفسه على الكسب والادِّخار ، ويحرص على الدرهم والدينار ، وربما حله حرصه
على ترك التَّدَاوِي ولا ينفق منه في ضروريات نفسه وعياله ، فيعيشون عيشة الفقراء
وأهل الخصاصة ، بثياب رثَّة وبطنٍ خاوية ، وأنفُسٌ خسيسة ، لا يتنقَّون من
طعم الغيطة شيئاً .

ومثل هذا يمد سعادته في جمع المال ليقال عنه بعد موته : إنه من أصحاب الأموال
مع أنه يعيش معذب القلب سبي الخال كما قال الشاعر :

النَّارُ آخر دينارٍ نطقت به والممَّ آخر هذا الدرهم الجارى
والمرء بينهما إن لم يكن ورعاً معذب القلب بين الشاء والثَّار
٣ - ومنهم من يعدُّ السَّعَادَةَ في رخاء العيش ، والتوسُّع في الشَّفَقَةِ وأبهة المنظر .

يسكن القصور الشاهقة المزيّنة بأنفس الأثاث ، ويلبس الثياب الفاخرة ، ويركب المركبات المزخرفة ، والحيل المسومة . ويكثر من الخدم والحشم والأصحاب والخلان ومعاشرة الأخدان .

وهذا الصنف من النَّاس ، المنغمس في الترف والملاهي ، لم يعرف من أطوار الحياة إلا اللذة الجسدية ، ولم يذق شيئاً من لذات الحياة المعنوية الروحية . ومن كانت حقيقة السعادة عنده الترف ماتت فيه الأخلاق الفاضلة ، وفارقتهم الممّعة العالية .

٤ - ومنهم من يرى أن السعادة إنما هي السلطة ، فيطلبها بكل ما أوتيته من قوة وسلطان .

ومثل هذا ممثّل البلطجي الذي يكره النَّاس على دفع الإتاوة (الضريبة) ، ويأكل أموال النَّاس بالباطل . ويأخذها ظلماً وعدواناً بحجة الدفاع عنهم ، مع أن ضرره أكثر من نفعه .

٥ - ومنهم من يجد السعادة في الصّيت الحسن . والذكر الطيّب ، وهؤلاء لا يرون لوجه الحياة جمالاً إلا إثبات ما يُمدح ، واجتناب ما يُقذّر ، فيذلّون الأموال وبكابدون الأهوال في خدمة النَّاس . والسعي في مصالحهم ليكتسبوا مدحهم والثناء عليهم . والمقصود من هذه السعادة مقبول وممدوح . وأصحابه أحسن الخلق ذكراً ، وأرفعهم في قلوب النَّاس مكانة . وأطيبهم أخلاقاً . وهم الذين قال فيهم أمير الشعراء المرحوم شوقي بك :

دَقَّتْ قلب المرء قائلة له إن الحياة دقاتٌ وثوانى

فارفع لنفسك بعده وتاك ذكرها فالذكرُ للإنسان عمرٌ ثانی

٦ - ومنهم من يرى أن السعادة كل السعادة في تقوى الله ، واتباع أوامره ، وسنة رسوله . واجتناب المنكرات كبرها وصغيرها ، ويأمرون أنفسهم والنَّاس بالمعروف . ويتبنون وينهون عن المنكر ، ولا ييغون من وراء ذلك إلا إرضاء خالقهم . وإرضاء ضيائهم . وإرضاء إخوانهم .

وهؤلاء هم أهل الخير . الظَّافرون حقاً بالسعادة الحقيقية ، هم الأتقياء الكرماء السعداء الذين قال الله عنهم (إنَّ أكرمكم عند الله اتقاكم) ولم يقل أقواكم ولا نفاكم . وتابن قال فيم الشاعر العربي المنهور :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكنّ التّقيّ هو السعيد
وتقوى الله خيرُ الزاد دُخْرًا وعند الله للأتقي مزيد
وما لا بدّ أن يأتي قريبٌ ولكنّ الذي يمضي بعيد

الخلاصة

إن السعادة ليست في المال كل والمشارب . ولا في جمع الأموال والمكاسب . ولا
في رخاء العيش والثّومع في الثّقة . ولا في المناظر والمظاهر . ولا في النّبي نفسه .
ولا في السّلطة نفسها . ولا في استكمال معدّات السّرور والطّرب . بل إدراك الأمانى ،
وما المال والسّلطة والجاه والرّفعة وغيرها إلا وسائل لإدراك تلك الأمانى .

ألا ترى أن كثيرًا من الملوك والأغنياء يتحرون لضاقم الخطوب عليهم . أو بعبارة
أخرى لمعجز سلطتهم وأموالهم عن ردّ التّوازل عنهم أو تحصيل رغباتهم .

ولو كانت السّلطة والأموال سببًا من أسباب السعادة . لما فضلوا الموت عن الحياة
عند وقوع الخطوب والملمات . فاذا تنوّف السعادة على رضا النّفس . فكلّما طمعت
النفس برغائب عزيزة النّال قلّت سعادتها . وكلما قنعت بما يسيل نيلها وفرت سعادتها .
وعليه تكون السعادة هي القناعة . وكبح النّفس عما توسوس به لها . والترفع عن
الدنيا والخطايا ، وأسدّد النّاس أفتنهم نفساً ، وأهدوهم بالاً . وأشرفهم خصالاً .
وأحسنهم مآلاً .

وقال أرسطو (الصّحة أساس السعادة) كما قال بعضهم : (الصّحة تاجٌ على
وعوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى) فكل عليل تاصلت علته هو أشقى النّاس ولو كان
أغناهم مآلاً وأعظمهم سلطاناً .

قيل : إن عبد الملك بن مروان كان ينادى من وراء حجرته وهو في مرضه :
يا أهل النّعم لا تستملّوا شيئاً من النّعم مع الصّحة والعافية . وحقاً إن السعادة
في الصّحة والعافية .

وختاماً نسأل الله العفو والعافية . والستر في الدنيا والآخرة .

التذكير بمولد البشير النذير

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فلمناسبة الاحتفال بمولد النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، رأيت أن أكتب كلمة في القصد من الاحتفال بمولد النبي الأبي الأمين ، وخلاصة سيرته وشأنه . ليتذكر المؤمنون نعمة الله عليهم بعثه ، وتتغذى أرواحهم بزيادة الإيمان به . وليحرصوا على إقامة دينه وشرعته وإحياء سنته .

القصد من الاحتفال بمولد النبي

صلى الله عليه وسلم

لم يكن في سنة العرب أن يحتفلوا بتاريخ ميلاد لأحد منهم ولم تجر بذلك سنة المسلمين فيما سلف . وإثبات من كتب التاريخ وغيرها أن عادة الاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام من العادات المحدثه ، ويقال : إن هذه العادة أحدثها المظفر أبو سعيد صاحب (أربل) من البلاد التابعة لولاية (الموصل) وذلك في القرن السابع من الهجرة . ثم اتسرت هذه العادة في الأقطار ، وقد فاقت مصرنا فيها جميع الأمصار . وفي الزمن تعابر كان أهل مكة فيما رواه بعض المؤرخين يتركون زيارة الموضع الذي ولد فيه النبي عليه الصلاة والسلام في يوم ميلاده .

هذا . وإن الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ليس بالبدعة كما يدعى بعضهم . بل هو عادة حثت على خلق سنة عن السلف الصالح .

ونفسه من هذا الاحتفال هو أن يجعل الثامن يوماً من أيام العام خلاصاً لتذكير حبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر أبناء بني آدم بركة على الإنسانية ، وأبقاهم وثمة في حياتهم لتاريخ نبيهم . بتلاوة آي الذكر الحكيم . وقصة سيد المرسلين ، وتوزيع المحفلات على الفقراء والمساكين .

ولو أنصف المسلمون لجعلوا احتفالهم يوم ميلاد نبيهم عليه الصلاة والسلام أن يخرجوا إلى الصحراء بين الرمال والأحجار ، فيستميلوا هناك ذكرى النبي الأُمِّي الأمين الذي أنشأ من قبائل العرب البدويَّة ، خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، ورفع راية القرآن المنصورة مما بين (زمزم والحطيم) .

أما العادة المتبعة في الاحتفال بمولد النبي الشريف من إقامة الزينات والسرادات وتسيير المواكب ودق الطبول والمزمار ، والإشارات وممايع الأغاني والأناشيد ، والرقص في حلقات الذكر ، وإطلاق الصواريخ والألعاب النَّاريَّة في الهواء ، وخروج النساء المتبرجات لرؤية الاحتفال والموكب ، واختلاط الرجال والشَّبَّان بالنساء والفتيات كل ذلك مخالفٌ لأَداب الشَّريعة السَّليمة ، وبما يغضب رسول الله .

كما أنه يجب أن تكون القصة التي تُتلى في المولد النبوي الشريف مأخوذة من الأحاديث الشريفة المقبولة . أما ما اعتاد النَّاس سماعه من أهل التَّلحين والترنم من الأقوال الخرافية ، والأوصاف التي لا تقرها الشَّريعة الإسلامية في اللات الحمديَّة فنكرٌ يجب الإقلاع عنه .

ولنبداً بذكر مولده الشريف ، ثم ذكر خلاصة السيرة النبوية وبعض الشبائل الحمديَّة فنقول ، وبالله التَّوفيق :

ولد النبي صلى الله عليه وسلم من أبوين شريفيين (بمكة المكرمة) وهما : عبدُ الله ابنُ عبدِ المطلب بنِ هاشم ، وآمنة بنت وهب ، وذلك في ثاني عشر ربيع الأول من عام الفيل سنة ٥٧١ من مولد المسيح عليه السلام .

وكانت ولادته صلى الله عليه وسلم في دار أبي طالب . وكانت قابله أم عبد الرحمن بن عوف . ولما ولد صلى الله عليه وسلم أرسلت أمه (السيدة آمنة بنت وهب) بخدته تبشُّره ، فأقبل فرحاً مسروراً ، ومماه (محمدًا) ولم يكن هذا الاسم شائعاً عند العرب من قبل ، ولكن أراد الله أن يحقِّق ما قدَّره وذكره في الكتب السَّيَّورة التي جاء بها الأنبياء ، وهي : التَّوراة والإنجيل ، إذ قال تعالى (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ آيَاتِهِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) .

وأهم الله تعالى جدَّه عبدَ المطلب أن يسمَّيه بهذا الاسم إنَّه " لأمر ربه " وكانت حاضنته (أم أيمن بركة الحنثية) أمة أبيه عبد الله . ونُزِوه (عبد الله)

قد مات وهو في بطن أمه ولم يترك له مالا ، فولد صلى الله عليه وسلم يتيمًا فقيرًا كما قال الله تعالى (ألم يجدك يتيماً فآوى) سورة الضحى .

وقد دللت الروايات الصحيحة على اتصاله صلى الله عليه وسلم حين الولادة بصفات تليق بمقامه السامي . إذ ولد صلى الله عليه وسلم نظيفاً عتقناً مكحولاً ، يعلوه النور والبهاء . رافعاً بطرفه إلى السماء .

وفي ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم شاهد كثيرون ما يدل على شرفه وعظيم قدره . من الآيات اليمينية . والمعجزات الباهرات . مثل تنكيس الأصنام ، وارتجاج إيوان كسرى (أى اهتزاز القصر العظيم الذى كان لكسرى ملك الفرس) حتى انشق سقفه وسقط من زينته أجزاء . وخود نار فارس (أى انطفاء النار التى كانت دولة الفرس تعبد ، وكان خائف عام لم تحمد) إلى غير ذلك من العجائب والآثار .

وقال في حمله وولادته حسان بن ثابت الشاعر العربى العظيم :
 تالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل الرسول نبي الأمة الهادي
 وقال أيضا في وصفه :

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
 خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما نشاء
 وقال أمير الشعراء شوقي بك رحمه الله قصيدة طويلة في ذكرى مولده ، تقتطف منها الأبيات الآتية :

ولد لنسلى فالكائنات ضياء	وقم الزمان تبسم وثناء
روح وللألائلك حوله	للدنن والدنيا به بشراء
وخرق زهو الخيرة زدهى	والمنتهى والسفرة العصاء
وحقيقة افرقان ضاحكة الرنى	بالترجمان شلية غناء
والوحى يقطر سلسلا فى سلسل	واللوح والقلم البديع رداء
فضمت نساى الرسل فى صحيفة	فى الاوح واسم محمد طفرأ
اسم ابخنة فى بديع حروفه	ألف هنالك واسم طه الباء

هذا هو ، يولده صلى الله عليه وسلم . أما سيرته النبوية فهى طويلة جدا ، لا يمكن أن نذكرها هنا . وستقتصر على ذكر خلاصتها بعد ذلك .

خلاصة سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبي الاسلام في أدوار حياته

النبي العربي ، الهاشمي القرشي . أكرم العرب نسباً . وأشرفهم حبساً . هو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وينتهي نسبه إلى عدنان . ويتصل عدنان هذا بسيدنا إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . ويرجعون أنه ولد بالشعب بمكة المكرمة في ثاني عشر ربيع الأول من عام الفيل سنة ٥٧١ ميلادية : أي العام الذي حيس الله الفيل عن دخول مكة لحلم الكعبة كما كان يقصد (أبرهة) قائد جيش النجاشي ملك الحبشة ، فدمرهم الله أشنع تدمير . وجعل كيدهم في تضليل . إكراماً لولادته عليه الصلاة والسلام كما جاء في سورة الفيل . وقد وضعته والدته السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف مقطوع السرة . مخبوناً نظيفاً . مدهوناً مكحولاً . يعلوه النور والبهاء . رافعاً رأسه إلى السماء . وفي يوم ولادته شاهد الكثيرون مايدل على شرفه وعظم قدره من الآيات الباهرات مثل تنكيس الأصنام (انقلابها على وجوها) وانشقاق إيوان كسرى ، وغود نار فارس التي كانوا يعبدونها (وكانت لم تحمد ألف عام) وجفاف بحيرة ساوة . وغير ذلك من المعجائب .

مات والده بعد شهرين من حمله في المدينة عند أنحواله نبي النجار وعمره ١٨ سنة . ولم يترك غير خمسة من الإبل وجارية .

ولما ولد صلى الله عليه وسلم أرضعته أمه ثلاثة أيام ، وبعدها أرضعته (ثوية) مولاة عمه أبي لهب أياماً . وبعدها حليلة السعلية بنت أبي ذؤيب منبورة في العرب فأخذته ورجعت به إلى قبيلتها (هوازن) وبقي عندها إلى النظام ، وبعده بستين أيضاً . وكتم شاهدت في تلك المدة من الخيرات التي فاوضت عليها وعلى قومها ببركته . ثم عادت إلى مكة وأسلمته إلى أمه آمنة . فقامت بحضانهه ومعها أم تميم . وقام جدّه عبد المطلب بكفالتة خير قيام . فكان يحنو عليه أكثر من أولاده . لما رأى عليه من علامات النجابة والمجد .

ولما بلغ ست سنين . ذهبت به أمه وأمّ أئمن إلى المدينة لزيارة أنحوال أبيه ، فمكثت عندهم شهراً ، وبينما هي عائدة إذ توفيت (بالأبواء) « قرية بين مكة والمدينة » فأرسلته أمّ أئمن إلى جده بمكة ، وتولّت وحدها حضائنه ، ولذا كان عليه الصلاة والسلام يقول لما رآه أنت أبى بعد أبى .

ثم لما بلغ ثمانى سنوات توفى جده عبد المطلب ، فقام عمه أبو طالب بكفالاته ، واعتنى به اعتناء كبيراً حتى قدّمه على أولاده في كل شيء عملاً بوصية أبيه عبد المطلب له ، ولأنه رآه بعيداً عن كل شائبة فهو وقصّر مما يميل إليه الأطفال عادة ، وببركته أصبح عمه في سعة من العيش بعد أن كان في ضيق .

ولما بلغ الثنى عشرة سنة ، خرج عليه الصلاة والسلام مع عمّه في تجارة له إلى الشام . فعرفه هناك الراهب (بحيرا) بعلامات النبوة المذكورة في كتبهم المقدسة ، فقال : سيكون هذا الغلام شأن عظيم . وسيعتبه الله رحمة للعالمين .

ولما بلغ نحو عشرين سنة ، حضر مع قريش الحرب المشاة بحرب الصجّار ، وكان يجمع السهام لأعمامه فيها ويرى معهم ، فكلّل الله عملهم بالنصر على أعدائهم الذين انتهكوا إذ ذاك حرّمات البيت المظّم عند جميع العرب .

ومابلق عليه الصلاة والسلام خماً وعشرين سنة صافراً إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد ومعه ميسرة غلامها . فعرفه الراهب (نسطورا) وقال : هذا آخر النّبيّين ، ليقتى أُنذرك حين يؤمر بالخروج . ثم حضروا سوق بصرى (بلدٌ على الحدود بين الشام والعرب) وباعوا واشتروا فربحوا ضعف ما كانوا يربحون .

فما عادوا ورأت السيدة خديجة ربحها العظيم . وعرفت أمانته وصدقه ، وشاهدت بعض علامات النبوة . وأخبرها غلامها بكلام الراهب ، وبما رآه بنفسه ، بفتحها ذلك على الرّغبة في التّزوج به . وهى من أعظم نريش نسباً وحسباً ، وأكثرهم مالاً وثروة . وكمن عظيم خطبها ، وبذل لها الأموال الطائلة فأبت ، ولكن لما خطبها أبو طالب فحمد الله عليه إصلاّة والسلام أجابت بالقبول لما توسّمته فيه من الخير والبركة ، فتزوجها وهى بنت أربعين سنة بعد (أى حادثة) المتوفى عنها وعن ولدها (هند) هوريب . فصحت صلى الله عليه وسلم . ولم يتزوج غيرها حتى توفيت . وكان عمره وقتئذٍ خمسة وعشرين سنة . وورث منها بجميع أولاده الستة (وكنتين وأربع إناث) وهم :

سيدنا عبد الله ، وسيدنا القاسم ، والسيدة فاطمة ، والسيدة زهبة ، والسيدة رقية ،
والسيدة أم كلثوم .

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام خمسا وثلاثين سنة شرعت قريش في بناء الكعبة .
فكان ينقل الحجارة من الجبل مع أشراف مكة . وعندما أرادوا وضع الحجر الأسود
موضعه اختلفوا وتنافسوا تنافسا شديداً كاد أن تكون عاقبته الحرب . لولا أن أبا أمية
الهمزوي الذي كان أكبرهم سناً قال : لا تختلفوا وحكموا بينكم من رضونته . وافقوا
على أول داخل من باب بني شيبه ، فاذا الداخل محمد . فاطمان الجميع له وقالوا :
هذا الأمين ، وكلنا نرضى بقضائه (لأنه من حداثة سنه كان مشهوراً بينهم بالأفعال
الصالحة والأعمال السديلة : من الحلم ، والصبر ، والزهد ، والحياء ، والصدق ،
والعفاف ، والأمانة . حتى إنهم لقبوه بالصادق الأمين في صغره) .

فلما أخبره الخبر . بسط رداءه ووضع الحجر فيه وقال : (لتأخذ كل قبيلة من
طرقه) ففعلوا واحتدوا حتى إذا انتهوا إلى موضعه أخذه عليه الصلاة والسلام ووضع
بيده الشريفة .

وقد نشأ عليه الصلاة والسلام في حالة صغره فقيراً ، فكفله جده عبد المطلب
ثم عمه أبو طالب . ولما قوى على العمل اشتغل بخدمة الأنبياء . وهي رعاية العم لأهل
مكة على بعض منها . ثم اشتغل بالتجارة مع عمه . ولما تزوج خديجة عمل في مالها ،
فكانت معيشته كلها من كسب يده .

فلما تقدم جيه يعلم كيف كان تواضعه صلى الله عليه وسلم مع علو قدره العظيم .
وكيف كان احترامه بين قومه وشهرته من صغره بالصق والأمانة . ومهارته وسداد
رأيه . وحسن سياسته . وقوة عقله وفكره وأعضائه . ولتأخره في أسباب جيشة .
واعياده على نفسه مدة حياته . حتى لا يكون عالة على الغير .

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام أربعين سنة . بعته الله رسولا إلى خلقه أميين .
ليخرجهم من الظلمات إلى النور . وذلك أنه كان يتعب في غار حراء (جبل قريب
من مكة) على دين إبراهيم عليه السلام . وبينما هو معتكف فيه في يوم الاثنين ١٧
رمضان ، إذ ظهر له الملك وقال : يا محمد أبشر . أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه
الامة . ثم قال له : اقرأ . فقال محمد : ما أنا بقارئ (لأنه لم يتعلم القراءة) فضمه ثم
قال له : اقرأ . فقال : ما أنا بقارئ . فضمه ثم قال له : (اقرأ باسم ربك الذي

خَلَقَ - خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَصَى - اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فقرأها . وهذا أول ما نزل من القرآن الكريم على هذا النبي العظيم . ثم رجع إلى خديجة يرجف فؤاده من الخوف وقال : زملوني زملوني (أى لشقوني في موب) فزملوه حتى ذهب عنه الخوف . ثم أخبر خديجة بما جرى ، وقال : لقد خشيت على نفسي . فقالت : كلا ، والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به إلى (ورقة بن نوفل) لأنه كان أعلم العرب بما في الكتب العبرانية ، فقال ورقة : هذا الناموس (الوحي : أى جبريل) الذي أنزله الله على موسى ، ليتنى أسكون حجاً إذ يخرجك قومك . فقال صلى الله عليه وسلم : أو أخرجني هم ؟ قال : نعم . لم يأت أحداً قط بمثل ما جئت به إلا عودي . وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا (شديدًا) .

ثم احتبس عنه الوحي مدة . ثم نزل بقوله تعالى : (يا أيها المدثر . قم فأناذر ، وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فأهجر ، ولا تمشن تستكثر ، ولربك فاصبر) ومعناه : يا أيها الملتفت بالتوب ، قم خوف الناس من عبادة غير الله ، وعظمته . ونظف ثيابك . واترك الفاحش من القول . ولا تمط شيئاً وتستكثره ، واصبر على الأذى .

فقاء عليه الصلاة والسلام يدعو قريشاً إلى عبادة ربّه ، ويرشداهم إلى النور الذي جاء به . فأجاب دعوته ذوو العقول السليمة ، وبأدروا بتصديقه . فأول من آمن به من نرجس أبو بكر الصديق . ومن النساء خديجة . ومن الصبيان عليّ بن أبي طالب ، ومن نواف زيد بن حارثة . أو بلال .

ثم أخذ أبو بكر الصديق يدعو أصحابه للإسلام ومن يتق به من قريش . فأسلم عثمان ابن عفان والزبير بن العوام وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من أشراف مكة . ثم هكث الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس سرّاً حتى نزل قوله تعالى : (فاصدح بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقوله : (وأنذر عشيرتلك الأقربين) فجهر بالادعوة . وأخذ أمره يظهر رويداً . فاستاء لذلك أهل مكة ، ورأوا في دعوته عيباً في ههنا . فزموا على الإيقاع به وبأصحابه .

ولما رأى منه ذلك . هجر مكة هو وبعض أصحابه إلى المدينة . وذلك سنة ٦٢٢ م

وهي السنة التي يبدأ منها تاريخ الإسلام المجري ، فلاقاه أهل المدينة بالإكرام . ونصروه
فَسَمُّوا « الأنصار » . كما متى من هاجر معه « المهاجرين » .

مكث الرسول ثلاث عشرة سنة بمكة من مبعثه إلى هجرته يدعو النَّاسَ إلى الإسلام
بالعرف واللين . مبشراً ونذيراً ، وصابراً على الأذى . كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا
أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً مَبْشِراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَرِجَالاً مِنْهُرَ . وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً . وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) .

ولما اشتدَّ طُغْيَانُ أَهْلِ مَكَّةَ . وتآمروا على قتله . وأخرجوه من داره . ويدموا
بالعداء والغدر وأصرُّوا على العناد . أمره الله بالقتال . فقام يفتزو ويجاهد في سبيل الله
لإعلاء حكمة الدين . وهداية النَّاسِ إلى الطَّريقِ القويم . لاطمئناً في مُلْكِهِ . ولا رياسة
ولا مال ولا عَرَضٍ من أعراض الدنيا . ولذا قال عليه الصلاة والسلام « أُمِرْتُ أَنْ
أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا
بِحَقِّهَا وَصَابَهُمْ عَلَى اللَّهِ » .

وغزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوةً . وأولها غزوة بدرٍ التي انتصر فيها المسلمون على
أهل مكة انتصاراً باهراً . ومع أن المسلمين خَلِدُوا بعد ذلك في معركة أُحُدٍ . فإن
النَّصْرَ كان حليفهم في الوقائع الأخرى . فعظمت هيبتهم وكشَّدت شوكتهم .

ثم غزا الرسول عليه الصلاة والسلام مكة وفتحها عنوةً . وحول الكعبة من بيت
أصنام إلى مسجدٍ يَجْمَعُ إليه المسلمون من أقطار المعمورة في كلِّ عام .

وبفتح مكة تَمَّتْ الغلبة على العرب . فجامعوا إليه من كلِّ الجهات . ودخلوا
في طاعته ؛ ولما دخل مكة كان يقرأ سورة النصر : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ .
وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ
كَانَ تَوَّابًا) .

ثم أمر بإخراج الأصنام من الكعبة . فأخرجت . وكانت ٣٦٠ صنماً . وجعل
يطعمها بعود في يده ويقول : (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ . إِنْ الْبَاطِلُ كَانَ زَهُوقًا) .
بعد هذا الفتح المبين . ودخول النَّاسِ في دين الله أفواجاً . بلغه عليه الصلاة
والسلام أن بعض القبائل المجاورة لمكة تحالفت على مُقَاتَلَتِهِ . فخرج يبيحش وحمل على
الكفار وهزمهم شرَّ هزيمة ، وتفرقوا في كلِّ جهة . فتبهم المسلمون يقطون ويأسرون

حتى أسروا منهم خلقاً كثيراً . وغنموا ما لا يحصى من الإبل والغنم والدرهم ، وفي هذه الغزوة المعروفة بغزوة حنين . أسلم خلق كثير من المشركين ، لما رأوا من انتصار المسلمين وعناية الله بهم .

وفي السنة العاشرة من الهجرة . حيث انتشر الإسلام ، واتسعت دائرته ، وعلت حكمته . وأمنت الجهات . خرج الرسول عليه الصلاة والسلام في جوع كبيرة لأداء فريضة الحج . فدخل الكعبة وأدى نسكه ، ثم خطب يوم النحر (بمنى) خطبته التي بين فيها الدين . وأوضح معالمه . وأكثر فيها من قوله : « ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب » ثم ودع فيها الناس . فسميت تلك الحجة حجة الوداع .

وفي السنة الحادية عشرة من الهجرة أراد النبي صلى الله عليه وسلم غزو الروم ، فجهز جيشاً كبيراً . وأمر عليه « أسامة بن زيد » وفي أثناء الاستعداد طرأ المرض الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلم تتم تلك الغزوة في حياته ، وأتمها بعد وفاته أبو بكر الصديق خليفته . فانه عليه الصلاة والسلام بقى مريضاً حتى فارق الدنيا . وذلك في يوم الاثنين تاني عشر ربيع الأول من تلك السنة المتممة له ثلاثاً وستين سنة . فدفن حيث قبض في حجرة عائشة بالمدينة المنورة ، ومدفنه هناك يسمى باخرا المني . فعلة الله وسلامه عليه يوم ولد . ويوم مات . ويوم يبعث حياً . هذه خلاصة وحيزة لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . وسندكر إن شاء الله بعض شأده وصغته . لعرف المسلمون عظيم قدر نبيهم . وأنه أرسل حقاً رحمة للعالمين . وأنه « رب الأخلق » وأنه سيد المرسلين على الإطلاق . جعلنا له من أنعامه . ووفقنا للعمل بسنته وشريعته .

المحاضرة الثامنة عشرة :

شماته وصفاته عليه الصلاة والسلام

١ - كما وصفه المرحوم (الشيخ زكي الدين سند) :

نبيّ الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال

لو سألت سائل عن (محمد صلى الله عليه وسلم) نبيّ الإسلام والمسلمين ؟ لأجيب :
بأنه البحر الزاخر ، والبلد المنير ، والسراج الوهاج . والروح الذي تجلّى عليه الوحي .
فجلى من أسرار الملوك والملوك شيئاً غريباً . والحقّ الذي مدّه الحقّ ففتح في القفص
والفضيلة وأندين والدنيا فتحاً قريباً .

لازمته الرعاية قبل النبوة . فكان أمياً في الأرض . أمياً في السماء .

لاحظته العناية في البعثة ، فكان مؤيد الحجة في الحجّة البيضاء . سرى إليه اندد
الأعلى ، فكان في جميع الأنوار والأفعال نبيّ الرحمة . وبحر الحكمة . وإمام الهدى .
وعين الكمال .

فطّيم عن ثدى السيدة حليلة . لكن الأخلاق الكريمة . والأذواق السليمة .
والأعراق القويمة لم يزل منها يرضع ، وفيها يرتع . وعليها يترعرع . حتى نشأ وانهاية
له حادمة ، حتى طلع والمداية له ملازمة . حتى سما وأشخص الكمال فيه قائمة . حتى
نما وآيات الحقّ عليه حاكمة ، حتى أشرقت شمس النبوة الكاملة . وتدفقت ينابيع
الحكمة الفاضلة .

فكان قبل النبوة وافر الأدب : زاهر الحساب . باهر الجلال . وكان بعده نبيّ
الرحمة ، وبحر الحكمة . وإمام الهدى ، وعين الكمال .

إذا كانت مباني الأهرام دليلاً على قوة الأقدمين . فباني الإسلام دليلٌ على حكمة
ربّ العالمين ، ومعالي نبيّ الإسلام آية القدر العاني والفضل المبين .

دعا محمد صلى الله عليه وسلم دعوة الدليل الصادق إلى خير السبل . وصبر على
الإيذاء صبر أولى العزم من الرسل .

برز وحيداً فريداً بين أجلاف جفأة غلاظ شداد عتاة . لاناصر له إلا أن يضع
سيف الحقّ في رقاب الأباطيل . لامتدّد له إلا أنه يترجم عن لسان الوحي الجليل .

لَقِيَ أَشَدَّ مَا يَلْقَاهُ حَقٌّ مِنْ بَاطِلٍ ، وَعَلِمَ مِنْ جَاهِلٍ . تَلَقَّيْتُ بِنَايِيعَ حِكْمَتِهِ ،
وَبِهَرْتَ الْأَبْصَارَ بِمَسْرِ رِسَالَتِهِ . وَتَغَلَّغْتُ فِي الْقُلُوبِ آيَاتَ شَرِيعَتِهِ ، فَأَصْبَحَ الْأَعْرَابُ
أَبْخَلَفَ حِكْمِيًّا . وَالْعَرَبِيُّ الْقَضُوبَ حَلِيًّا . وَالْقَاسِمِيُّ الْقَلِيظَ رَحِيًّا ، وَالبَخِيلُ الْحَرِيصَ
كَرِيمًا . وَالْمَقْصُونُ بِالدُّنْيَا زَاهِدًا . وَالْمُشْرِكُ بِاللَّهِ عَابِدًا ، وَالْكِسْلَانُ نَشِيطًا قَوِيًّا ،
وَالْحَاحِلُ نَبِيًّا ذَكِيًّا . وَالْجَاهِلُ عَالِمًا ، وَالْمَقْرُطُ حَازِمًا . وَالْجَبْنَاءُ شُجْعَانًا . وَالْأَعْدَاءُ
إِخْوَانًا .

جَاءَ (مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأُورُوبَا لَمْ تَبْصُرْ نَوْرَ الْمَدِينَةِ إِلَّا فِي مَمِّ الْخِيَاطِ ،
وَالشَّرَفِ مَقَابِيبِ الْكِيَانِ يُعْمَى فِي افْتَتَانِ ، وَيُصْبِحُ فِي اخْتِبَاطِ . وَالْعَرَبُ نَارَ الْحَيَةِ
مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَتَوَقَّدُ . وَالْعَالَمُ كُلُّهُ بِصُنُوفِ الْكَوَارِثِ مَهْدَدٌ ، وَالْأَخْلَاقُ عَلَى أَهْضَى
أَنْوَاعِ الْوَحْشَةِ . وَلِرَادَةِ الرِّعَاةِ قَدْ سَلَبَتْ مَخْتَارَاتِ الرِّعِيَّةِ .

جَاءَ (مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَلَمْ يَكُنْ مَلَكًا حَشْدِيًّا وَحَشِيرًا ، وَنَهْيًا وَأَمْرًا ،
بَلْ نَبِيًّا حَشْدًا إِلَى الْهَدْيِ عَمِيدَ الْأَصَالِيلِ ، وَلِإِى التَّوْحِيدِ عُبَادَ الْعَمَائِيلِ . وَلِىَ الْحَقِّ أَبْنَاءُ
الْأَبَاطِيلِ .

حَشَرَ فِي الْقَارِبِ الْقَامِسِيَّةَ رَافَةً وَرَحْمَةً ، وَفِي الْأَخْلَاقِ الْغَايِطَةَ رَقْمَةً وَحِكْمَةً ،
وَفِي الْأَرْوَاحِ الْخَبِيئَةِ طَهَارَةً وَذِمَّةً . وَفِي الْأَشْيَاحِ الْفَاتِرَةَ نَشَاطًا وَهَمَّةً .

نَهَى عَنِ إِفْشَاءِ الْأَسْرَارِ . وَهَاجَبَ الْأَسْرَارَ . وَالنَّظَرَ إِلَى بَيْتِ الْخَارِ .

نَهَى عَنِ أَكْلِ الْأَمَانَاتِ . وَسَبَّ الْأَمْوَاتِ . وَقَذَفَ الْمُحْصَنَاتِ .

نَهَى عَنِ التَّنْفِيرِ وَالتَّسْوِيرِ . وَالتَّنْفِيرِ وَالتَّحْقِيرِ ، وَالتَّيْبِيلِ وَالتَّغْيِيرِ .

نَهَى عَنِ التَّمَحُّسِ وَالتَّحْشَاءِ . وَالْكَذْبِ وَالْإِفْتِرَاءِ . وَالْجُلْدِ وَالْمَرَاءِ . وَالسُّمْعَةِ
وَالرَّيَاءِ .

نَهَى عَنِ التَّبَاغُضِ وَالتَّتَنَازُعِ . وَالتَّحَاسُدِ وَالتَّتَقَاطُعِ ، وَالتَّجَالُدِ وَالتَّتَصَارُعِ .

نَهَى عَنِ الْبِدَاءِ وَنَسْبِ . وَالْمَلَّةِ وَالضَّرْبِ . وَالْأَزْدِرَاءِ وَالْعَبِّ .

نَهَى عَنِ التَّنَشُّبِ بِالْأَعَاجِمِ . وَالتَّمَسُّوَةِ عَلَى الْبَهَائِمِ ، وَالْفِرَارِ مِنَ اللَّاحِمِ .

نَهَى عَنِ الْغِيَةِ وَالْإِسْتِجَاعِ . وَالتَّهْمَةِ وَالتَّرَازُعِ ، وَالْمَكْرِ وَالْخُدَاعِ . وَكُلَّ رَدَىٍّ مِنْ
لُحَادِثِ الطَّبَايِعِ .

أَمَرَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ . وَالْعَمَلِ لِلدَّارَيْنِ . وَحِفْظِ اللِّسَانِ وَالْعَيْنِ .

أمر بصلة الأرحام . وإلانة الكلام ، وإطعام الطعام . وإفشاء السلام . والصلاة
بالليل والناس نيام .

أمر بحفظ اليهود ، ومراقبة الرب المعبود . وملاحظة انوجود .

أمر بالمساواة والعدل ، والتآخي والبذل . والرفق والمهل .

أمر بالصبر عند الصلوة . والشكر على النعمة . والجِدُّ في الخدمة .

أمر بما فيه سعادة العالمين . وحدود الرعايا والسلاطين .

أمر على الجملة بما فيه صلاح الدنيا والدين .

فهل يد هذا يقال : إنه رجلٌ ساحرٌ محتال . أو هو ملكٌ عاقلٌ كما قال من قال :

هو ولا جدان نبى الرحمة . وبحر الحكمة . وإمام الهدى . وعين الكمال .

أخلاقه : بشاشةٌ في لين . إخلاصٌ في يقين ، عزيمَةٌ في دين . ذكرٌ في استغفار .

دعاءٌ في أذكار . سكينةٌ في وقار . تعليمٌ في تهذيب . تشريعٌ في تأديب .

تدبيرٌ في ترتيب . إحسانٌ في معاملة . لطفٌ في مجاملة .

إتسامٌ في مقابلة ، سدادٌ في آراء . صدقٌ في وفاء . عفافٌ في حياة .

صبرٌ في حلم ، حكمةٌ في علم . حزمٌ في عزم . فهمٌ في جزم .

غنىٌ في إحسان ، قوةٌ في بُرهان . زهدٌ في تكلان .

خشوعٌ في صلاة ، خنوعٌ في مُناجاة . قنوعٌ في حياة .

معروفٌ في ير . حفظٌ في سر . تودةٌ في كلام . صيامٌ في قيام . عت

في أحكام .

بذلٌ في سماحة . عقلٌ في رجاحة . قولٌ في فصاحة .

خطارةٌ في شأن . تواضعٌ في سلطان . توفيقٌ في مُداراة . صمتٌ في أناة .

إيفاءٌ بالعهد . وفاءٌ بالوعد . صدقٌ في القصد . رافةٌ بالؤمنين . رحمةٌ

بالمساكين .

عزةٌ لاأخذ بالصلف . علوٌ لا فخر بالشرف . سيادةٌ لا عن مال . فوزٌ لا باحتيال .

أبهةٌ في جمال ، هيبةٌ في جلال .

هو بالإجمال كما شهد الحق . ودلّ الصدق . وتطق الحال : نبى الرحمة . وبحر

الحكمة ، وإمام الهدى . وعين الكمال .

حائته للماشية

عاش محمد صلى الله عليه وسلم لم يلبس حريراً ولا ذهباً . ولم يأخذ إلى الأبهة أهبة ولا سبياً .

لم يقل : أين سطوة الملوك وعزة السلاطين ، بل قال : اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتي مسكيناً . واحشُرني في زُمرة المساكين .

لم يوح إليه أن اجمع المال وكن من التاجرين المشرّين . بل أوحى إليه أن « سبَّحْ بعمد ربك وكن من السَّاجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

ما جمع بين إدامين في طعام . بل أثنى على الملح والزيت والخل وقال : نعم الإدام .

لم تمس يده امرأة أجنبية قط . ترفعاً عن مواطن الرِّية وتشريعاً لأُمَّته .

لم يغتسل عرياناً قط . حياةً من الله وملاحظةً لعظمته .

كان لا يحقر مسكيناً لحاجته وقدره . ولا يهاب ملكاً لرفعة في قدره .

كان يستحي من الله إذا أراد دخول بيت الحلاء . حتى كان يتقنّع بردائه من شدة الخياء .

كان يلبس ما وجد : فرّة جبة صوف ، ومرة بُردة حبرة . ومرة ثوب قطن ، ومرة شملة .

كن يركب ما وجد : فرّة فرساً . ومرة بعيراً . ومرة حماراً ، ومرة بغلة .

كن يأكل مع الفقراء والمساكين والخدم . ويبتسّ في وجوههم ويفرح .

كن لا يجزيه بلسنة الدنيا . بل يغفو ويصفح . ويقابل السيئة بالإحسان .

كن يساعد أهل بيته في خدمه . وكان يحطّب . ثم يحمل الحطب وهو سيد يُمَرِّم .

كن يجسر حيث انتهى به المجلس . حتى إنه لم يكن يُعرف من بين أصحابه .

كان الأعزبي إذا جاء يسأل عن دينه لا يعرفه . فيسأل عنه حتى يبتدئ إلى جنبه .

كان على رغم أنف كل معند قوّات : نبي الرحمة وبجر الحكمة . وإمام الهدى ، وعين الكمال .

أما شريعته (عليه الصلاة والسلام) فحدث عنها ولا حرج ، فإنه لم يشنّ مقام الإلَهية بانحداد أو حلول أو صلب ، ولا مقام الأنبياء بزنا أو سكر أو سب ، ولم يضيّق على الثّقوس بزوجة واحدة ، أو منع طلاق ، ولم يرض بفضيحة الاعتراف بالذّنوب على الإطلاق .

شريعته (على عيتك يا تاجر) والسعيد مؤمن ، والشقيّ كافر .
نعم الحقّ ما عليه من غبار ، والصبح لا يضرّه الإنكار ، والناس على الهدى أو ضلال مبين (وما على الرسول إلاّ البلاغُ المُبين) .

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه سيرته وشريعته ، غرّبوها وانخلوها لم تجلّوا فيها غير الاعتدال والكمال ، وتعرفون بكل طاعة وامتنال أنه (محمد صلى الله عليه وسلم) نبيّ الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال .

٢ - كما وصفه المرحوم الشيخ زكيّ الدين سند :

نبيّ الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال

وقد ملحه أحد الشعراء الأفاضل في قصيدة له فقال :

نبيّ قد رأى مولاه جهرًا وحسنُ ستاه يترى باللال
ونعم للمكارم فهو حقًا كمال في كمال في كمال
أقّ والجاهليّة في شقاء وجلّ القوم يرتّع في ضلال
فبدّد شملهم وحطى بنصرٍ وأظهر للملاخير الأفعال
وأعطاه المُهمين ما تمسّى وأبّده بأبطان الرجال
فأضحت ملّة الإسلام تعلو بفضيد الصحابة خسير آل
فكرونا مظهرهم ياقوم تحظوا وتكتسبوا غداً شرف المعالي
وتكرار الصلاة على النَّبِ كذا صحب ذوى ميم عول
ووقفنا لما يُرضيك ربّي وكلّ في الختام نجاح حطى
وهو بشهادة أحد المسيحيّين : أعظم رجل ظهر في العالم .

حيث اقترحت جريدة الوطن اليروتية (وصاحبها مسيحي) على قرأتها : بأن يكتبوا إليها آراءهم في أعظم رجل نثر في العالم ، ولماذا ؟ فلأنّها كاتب من أحرار الطائفة المسيحية قائلًا :

أعظم رجال العلم على الإطلاق . رجل وضع في عشر سنين : ديناً ، وفلسفة ،
وشريعةً اجتماعيةً ، وقوانين مدنيةً ، وغير شريعة الحرب ، وأنشأ أمةً ودولة
طاولت الدهر . وكان أمياً . ذلك هو (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي
العربي نبي المسلمين) .

وفد تدارك النبي لمشروعه العظيم كل حاجاته . فوفر لأمة ولتابعيه ، وللملك الذي
أنشأه أسباب الانتشار والخلود . بحيث إذا انقطع المسلم إلى القرآن والحديث وجد فيما
ما يمهته من أمور دينه ودنياه .

ومن تنبه إلى فرض الحج على من يملك الراحلة والثقة . وإسقاطه من لا يملكهما
أدرك أن الغاية من الحج اجتماع المسلمين والوجوه من الأمة ، للبحث في شؤون
جامعهم . وأمور سياستها واجتماعها وتعاونها .

وتدارك أمر التفكير بالزكاة التي فرضها على كل مسلم بحيث إذا أدّاها المسلمون
على حقها لم يبق في الأمة فقر .

وجعل نواةً أبديةً للإسلام يكون القرآن كتاباً عريضاً يتحتم على كل مسلم أن
يفهمه بلغة العرب . وإذا لم يكن في هذا غير أن فهم العربية حتم على كل عالم
وإمام لتكن به جامعة لسان المسلمين .

ومهد طريق الشبوع لأفراد الأمة يكون المسلم لا يفضل المسلم إلا بالتقوى .
فكأن الإسلام جمهورية حقيقية .

وسهل اعتناق الإسلام لغير العرب بقوله : لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي
على عربي إلا بالتقوى .

وسرّ نهر المداين بين برخه في بلاد الإسلام بقوله « الخلق كلهم عيان »
ن . فحسبهم من شعوبه ن .

ونظر في أمور الأمة . فرتّب شور الزواج . والتناسل ، والتوارث ، ورفع من
تشّزّزها .

وعدّد في أمور المدنية . فوضع قوانين وقضاة ، للنظر في شؤون الأفراد .

ولم يسهل منية الموت . بل وضع لها سداً ليبت المال .

وكان له في عهده صيد وافر لأهل . فجعل الحكمة ضالة المؤمن . وأوصاهم
ب .

وكان خله الرجعة شيء عظيم في اقتباس المسلمين العلم من كل أبوابه وازدهاره في أيامهم .

أفلا يكون الذي فعل كل هذا أعظم رجل ظهر في العالم ؟ .

اللهم إنا نسألك أن توفق جميع المسلمين إلى الاعتصام بهدي هذا النبي الأمين .
وأن تصلح لهم أمور الدنيا والدين . إنك على كل شيء قدير . وبالإجابة جدير .

ملحوظة :

هناك عاصرات أخرى في الزنا . والربا ، والخمر ، والميسر . واليانصيب .
والمضاربة في البورصة . والمخدرات . وجميعها مذكورة في كتاب « الأمراض الاجتماعية » .

ثانياً

المحاضرات الخاصة بالاناث

المحاضرة الأولى :

تربية البنات

منما كانت تربية البنات من أعظم المهامات ، وعليها تقوم سعادة الأسر ، بل سعادة الأمة ، رأيت أن أذكر هنا نبذة صغيرة في تربية البنات من عهد قدماء المصريين إلى عهد الإسلام . نقلاً عن كتاب تاريخ التربية لحضرة الأستاذ القاضي مصطفى أمين المقتش بوزارة المعارف ليعرف كل إنسان الفرق بين تربية البنات في العهد القديم والعهد الحديث . وليأخذ بالصالح منهما في تربية بناته . والله الموفق لما فيه صلاح البنات والأمهات .

١ - تربية البنات عند قدماء المصريين وحظ النساء منها

البنات عند قدماء المصريين كن يتعلمن القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ، ولكنهن لا يتعلمن في ذلك حدود التعليم الأولى . وعلى الرغم من ذلك . كان هذا التعليم الأولى خير معوان لمن على تربية أولادهن في المنزل في الأدوار الأولى من أدوار الحياة .

وكان نسوة منزلة رفيعة ومكانة عالية ، وكان لها من الإجلال والاحترام أكبر حظاً وأوفر نصيب . فقد كانت سيدة في بيتها . عزيزة في قومها ، مهيبة بين الخدم وخشمة . نافذة بكلمة بين جميع أفراد الأسرة ، وقد كان زوجها يُحِبُّها ويمنحها من أنواع الخسف والحنن ما لا تتسبب به نساء الشرق في ذلك الحين ؛ وكان الرجل لا ينزويج في له أب أكثر من واحدة . على الرغم من أن التشريعة المصرية القديمة كانت تُبيح تعدد الزوجات . وكان المموك والأغنياء الذين لا يقنعون بواحدة يتعخلون من يشاعون من ابهرى .

وكان النساء يتمتعن بحريتهن كاملة ، فيخرجن إلى الأسواق بغير نقاب ، ويحضرن الاحضالات ، ويحادثن الرجال ، ويشتركن معهم في شئون الحياة ، ويمثلهم في الحقوق المدنية .

٢ - تربية البنات عند اليونان « في إسبرطة »

كانت تربية البنات في (إسبرطة) تشبه تربية الغلمان شياً كثيراً حتى في خشونتها ، وألعابها الرياضية ، وتربيتها العسكرية الأولية . فكُنَّ يتعلمن الجري ، والوثب ، والتفزز ، وري الحلقا ، ورشق الرماح ، والمزاريق ، والمصارعة ، والملاكمة كما يتعلمها الغلمان . وكنَّ يتعلمن الرقص والغناء والإنشاد والضرب بالنأي وعلى العيدين .

وكان من نظم التربية في (إسبرطة) أن تربي البنات منزلات عن الذكور ، وأن يرخص لمن في الإقامة في منازلهم ، وأن تتولى النساء هذه التربية . بينما كانت تربية الغلمان ترى إلى إعداد جنود قادرين على الجلال والكفاح واحتمال المشاق .

كانت تربية البنات ترى إلى إعداد أمهات يلدن الجنود الأقوياء ، ويقنون على غرس الروح الدينية والوطنية في أولادهن .

وكانت للمرأة (الإسبرطية) موضعاً لإجلال زوجها ، واحترام أولادها ، معروفة بالطهر والعفاف ، مشهورة بالأخلاق القاضية ، والسجيا النبيلة ، وكانت سليمة البدن قوية العضلات ، مشغوفة بحب الوطن ، تنهّب له أرواح أولادها ، وتحب إليهم الموت في سبيل إعزازه وتُصرته .

يذكر على مبلغ وطنيتها الصادقة ، المزدوجة بنكران الذات ، ما يروى من أن إحدى الأمهات الإسبرطيات قامت تودّع ولدها الذاهب إلى الحرب ، فكانت كلمتها له : (عدّ بترسك أو عمولاً عليه) .

وما قيل من أن امرأة سمعت بفرار ولدها من وجوه الأعداء ، فأمرت بمقتله وقتلته وقالت : إن نهر افروتاس لا يشرب منه الجبناء .

ومن ذلك أيضاً ما يُحكى عن امرأة أخرى خرجت لاستقبال ابنيها : واستماع أخبار الحروب ، فلخبرها القادمون بموت أولادها الخمسة في ساحة القتال . فلجابتهن وهي هادئة ثابتة الجأش : ما لهذا أتيت ، هل النعم لنا ؟ ، فجابتهن نعم . فقالت : هلموا نقيم الصلاة شكراً للآلهة .

٣ - تربية البنات في أثينا

كان الاتينيون يَعْمَلُونَ تربية البنات قصداً إذ كانوا يرون أن الغرض من التربية إنما هو إعداد الناس للحياة العملية . والقيام بواجب الوطن . وأن الرجال وحدهم هم المخلصون بهذه الحياة وهذه الواجبات دون النساء . ولذلك وجب تعليم البنين وإهمال البنات .

وكانوا يذهبون إلى أن المرأة التي ينحصر واجبها في أن تكون زوجة ، وأماً لا تحتاج إلى معارف فوق ما يساعدها على تدبير منزلها . وكل امرأه تمتاز بشيء من العلوم والمعارف . وتظهر عليها مسحة من الذكاء والقدرة العقلية تعدد في نظرهم ناقصة الأخلاق .

تظلّ الحياة الأنيقة من مبدأ ولادتها في جوار أمّها لاتعتلّم شيئاً سوى الخضوع والطاعة، وعزل نصوص، وحياكتة . فإذا بلغت الخامسة عشرة من عمرها . روجها أهلها من غير أن تكون لها حرية في اختيار زوجها . وحينئذ تلزم بيتها لاتخرج منه إلا في الاعياد والمواسم الدينية .

وإذ كان كاد أن يرحل بزوحها ليد له أولاداً ، وانتمى له بحراسة المنزل وندير
تثمنه . ولأن الدين فوق ذلك ينص على المرء بأن تكون له حليلة .

وكذلك (أفلاطون) يرى أن تكون تربية البنات مماثلة لتربية البنين . بحسب لاختلاف عنها في تربية . فليس ركنهم في جميع أنواع التعلم ، ويدخلن معهم ميدان المصارعة ، ويتبرهن من الأعمى البندية القيمة . حاسرات عاريات كالرجال ، وذلك لأن واجب المرأة أن تسمع عن زواجها لا يجب لرجل . فليس للرجال واجب ، ولنساء آخر . قال - كد - : « هو » : ليس للرجال في إدارة أعمال الحكومة واجبات خاصة ، وليس لهن واجبات خاصة ، وإلهاء حيات الرجال هي واجبات النساء . من ناحية . - - - - - . في الواجب . وما المرأة في الحقيقة إلا رجل ضعيف .

وقد في موضع آخر . ثانياً قرئ بين ثبات الكلاب ودكورها . فنخرج الدكور
منها . محيرة . كمنها . راحة . ونرى الإنجاب بمحبة أن الحمل والإرضاع
يؤثران كور في أي يد وأخرى . حاشاً لنا لأعمل ذلك .
س طيفت الحال مع الرجال . فيمكن .

فلسوفات يشتركن في أعمال الحكومة ، ويسنن أمورها ، ويتولين قيادة الأعمال
ويكنّ جنديّات يركبن الخيل ، ويلبسن لباس الحرب ، ويدنن عن الأوطان .
ويكنّ صانعات وتاجرات يكتسبن المال ويساعدن به الحكومة كلما دعت الحال .
ولما كانت أعمال المنازل والعناية بالأطفال قد تعوقهنّ عن مشاركة الرجال
في الأعمال والواجبات ، رأى أفلاطون أنّ يُخصّصن من ذلك ، فاقترح أن تكون معيشة
النّاس جميعاً مشتركة . بحيث يأكلن على الموائد العامّة ، وأن تتولى الحكومة تربية
من يولد من الأطفال الأقوياء . أما المولود الضعيف الذي لا ترى الحكومة خيراً في حياته
فَيُقتل ويحرّم الحياة .

٤ — تربية البنات في عصر الدولة الرومية

بعد انقضاء العصر الأوّل من عصور الدولة الرومية تمتّع النّساء بقسط كبير
من الحرية . ونصيب عظيم من التثقيف والتّحذيب ، فقد كان الروم يساوون بين
المدّ وزوجه ، ويدعون الزوجة أمّ الأسرة ، كما كانوا يدعون الرجل أباً الأسرة .
وكانت المرأة عندهم سبلة دارها . تُسيطر على الإماء ، وتوزّع يهنّ الأعمال
المنزليّة الشّائعة من طحن وعجن وخبز . وتشتغل بالقرزل والحياكة وتدير شؤون البيت .
ولم تكن المرأة اليونانية تعيش في معزلٍ عن الرجال ، وإنّما كانت تختلط بهم .
وتعدو إلى أسواق المدينة . وتفتش المسارح والمخاض ودور القضاء .

كذلك كانت تربية المرأة في (رومة) أرقى وأتمّ منها في (أثينا) فهناك من الدلائل
ما لا يدع مجالاً للشكّ في أن البنات كنّ يذهبن إلى المدارس الابتدائيّة التي يذهب إليها
الصبيان ، ولكن النّساء لم يكن لهنّ أن يختلطن بالرجال في دور العلم ومعاهد التّعليم .
ومن أراد منهنّ أن تستكمل معارفها بعد الانتهاء من المدارس الابتدائيّة . ابتعت
ذلك عند معلّمين خاصين يعلّمونها في المنزل ، أو انتظرت إلى ما بعد الزواج فأنخذت
عن بلها ما يتّفق من علم وأدب .

ومن أكبر الدّعا إلى تهذيب المرأة الروميّة (هوسوتيوس) الفيلسوف الدائع الصيت
فقد كتب جملة رسائل في التّربية دعا فيها إلى العناية بتثقيف المرأة . وأوجب مساواتها
بالرجل في التّربية والتّعليم . مستنداً في ذلك إلى أن الفضائل التي يجب أن يتحلّى بها
الرجل هي بعينها التي يجب أن تتحلّى بها المرأة .

ولما كانت الوسيلة الفذة في اكتساب هذه الفضائل هي التربية لم يكن هناك بدء من أن تكون هذه التربية متحدة في الرجال والنساء .
ولقد كان (موسيتوس) حريصاً على أخذ النساء بالفلسفة . وبما يؤثر عنه في ذلك قوله : إذا سألتني سائل : أى العلوم له أسعى المنزل في تربية المرأة وتهذيبها ؟ قلت له في الجواب : إذا كان الرجل لا تكمل تربيته بغير دراسة الفلسفة فكذلك المرأة .

• - تربية البنات في العصر الجاهل

كان للمرأة العربية في الجاهلية من علو المنزلة وسمو المكانة ، وجبل الأخلاق ، ،
ونبل الصفات ما للرجل . وكان لها وفرة عقل ، وحصافة رأى ، وصفاء ذهن ،
وطيب تخلق وآداب .
وكذلك كانت موضع الكرامة والإجلال . ياتمر الرجل بأمرها ، وينزل في الحادثات على حكمها .

وكانت تستشار في أمر زوجها ، وتترك لها الحرية في اختيار بعلها ، وقل أن غلبت امرأة من نساء العرب على أمرها في شأن تزويجها ، ولم في ذلك أقوال مأثورة ، وأحاديث مشهورة . يرجع إليها في كتب الآداب والأخبار .

أما التربية ، فكان حظ المرأة منها وافراً ، فكانت تتعلم الشعر والخطابة وبعض الأعمال والفنون التي يبيدها الرجال ، وكانت فوق ذلك تتعلم تدبير المنزل ، وإعداد الطعام ورعى المشاية . وهن الإبل . وغزل الصوف ، والضرب على الدف والطبل ، وكن تتعلم أسو الجروح في أوقات الحروب على نحو ما يفعل نساء القرنبة الآن .

وكانت الأم العربية تهذب بناتها لتكون زوجة صالحة تحفظ حقوق زوجها ، وتكون في المستقبل أم تحسن تربية الأطفال وتهذيبهم . فكثيراً ما كانت الأم تخطئ بناتها بية زفافها فتبصرها بحقوق الزوج . وتهدى إليها من النصائح ما يساعدها على أن تكون خير أم . وفي كتب الأخبار من هذه الوصايا شيء كثير مستفيض .

نساء العمالة

كان نساء عند العمالة في العرف منزلة عالية ، ومكانة سامية ، فكان يتمتعن بحرية . ويتألفن كنساء الأمم المستعبدية في هذا العصر ، وكن مساويات للرجال

في الحقوق ، يشاركونهم في أعمال التجارة والصناعة والزراعة ، ويحاولون المهنة القلمية ، وينخرطون في خلية الدواوين والحكومة ، وكان الزواج وثيق العرى عندهم ، لا يُعتدُّ به إلا بعقد كتابي . وكان للمرأة عند زوجها نصيبٌ كبيرٌ من الإجلال .
نعم كان الرجل أن يقضي الجوارى ويقسرى ، ولكن لا يُقبل منه ذلك إلا إذا كانت زوجته عقيمًا ، فهو يفعله ابتغاء النسل لا غير .

النساء في العصر الإسلامي

كانت المرأة العربية في العصر الإسلامي ، مشهورةً بالهفة والآنفة . معروفة بسداد الرأي ، ورجحان العقل ، وكان علمها على الجملة خفيفًا . وفضلها عظيمًا . وتأثيرها في الدولة كبيرًا .

وكانت تقرأ القرآن ، وتحفظ الحديث ، وتشد الأشعار . وتروى الأخبار . وتشارك الرجال في شئون السياسة ، وتسير معهم إلى ساحات القتال .

وقد اشتهر كثيرٌ من نساء المسلمين وجرت بهن الأمثال ، منهن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها . فأنها كانت ذات عقل راجح ، وعلم واسع ، وكانت حجة في فهم الحديث ومسائل الدين .

ومنهن عائشة بنت طلحة بن عبد الله الصحابي ، فقد كانت ذات عقل ورأى وعلم وأدب ، وكثيرًا ما كانت تجلس في بيتها بالمدينة فيقعد إليها الشعراء ويتشيدون أشعارهم بين يديها فتجيزهم .

ومنهن تماضر بنت عمرو بن الحلوث بن الرشيد الملقبة بالخفساء ، الشاعرة المعروفة لها بالتقدم ، وكانت ذات رأي وصفة ودين ، ومما يدل على نبيلها وفضلها ما كان من أمرها في واقعة القادسية ، وذلك أنه كان لها بنون أربعة ، نفروا في جيوش المسلمين لفتح فارس ، فودعهم وخطبتهم أول الليل فقالت :

« يَا بَنِيَّ إِنَّكُمْ أَسْلَمْتُمْ طَائِعِينَ ، وَهَاجَرْتُمْ مُخَارِبِينَ . وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، إِنَّكُمْ لَبَنُوا رَجُلًا وَاحِدًا ، كَمَا أَنْكُمْ بَنُوا امْرَأَةً وَاحِدَةً . مَا هَجَنْتُ حَسْبَكُمْ وَلَا غَيْرَ نَسَبِكُمْ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الْفَاتِيَةِ (اصبروا وصابروا وربطوا وانقوا الله لعلكم تفلحوا) . فَإِذَا رَأَيْتُمُ الْحَرْبَ قَدْ كَثُرَتْ عَنْ سَاقِهَا . فِيمَسُوا وَطِيسَهَا ، وَجَالَدُوا رَئِيسَهَا ، تَظْفَرُوا بِالْقَسَمِ وَالْكَرَامَةِ فِي دَارِ الْخُلْدِ » .

فلما أَسَفَر الصُّبْح . بادروا مراكزهم . وتعلموا واحداً بعد واحد ، يُكْسَلُونَ
الأراجيز حتى قتلوا عن آخرهم . فبلغها الخبر فقالت :
« الحمد لله الذى شرَّفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يمجى بهم فى مستقرِّ
الرحمة » .

وقد ظهرت قوَّة النساء بأجلى مظاهرها فى أيام الدولة العباسيَّة ، فقد أحرزت
نفوذاً واسعاً . وأثَّرت فى الدولة تأثيراً كبيراً ، اعتبر ذلك فى أممات الخلفاء
العباسيِّين . فقد كانت (الخيزران) أمَّ الهادى والرشيد ، ذات قوَّة يهابها أولادها ،
ويأتمرون بأمرها .

كما أنها كانت أيام زوجها صاحبة الأمر والنهى . ولما تولى ابنها الهادى أرادت
أن تسلك معه مسلكها مع أبيه ، فاستبدت بالأمر دونه . ولم يمحض على توليته أربعة
أشهر حتى كان الأمر كله بيدها . وأخلت المراكب تروح وتغدو إلى بابها . فسامه
ذلك وجرد سيف عزمه وحال بينها وبين التدخل .

لم يكن نفوذ النساء وسُلطانهن مقصوراً على أممات الخلفاء . فقد كانت أم موسى
المهاشميَّة القهقرمانيَّة فى أيام المقتدر ذات دهاء ونفوذ ، حتى لقد بلغ من أمرها أن
تكفَّت مرة بالخلافة لأحد العباسيين من أصحابها ، وأخذت تبذل الأموال للقواد
وغيرهم . ولولا أن وصى الواشون بها إلى المقتدر لأفلحت فيما تكفَّلت به .

مما تقدم لك يتضح جلياً أن تربية المرأة العربيَّة لا تنقل عن تربية المرأة الغربيَّة ، بل
ربما كانت أفضل إليها من حيث الثيرة والعفة والأمانة .

فارجو أن توفِّق المرأة المصريَّة إلى تربية صحيحة . تلو بها إلى مكانتها الأولى من
انمز والسُّودد .

والله الموفِّق لما فيه صلاح الحال . فى الحال والاستقبال .

واجبات المرأة

ينبغي للمرأة أن تعلم علم اليقين أن عليها واجبات لا بدّ من أدائها لتتيم وظيفتها ، وبدونها ينقص شأنها في العلم ، بل تكون كلاً على المجتمع الإنساني .
وتنحصر تلك الواجبات فيما يأتي :

١ - نحو زوجها

عليها أن تشارك معه في حالته . فتقامته سرّاءه . وتُشاطره ضراءه . وأن تكون مطيعة له ، ذات حكمة وتديّر ، لا تيلنر في ماله ، ولا تَحْمَلُهُ فوق طاقته في التَّفَقّات وفي الملابس والزينة الباطلة . وبالإجمال يجب عليها أن تعتدل في جميع الأحوال .
ومن أراد الفصيل فليراجع واجبات المرأة نحو زوجها في كتاب سعادة الزوجين لصاحب هذا المقال .

٢ - نحو أولادها

المرأة مُطالَبة بتعليم أبنائها وبناتها في صغرهم النَّشاطَ والمُهمّةَ والغيرةَ المحمودة . وألا تُلقَى عليهم القصص الخرافية ، أو الحكايات المخيفة التي لا يقبلها العقل السليم .
ويجب أن تعلّم بناتها ما يجب عليهن لأزواجهن وأسرتهن ، وتعلّمهن الأشغال اليدوية التي لا غنى لمن عنها ، وتبعدن عن الكسل ، وتلزيّن على النَّظَر في جميع الأمور المنزلية . وتبثّ فيهن روح العفّة والاستقامة . وأحوال التدبير المنزلي والاقتصاد فكلها أمور واجبة لا يُغنى عنها مال ولا جمال .

وعلى العموم تجبّ فيما يجعلون أهلاً لأن يكنّ ربّات بيوت وأمهات أطفال .
وعليها تعليم أبنائها احترام والدعم وطاعته . واحترام الأهل والأقارب والإخوان والجيران ، ويجب أن تكون والدة شفيقة من جهة . وقاسية من جهة أخرى ، فلكلّ

من الشفقة والقسوة مقام "خاص" ، وكثيراً ما تغلط الأم ، فتحسب أن الشفقة تقضي عليها بترك ولدها يسير على حسب هواه ، يفعل ما يشاء ولو خالف الصواب ، فإذا صدر منه فعل القبيح ، أو كلام غير لائق ، تغض الطرف عنه ، وتعتذر أن قلبها لا يطاق وعملها على تأديبه .

والحقيقة أن قلبها يخدعها . وهذا يضر بولدها ، لأن سكوتها على ذنوبه ناتج من ضعفها وجهلها . وسكوتها على كل شيء قبيح يؤدي إلى فساد الخلق ، وهذا ما يسمى بالشفقة الضارة . أما التأديب فيصالح حال الأولاد ، ويصلحهم رجالاً عاملين نافعين . والواجب على المرأة ألا تتميل كل الميل إلى أحد أولادها وتهمل الآخرين ، بل تسهر على الصغار . وترشد الكبار ، وتحفظهم من مخالطة الأشرار . وتهتم بهم في السنين الأولى من العمر ، وتراعى أخلاق كل منهم وطباعه ، وتوسع أفكارهم بالأمثلة الحسنة . وتكون قدوة صالحة لهم . لأن الصغير يلاحظ دائماً حركات والدته وتصرّفاتنا مع أهل بيتها . وكلامها معه أو مع غيره . ويقتدى بها أكثر مما يقتدى بغيرها .

وعسى أن تعلم بقها أن تخطط لما تحتاج إليه وهي أم ، وتدرّبها على ذلك بمخاطبة بعض ثيابها . لأن ذلك يرعها فيها . ويعودها تدريجياً القيام بياق الأعمال المنزلية .

وحذا الأم التي تقول لبنيتها كما قال إسير طه لبنيه :

« أظهروا أنفسكم رجالاً » . وزينوها بالمقاعد الحسنة التي تعيدكم في سن الرجولة ، فإن عرست مثل هذه الأخلاق في نفوس أولادها وهم صغار جئت تمار تعبها وكبرها وهم كبار . لأن التدين السائر الآن في جميع البلدان ليس إلا نتيجة اجتهاد المرأة وحسن تربيتها . و تصل كل الفضل الأمهات في تربية البنين والبنات .

٣ - نحو منزلها

لتعلم امرأة أن المنزل حسنة هي روحه وحياته . فإذا تغافلت عنه وأملت شأنه عثره ستم ونحسب . وكانت حياته ناقصة .

فتحرص أولاً على صحتها ما استطاعت . فيصحبها تكون صحة الجميع ، وباعتلاها يكون نخل ولاعتلال . ويبقى أن تكون كثيرة الصبر والجلد . فلها إذا رتبت

أحواله ، سهل عليها كل ذلك ، وإذا أشكل عليها أمر من أموره فلتشاور فيه رب منزلها وصليده ، وهو زوجها ، فباشتراكهما ومعاونتهما يكون صلاح البيت وعمرانه .
ولمست سيطرة المرأة في دولتها الصغيرة مقصورة على تدبير المنزل وترتيبه ونظافته بل من ذلك جذب قلب زوجها نحوها ونحو منزله حتى لا يخرج منه ، ويضطر للاتفاق في الخارج ، فتكون الحسارة عليها وعليه . وذلك بأن تزيّن له وجه الحياة بأنماها ووقفة أخلاقها ، وتحلّي لديه عيشة المنزل بجميل طبيعتها ، وحسن صفتها ، فلا تقع عيناه إلا على حسن ، ولا يتردد في آذانه إلا طيب الحديث ، ولا يخلط منزله تبعاً مهموماً إلا وجد ما يزيل هذا ، وذلك بلطف الانقسام .
هذه هي خلاصة واجبات المرأة ، فترجو الله أن يوفقها للعمل بها ، لتصلح حال الأمة المصرية ، وتسعد الأمة بها .

المرأة ووظيفتها

لمناسبة نجاح الأنسة نعيمة الأيوبي في امتحان مدرسة الحقوق ، وحصولها على شهادة (اليسانس) وطلب التحاقها بالمحاماة ، وفوز غيرها من طالبات كلية الآداب بشهادة اليسانس أيضا ، قد تجدّد الكلام في هذه الأيام عن المرأة ووظيفتها ، وقامت طائفة من المنتحيزين للمرأة الجديدة . يهللون ويكبرون بهذا الانتصار الباهر ، ويدّعون أن المرأة المصرية قد بلغت غايتها . وأصبحت تُضارع الرجل في أعماله - ينخرخِر . على أنهم لو أمعنوا النظر قليلا . وبجّخوا مليّا في وظيفة المرأة التي خلّفت من أجلها أرجعوا إلى الحق . وعلّموا أن هذا خروجٌ منها عن حدود وظيفتها . كما سنبيته بالأدلة الآتية :

الدليل الأول

قال حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا في كتاب تربية المرأة في باب وظيفة المرأة في الصحيفة رقم ١٧ ما يأتي :

إن المرأة أضعف من الرجل جسديا وإدراكا .
أمّا جسديا . فلكونها معرضة للوارم الأنوثة . وهي (كما هو ثابت) أمراض تنهدّ القوي . وتضعف البنية بشهادة الأطباء .
وأما إدراكها فلكونها بحكم وظيفتها من تدبير المنزل . وتربية الأطفال والتحفّظ عنهم . غير معرضة مثل الرجل لمتاعى تنمية القوّة الإدراكية . فتكون النتيجة اللازمة لكل هذه التقدّمات . أن المرأة لا تسوى الرجل في كل حيتية إنسانية .
وجاء في الصحيفة ١٩ : إن الله خلق المرأة للملاذّ الدنيوية . وحفظ الشؤون المنزلية ، وإنه لم يحقّ النساء لمقاومة الرجال . ولا للأراء والسياسات ، ولو شاء لأعطاهنّ شجاعة والعزيمة . والقنوة والتهامه . مع أن الأمر بخلاف ذلك .
واو أرادت المرأة أن - تلك مسائل الرجال . وتتعوّد على تحمّل تقيل الأعمال نيذ . وفي الرجل في جميع أحواله . وتضاهيه في أقواله وأفعاله ، أفلا يكون ذلك منها

خروجاً عن الوظيفة التي خصها بها الله سبحانه وتعالى ؟ لأنه كما أن نظام الكون ومساعدته
 حصياً بأن يخلق الناس أطواراً ، وبأن أعمال الرجال يجب أن تكون مقسمة بينهم ،
 وبأن يكون لكل منهم وظيفة مخصوصة يتقطع لما فيقنها ، فطائفة السيادة . وطائفة
 للسياسة ، وطائفة للعلم ، وأخرى للباس والتجارة . كذلك أراد الله أن يكون لكل
 من صنئ بني الإنسان ، ولكل من (المرأة والرجل) عمل مخصوص لا يتعداه ، وإلا
 حصل الخلط والتشويش ، وبمجموع عليهما تم السعادة لكليهما .

الدليل الثاني

قال المرحوم الأستاذ الفاضل الشيخ عبد العزيز جاكوش . مفكش أول اللغة العربية
 بوزارة المعارف ، في المحاضرة التي ألقاها بمدرسة الصنائع الفنية بشبرا ، ونشرت
 خلاصتها بمجلة اللواء في ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ ما يأتي :

نعم ، إن الله خلق بين الرجل والمرأة بعض فروق في أصل خلقتهما . فيينا نرى
 الرجل شديداً ، قوياً صبوراً . ذاهمة ونشاط . لأنه منوط بتحمل المشاق واقتحام
 الأخطار واجتياز العقبات التي تعرضه في سبيل الحياة ، والدفاع عن شرفه وعرضه ،
 وحاله وحرية . بالدود عن بلاده ، وصدق جهاده . نرى المرأة ضعيفة الجسم ، رقيقة
 الطبع ، سريعة التأثر والانفعال . وذلك لمناسبة أشغالها التي (تنحصر) في تدبير المنزل ،
 ورعاية الأولاد .

فاذا مرض زوجها أو ابنها . فلا تلوق للنوم طعاماً . وتلبت بجانبه ساهرة ترأعيه
 وتواسيه ، وتعني به هالعة جازعة ، دامة العين . منقطرة القلب .

انظروا إلى الأم ومركزها . تجلوها مع اشتغالها بتدبير المنزل . أستاذاً أولاً
 لأولادها وعائلتها ، بل للأمة بأسرها . فهي التي ترضع أولادها مع ألبانها المبادئ
 للتربية ، والأخلاق المرضية .

وتعلمهم الكلام والمشي والاعتماد على النفس . وكل ما يلزمهم في دور طفولتهم ،
 فهي على أمها إماً ملك كريمة . أو شيطان رجيم . والفرق بين الحالين ينحصر
 في درجة تربيتهما وعلمهما .

فاذا كانت الأم متعلمة . ذات أخلاق سامية . وآداب عالية ، عارفة ما لها
 وما عليها من الحقوق والواجبات . شب ولدها يميل الحاصل ، متعوداً لأجل الفعّال ،

مطلباً لجمال الطباع وأكرمها . بما يفرس في قلبه ، وينعكس في صورة أخلاقه ،
كما يكون بأش من هذه المزايا والصفات .

فهى التى إن شامت جعلت من ولدها رجلاً شجاعاً ذا شيم وإباء ، ونفس لا تقبل
الضم . طمّاحة للعلا والسؤدد . والرقى بإنماء هذه الخصال في نفسه ، وإصلاح
ما تراه منها في حاجة إلى الإصلاح .

وترى منه الأم بعد ذلك ساعداً قوياً ، وخداماً أميناً ، وعضواً نافعاً ، عاملاً
على رقيها وفلاحها .

إلى أن قال :

وليس المقصود بتعليم المرأة اقتصرها على معرفة القراءة والكتابة والحساب ، والتكلم
باللغات الأجنبية ، بل المراد منه أن تعرف ما يجب عليها لزوجها وأولادها وذوى قرابتها
وسائر الناس ، فلا تبدى زيفها إلا لبعله . كما يجب أن تحافظ على سمعته وشرفه ،
ولا تنثر فرصة عيابه في أشغاله للتجوك في الطرقات . وكفى الشوارع بديل رداها
الطويل . إلى غير ذلك مما هى أعلم به منّا ؛ ولا تفتح نوافذ البيت إلا لتجديد الهواء ،
فلا تستخذها أبراجاً تنقل فيها ، مشرقة على الرجال لإغرائهم وإغوائهم ، ولا تهمل
شأن أبنائها في إرضاعهم من تديبها والاعتناء بهم وملاحظتهم في لعبهم ولهمم الخ ، مما
هو معلوم ومشهور .

ثم تأخذ بعد ذلك في معرفة العلوم المختصة بحياتها المنزلية . كالخياطة ، والطبخ ،
وترتيب الأثاث . ومبادئ الطب المنزلى . حتى يتسنى لها القيام بالإسعافات الضرورية
عند ما يعصّب خدامها أو أحد أبنائها جرحاً أو ألم . فلا يحتاجون إلى دعوه الطبيب
للصغيرة والكبيرة . ولا إن تمرضة نمت أكثر منها حناناً وشفقة على أولادها .

هذا خلاصة ما قاله المرحوم الشيخ ساموس . وفيه حدّد وظيفة المرأة وأعمالها ،
وهو يتفق مع آراء صاحب السعادة طلعت حرب باشا المذكورة في الدليل الأول .

وإليك ما قاله الفيلسوف الألماني الشهير (إرشر شوبنهاور) في كتابه : كلمة على
إنشاء . تعريب المرحوم صبرى حسن بك وياض المطبوع سنة ١٩٠١ في صحيفتى

٨ - ٩ :

« إن شكل امرأة وحده لكافٍ في الدلالة على أنها لم تخلق لطيف الأفعال العقلية .

ولا لجسيم الأعمال اليدوية ، وألا نصب لها في حياتها غير مقاساة مقام الحمل وآلام الوضع ، وعناء القيام بترية الأطفال ، وأنها دائماً مضطرة لأن تخضع لرجل تعيش معه رفيقة صابرة ، تهيئ له ما لذ وطاب من الطعام والشراب .

« وكما أنها لم تخلق للكذب والتصب ، كذلك لاقترة لها على تحمل شديد الحزن والترح ، ولا مزيد السرور والفرح ، إنما يمكنها قضاء حياتها في سكون وعزلة ، وجعلها حياه طيبة أرغد من حياة الرجل بدون أن تكون بالطبيعة غاية في الهناء ، أو متدنية في الشقاء .

« واللى يجعل المرأة كخو للقيام بترية الأطفال ، أنها مهما قضت من العمر ، فهي في جميع أطوار حياتها كالياض ، وسطاً بين النائي في ضمعه ، والقي في قوته ، لا تخرج عن حد طفوليتها ، ولا تفر عن مصاغرها ، وأبسط دليل على ذلك مشاغلها وهي صائغة طول يومها ، تحمل طفلاً في يديها ترقصه وتغني له ، ولا نجد من الرجال بين العالم أحداً يقدر على القيام بعملها هذا مهما عظمت قوة إرادته .

الدليل الرابع

انظروا إلى ما جاء بمريدة الأهرام الغراء في ٢ يولييه سنة ١٩٣٣ تحت عنوان :

« الحكومة الألمانية ومكافحة البطالة »

(برلين في أول يونيو) لمراسل الأهرام الخاص :

« وافقت الوزارة أمس على القانون الجديد الخاص بمكافحة البطالة ، ويتضمن برنامج النازي : إعادة النساء إلى دوائرهن الصحية ، وإتقاص الضريبة على أرباب العائلات اللين يستخمنون الخدم . ولكي تشجع الحكومة جلّ الشبان على الزواج ، قرّرت أن تقررّس الزوجين عند قرانها مبلغاً لا يتجاوز ألف مارك لشراء أثاث منزلها ، على شرط أن تتعهد الزوجة ألا تقبل عملاً ما دام زوجها يكتسب ١٢٥ ماركاً في الشهر على الأقل .

يُستدلّ من هذا التلغراف أن حكومة ألمانيا حدّدت وظيفة المرأة في دوائرتها الصحية ، وهي العمل بالمنزل ، واشترطت عليها ألا تقبل عملاً آخر ما دام زوجها قادراً على الكسب ، ولهذا قرّرت إعادة النساء إلى دوائرهن الصحية وعدم مزاحمة الرجال في أعمالهم .

بناء عليه

ليس للمرأة أن تتطاول إلى أعمال الرجال وبالعكس ، إنما ينبغي لها أن تشتغل بوظيفتها التي لا تقل أهمية عن وظيفة الرجل بالنسبة إلى الهيئة الاجتماعية : أى أنها تقتصر على العناية بتنظيم بيتها . وتربية أولادها ، ورعاية زوجها . كما أنه على الرجل السعى وراء معاش أسرته . وتسهيل راحتها . وحسن رعايتها . فللمرأة من جهة مساعدة للرجل . والرجل من جهة أخرى مُدافع عنها وحاضماً ذمارها .

فإذا أرادت المرأة أن تتطاول إلى أعمال الرجال فهي كما ثبت بالأمثلة القاطعة ليست معدة لذلك جسدياً وعقلياً . كما أنه لا يخطر ببال الرجل أن ينحرف عن مركزه الطبيعي لمزاولة المرأة في عملها . الأمر الذي لو أراده لما استطاع إليه سبيلاً .

وخلاصة النصح للمرأة أن تجعل همها الاجتهاد في تدبير أمور منزلها ، وتربية أولادها على المبادئ الدينية الصحيحة لتكسبهم في المستقبل مقدرة على القيام بالأعمال ، وأن تبعد عن أفكارهم الخرافات . ومطالعة القصص والروايات التي إذا تأصلت في نفوسهم . قلماً يزول أثرها . ويكون نفعها أقل من ضررها .

ويكفي المرأة فخراً وشرفاً حسن قيامها بتدبير شؤون البيت ، وتربية الأولاد ، وخدمة الزوج . فبذلك يكون لها حقيقة المركز الأول في الهيئة الاجتماعية . والله يتولى شؤون العباد فيما أراد .

وظيفة المرأة

وسيت المرأة . هي أن تقوم بترتيب وتكميل الحياة الداخلية للأسرة أولاً ، وأن تعمل على تكميل الحياء العامة الخارجية وتهذيبها ثانياً ، بدون أن تنزل في ميدانها ، فتشارك الرجال فيها . يقيناً ليجب أن في هذا ما يحيط من قدرها ، ويقضى عليها بالحياء والنزول . وحرمانها قسطها في الحقوق الإنسانية . ولكنهم في خطيئ مبین .

نحن نقول . ونكرر القول بأن وظيفة المرأة ، هي أن تعنى بالحياة الداخلية ، وأنها لا تستعمل بالتشؤود الخارجية إلا بحد ما ياسب طبيعتها ، ولا يسمع لها بالخروج عن دائرتها . ولا تقود هذا القول حزاماً . بل بما تعامه من طبيعة المرأة ، وأنها لم تخلق من أجل الدنيا . ولا جميع الأعمال العقلية . وإدراكنا لما يقيسه عملها من

العناية الكبرى ، فان أمكنها أن تؤديَ وظيفتها العائلية ، وبعض الأعمال الخارجية فلا نرى مانعاً من الاعتراف لها بحق الاشتغال بهذه الأعمال .

نضرب لذلك مثلاً :

امرأة متعلمة متزوجة ، وليس لها أولاد صغار ، فتل هذه الزوجة لانتمها من الاشتغال بوظيفة التعليم في مدارس البنات أو الأطفال الصغار . ولكن يجب ألا يُشغَلها تحضير دروس الغد ، وتصحيح كراسات التلاميذ عن القيام بواجب زوجها . وموانسته وتجديد قوته وعزمته ، وتحبيب المنزل إليه . بما تجتهد في إيجاده . مما يُنزل السكينة في قواده ، ويشرح صدره ، ويؤكد عقيدة الزوجية ويكملها . كذلك يجب ألا تشغلها الدروس عن ملاحظة توافر شروط الصحة والنظام وقواعد الاقتصاد في المنزل .

فاذا ما شغلها الدرس عن شيء من ذلك (وأمثاله كثيرة) فانها تأثم لتركها وظيفتها الطبيعية لوظيفة غير طبيعية .

فاذا كان لها أولاد صغار كان لثَمها أعظم لشدة ما يحتاجه الأولاد الصغار من مراقبة أهمهم ذكورا كانوا أو إناثا .

وكيف تدرس الأم طبائع قومهم ؟ ومتى تنفرغ لذلك إذا كانت بالنهار في حلقات الدرس ، وبالليل في البحث والتفتيش في الكتب ، وتحضير درس الغد ، وتصحيح كراسات التلاميذ ؟ ثم إنها تكون مجرمة حقيقة إذا اشتغلت بالأعمال الخارجية وهي حامل . فاذا فعلت ذلك اضطرابا كان المجتمع بأسره مجرماً من دونها .

إن من يعلم حقيقة ما تتطلبه وظيفة المرأة من العناية والضرغ . لاسيا الزوجات ذوات الأولاد ، لا يستطيع أن يبيع لها الاشتغال بأعمال الحياة الخارجية .

كما أن من يعرف طبيعة المرأة ، وأنها شديدة الثفور ، قوية الوجدان . يكاد قلبها يستعصى على عقلها ، لا يبيح لها أن تتعرض لأشراك شياطين الإنس . ولما يعكّر مزاجها أو يتلطم شعورها .

إن المرأة ينبغي أن يكون في استطاعتها أن تنشئ أبناءها وبناتها نشأة طيبة صالحة . وأن تشير على زوجها بالآراء الصائبة . وأن تجتهد صبره . وتشجعه على اقيام بعمله . وتقوى عزيمته . وتقيه غائلة الحزن واليأس . حتى إذا دخل بيتها في أمه . وقد أتته التعب قواه . ومسه سيطان الكآبة . وغامرت قلبه وساوس الملل . خرج من بيتها

يمكّر ، وقد امتلأ قواده قوةً وقشاشاً ، وانتششت نفسه سروراً وطرباً ، وأقبل على عمله بكل حمّة وشجاعة .

إن مثل هذا الرجل يصعب عليه جداً أن يعمل ما يمكّر صفو هذه الحياة السعيدة ويصدّر عليه أن يسما بسوء ، لأنه يجد زوجته على أحسن ما تكون من الأخلاق الوديمة والمعاملة الحسنة ، وتبدو له ذات جلال واحترام .

فاذا كانت هذه هي وظيفة المرأة العاقلة ، فهل يُعقل أن يكون حُسن أدائها ، وتفرغها لها علامةً على احتقارها ودقاعة مركزها في العائلة أو في المجتمع الإنساني ؟ حاشا وكلا ، إن من يقول ذلك هو في جنون ، بل في جهل مطبق بمعرفة وظيفتها ؛ على أن قاعدة التضامن في الحياة في تقسيم العمل توجب على الزوج والزوجة أن يتعاونوا كلٌّ في دائرة وظيفته على تربية أبناء وبنات اليوم (رجال المستقبل ونسائه) أو قل تربية الأمة بأسرها .

إن مثل من يرى في تخصيص المرأة بالعائلة تحقيراً لها ، كمثل من يرى أن في تقسيم وظائف الجنسانية بين مُشاةٍ وراكبين ومجاهدين حيلةً لفريقٍ دون فريق ؛ أو أن أخذ فريق من الأمة للجهاد الحربي هو انا للمجاهدين ، مع أنه لاسيّل إلى نظام الحياة الاجتماعية أو القردية إلا بتقسيم العمل .

وبناء على ذلك ، فليس في العائلة سيّدٌ ومسود ، أو رفيعٌ ووضيع ، وإنما هو محض تعاون وتضامن في السعى إلى الغاية العليا ألا وهي لإبلاغ الإنسانية كلها وسعادتها . وإذا فاق قائل : لمن تُعطى الرياسة في العائلة ؟ فالجواب عن ذلك سهلٌ بسيط ، تُعصى لرياسة الرجل . لأنه مكلفٌ كفاية احتياجات بيته ، واشترآكه مع المرأة في تربية أولاده من جهة أخرى . بدليل قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)

وفنون تعالى (ولرجال عليّين درجة) أي منزلة رفيعة .

ونيمت المرأة كما يدعى البعض خادمةً للرجل ، ذليلةً في بيته ، ولكن لتؤدي وظيفتها الإنسانية أحسن أداء . وتسمى لما فيه سعادتها وسعادة العائلة ، بل سعادة الأمة بأكملها .

نسأ الله أن يوفقها معرفة حقيقة وظيفتها . ويعينها على القيام بأدائها أحسن قيام .

صفات المرأة الفاضلة

إذا أردت معرفة المرأة الحكيمة التي تُبَلِّغُكَ ذروة الرغد والحبور . وتندّر عليك مناهل الخيرات والبركات ، وتريك طرق الهداية وسبل السعادة . فاعلم أنّها هي التي بآدابها وكألفا تصون نفسها ، وتحفظ عفافها ، وبمُحَسَّن تربيّتها وعلوبة كلامها ، تضبط طياشة أولادها ، ويعواطف حنوّها ووداعة أخلاقها ، تطفى نار غيظ قريّنها ؛ ويلطفها واحتشامها تسوس خادمايتها وخادميها ، وبمحْكمتها ترفع علم السّلام فوق رموس الأنام . تلك المرأة التي ما تدرّعت بدرع العلم والآداب ، إلا لتريك حقيقة الحياة ؛ وما تسلّحت بالطّهر والحياء إلا لتسقيك راح المسيرة والهناء . تلك التي تعرف جيّدًا أنّ أحسن جزاء لها ، وخير مكافأة لمثلها هو أن تقدّم في كل يومٍ من أيام حياتها مثلاً حسناً لبنتائها ، ليقتنين بها يوم يُعهد إليهنّ زمام الإدارة المنزليّة . تلك التي تبذل ما في وسعها لتُعين زوجها على الزّمان ، وتبذلُ جهدها سعيًا وراء ترتيب المنزل ودوام النّظافة وحُسن تربية الأولاد على نظام الطّاعة ومحور الآداب ، لينشرح بذلك صدره . ويطيّب بنتائج خاطره ، وهي تشغل آناء الليل وأطراف النهار . لا بالزينة وبهرجة الأزياء . بل بما يجعل الزوج عند ما يدخل البيت مع ضيفه شاهداً على فضلها وكألفا .

تلك التي لا تنفل طريقة عينٍ عن واجبات المرأة الصالحة نحو رَجُلِها وأولادها وبيتها . ولا تطلب أجراً أو مكافأةً على أفعالها الدائمة . إلا الانعطاف عليها بنظرة الولاء والإخلاص . ولقنة الحنوِّ والمحبة . وعين الشكر والرضاء ؛ تلك التي بلطفها واحتشامها تُقاسم بعلها العسر . ونجبر مع كتوس التّوائب بقلب طاهر . ونيّة صافية . وضبير مخلص . فان مرض يوماً اعتنت بمعالجته . وتألّت لأوجاعه بلا امتنان . وبكت لبكائه بلا ضجر ولا ملال مهما طالّت العلة واستفحل المرض ، تلك التي تسهر على أطفالها بكلّ هدوء وسكينة وصبر . ولا سباً إذا مرض أحدهم . فانها تقضى سواد ليلها بجانبه طالبةً له الصّحة والشّفاء . حالة كون زوجها غارقاً في بخار النّوم . متمتّعاً بلذّته . ولا يدرك كل ما في فؤادها من القلق والشّجون .

تلك التي تقدّر الأشياء حتى قلرها . وتعرف كيف تدعو الخدم والحشم إلى احترامها . وضبط أشغال بيتها بلا نزاع ولا خصام . يزريان بها ، أو يحطان من مقامها حتى إذ أخرج أحدهم من دائرة خدمتها ، لا يتقلّ عنها إلا كل حسن ومنايح ، وهي تصمّ آذانها عن كل ما تسمعه من جيرانها وأنسابها من الوشاية وغيرها . ولا تلصق إلى القليل والقال . محافظة على الشرف والكمال .

هذه هي صفات المرأة الفاضلة التي يجد معها الرجل الراحة والسعادة ، وتنتشر بين العائلة علم الاتحاد والسلام . وتربط الهيئة الاجتماعية برباط الحب والوثام ، تولّد في جنتان رجلها آمال السعادة ، يوم يشعر بثقل حملها ، وتشدّ قواه ، وتنبه عزمته بحسن الرجاء . وحمل العزاء حينما تجده معسوراً ، وتبثّ في نفسه روح الهناء والسرور عند ما تراه مقبلاً وهو من الدهر كتيب . ومن مكافحة الأيام ومعاركة الأشغال حزين . وهي التي لاتنصّب يوماً أمام المرأة . وتشغل بصف الشجر وشدة الصبر ، وجرة الليل ، إلى غير ذلك مما يفخر به بعض النساء اللواتي لاهمّ لهنّ إلا الاشتغال بأنواع المتلذذات والأزياء ، ولقد أصاب من قال :

وأعظم نعمة من فضل ربّي على الإنسان لامرأة حكيمة

وأعظم نقمة بين البرايا على الإنسان لامرأة ذميمة

فاذا عرفت ذلك أيها الرجل . أوجبت عليك الحجة الإنسانية ، والنخوة الأدبية معاملتها باللطف والحلم ومكارم الأخلاق ، كما تريد أن تعاملك هي ، فتمتعان بشعر الراحة والهناء . وتقضيان العمر بالسعادة والرخاء .

واعلم أن المرأة الفاضلة التي شرحت لك صفاتها . هي شريكك في الحياة ، وقاعدة بيتك وأساس راحتك . والحكيمة في أمر معيشتك . إذ لاتطلب منك فوق طاقتك ، ولا تكلفك أكثر مما في استطاعتك . لأنها تعتبر الزواج سرّاً مقلماً ، وتتخذ مقام فضله وطهره وأدب وكال ، كما يعتبره الرجل العاقل الذي لا ينجث بعمده ، ولا يخلّ بنظامه . بحيث يكون على اللوام بشوشاً ضحوكاً لدى دخوله بيته ، ومقابلة زوجته ومحادثتها بأخباره . ليكون الاثنان على ثقة تامة من بعضهما .

والحكيم من لا يضرب عليها ستوراً . أو يجعل الخلود لها قبوراً ، ما لم يكن ذلك

بشريته مسطوراً ، وأن يمنحها سلطاناً مطلقاً على بيته وأولاده ونجدته ، ويردّ على
مسامعها أمثال الفضائل ، وما ينجم عن القبايح من المآثم والردائل ، وألا يجعل
خضوعها بحكم الاستبداد والاعتساف ، بل يروح الولاء والإنصاف ، ولا يرضى عليها
بالمال . ولا يخط من قدرها ، ولا يخصها أشياءها ، ولا يخالطها أمام الأولاد والخدم
ولا يمتنع عنها سرّاً ، ولا يعاتبها جهراً .

ومنى قلّدتها بحكمتك قلّدت الحسان ، تجدها كلاك في ثوب إنسان .

وقد أحسن من قال :

إنما المرأة مرآةٌ بها كل ما تنظره منك ولك

فهي شيطانٌ إذا أفسدتها وإذا أصلحتها فهي ملاك

المحاضرة الخامسة :

عفاف المرأة تاجها

ملحوظة : ملحق بالمحاضرة الثالثة عشرة . من المحاضرات الخاصة بالرجال
عن العفاف وأقسامه

العفة وإن كانت لازمة للرجل ، فهي للمرأة ألزم وأوكد . وكانا مشتركين فيها .
وسبب ذلك أن عوائد جميع الأبلاد وطوائع جميع المدن ، وعُرف أرباب السياسة
والدول والمال . كل ذلك يقضى بأنه لا يليق من النساء إلا كمال الصيانة والعفة .
وساوك سبيل الحياء أكثر مما يطلب من الرجال .
ففي الحديث الشريف « إن الله إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء » : فإذا
نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً .

وقال عليه الصلاة والسلام « إن لكل دين خلقاً » . وخلق هذا الدين الحياء ، .
وقال الشعبي : حلية الرجال السباحة والفصاحة . وحلية النساء العفة والقناعة .
فالمرأة هي خلعتوب الحياء . فكأنها تنازلت عن ساوك سبيل العفاف والصون ،
لأن خلعتوب الحياء منها علامة قوية على خلش الأمانة التي يترتب عليها من العواقب
المؤلمة ما لا يقوى على كس عاقل .

فإن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته الربانية . وضع النسل في بطون الأمهات
فلا تهب النساء هناك حرة . هذا التمسب . فإذا تخلت المرأة عن العصمة ونهاون
في عريص . فترتبت لآسره ما ليس منها . فلا تكون أعضاء الأسرة في الواقع
ونفس الأمر بينهم شرة حقيقية . يبنى عليها صدور الحجة بينهم . بل يكونون في الحقيقة
أعداء متكاملين . من عدائهم كلمة . فهي في الحقيقة تكون قد أدخلت في الأسرة
عدو في باب صديق .

• وفي قوله عز وجل : « وما يربوهم » : يتنموا تربيتهم . والسلاح الذي تدافع به عن
سرف وكسر . به عزهم : تخوة عن الرجل .
وعدمه . كمن أهدى ضييع في المرأة . فكل الوسائل التي تتخذ فيها باطاة

كما قال أحد الأدباء : العفاف الحقيقي لا يحتاج إلى حارس ، ولا يدعو إلى وضع المرأة بين جدران أريكة (حيطان) .

فاذا كانت المرأة عفيفة بالطبع والإرادة . استطاعت أن تقي نفسها طيش الأهواء وعى الحب .

هكذا يكون العفاف مرشدها في طريق الفؤاية ، ومصباحها في الظلام . وعنوان شرفها وقضيلها مدى الأيَّام . وأساس سعادتها وسعادة أسرتها في المستقبل .

وعفاف المرأة في الأسرة . هو الركن الأول الذي تتوطد عليه دعائم التربية . والسبيل الأقوم الذي به تصل الفضيلة وحسن التربية إلى قلوب البنات والبنين .

أمثلة من عفاف المرأة

١ - المرأة العفيفة :

قدم امرأة مكة وكانت من أجمل النساء ، فيينا عمر بن أبي ربيعة يطوف إذ نظر إليها ، فوقع في قلبه ، فدنا منها فكلَّمها . فلم تلتفت إليه .

فلما كان في الليلة الثانية ، جعل يطلبها حتى أصابها . فقالت له : إليك عنى يا هذا . فأتاك في حرم الله ، وفي أيام عظمة الحرمة . فألح عليها بكلِّها حتى خافت أن يُشهرها .

فأما كان في الليلة الأخرى قالت لأخيها : اخرج معي يا أخي فأرني المناسك فإني لست أعرفها . فأقبلت وهو معها . فلما رأها عمر أراد أن يمرض لها . فنظر إلى أخيها معها . فعملت عنها . فتمسكت المرأة بقول النابغة :

تعنو الدثاب على من لا كلاب له وتتنى صولة المستميد الحامى

فلما بلغ أمير المؤمنين (المنصور) هذا الخبر قال : وددت أنه لم تبق فتاة من قريش في خلدتها إلا سمعت بهذا الحديث . فأنعم بها من امرأة عفيفة .

٢ - مثال لعفة ليلي الأخيلىة :

هى لبللى بنت لكيز بن مرة بن أسد بن ربيعة بن كلاب . وكانت أصغر أولاد لكيز . فنشأت في حجره . وترعرعت في أحضانها . وكانت تامة الحُسن كثيرة الأدب .

خطبها كثير من سُرّة العرب . منهم عمر بن صهبان من أبناء ملوك اليمن .
 وكانت ليلي تكره أن تخرج من قومها . وتودّ لو أن أباهَا زوجها لبراق بن رومان
 ابن عمها ، إلا أنها لم تعص أمر أبيها وصانت نفسها من البراق تعففاً ، فلقبت بالهففة .
 وكانت في أثناء ذلك حروب بين بني ربيعة وقبائل طى وقضاعة ، أبلى فيها البراق
 بلاءً حسناً ، ثم خلدت الحرب . وآن وقت زفاف ليلي ، فسمع بخبرها ابن كسرى
 ملك المعجم ، فأراد أن يخطبها لنفسه . فكن لقومها في الطريق ونقلها إلى فارس ،
 فبقيت هناك أسيرة لا ترضى بزواجه إلى أن انتزعها البراق من غاصبيا ، واستحق أن
 تزوّج بها .

وَمَا ضَيَّقَ عَلَيْهَا الْمَعْجَمُ وَأَدَانُوهَا لِتَخْضَعُ لِإِرَادَةِ مُلْكِهِمْ ، جَعَلَتْ تَسْتَصْرِخُ
 بِالْبَرَاءِ وَيُخَوِّتُهَا قَالَتْ :

لَيْتَ الْبَرَّاقَ عَيْنًا فَرَى مَا آلَقَ مِنْ بَلَاءٍ وَعَنَا
 يَا كَلْبِيًّا وَعَقِيلًا إِخْوَتِي يَاجَنِيْدَا سَاعِدُونِي بِالْبُكََا
 عَذَّبْتِ أَتُحْكَمُوْا يَا وَلِيَكُمُْ بِعَذَابِ النُّكْرِ صَبِيحًا وَمَسَا
 غَلَّوْنِي قِيلُونِي ضَرَبُوا مَلَمَسَ الْعَفَّةِ مِنِّي بِالْمَصَا

إِنْ أَنْ قَالَتْ :

يَا بَنِي تَغْلِبِ سِيرُوا وَانصَرُوا وَذَرُوا الْغَفْلَةَ عَنْكُمْ وَالْكَرَى
 احْلُزُوا الْعَارَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَعَلَيْكُمْ مَا بَقِيَتْ فِي الدُّنَا
 فَلَمَّا بَلَغَ بَنِي رَبِيعَةَ قَوْزَ لَيْلَى هَذَا . اسْتَغْزَمَتْ الْحَمِيَّةَ وَخَنَقَتْهُمُ الْعَبْرَةَ ، وَسَارُوا
 جَمِيعًا نَحْصَةَ لَيْلَى إِلَى أَنْ أَظْفَرَهُمُ اللَّهُ بِمَطْلُوبِهِمْ .
 فَانْظُرُوا إِلَى عَفَافِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْأَعْرَابِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَقْرُطْ فِي عَرْضِهَا حَتَّى لِأَوْلَادِ الْمُلُوكِ ،
 وَقَدْ صَوَّبُوا إِلَيْهَا السَّهْمَ . وَزَوَّاهَا الْمَوْتَ التَّوَّامَ .
 فَهَكَذَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ الْهَفِيفَةُ . وَهَكَذَا تَكُونُ الْعَفَّةُ الَّتِي نَرْجُو أَنْ تَتَمَسَّكَ بِهَا الْمَرْأَةُ
 الْمَصْرِیَّةُ لِتَكُونَ مِثْلًا لِلْفَضِيَاةِ ، وَعُرَانًا لِلشَّرَفِ .

العفاف تاج المرأة

كتب نيبوليون إلى زوجته جوزفين :
 نهى ابن أيوه كتابك الذي تلوينني فيه على ذم النساء ، والحق يقال إنه أكره

المرأة الدساسة المُنافقة ، لأننى اعتدت عشرة النساء الصالحات ، الطيّبات القلوب ، وأنا أحيان من صميم قواذى ، لأنك بصلاحك وطيب قلبك علمتني الحب كيف يكون .

لنك لتعلمين أننى عفوت عن رجل مذنب من أجل امرأة فاضلة ، لأننى لما رأيت (مدام دى هانز فيلد) وأريتها رسالة زوجها ، اندفعت تبكى وتنتحب ، وقالت بصوت الحزن والألمى : إن هذا لاريب خطئ بئانه ، فوصلت تلك الكلمات المؤثرة إلى قلبى وقلت لها : إذن يا سيدى أفلق بهذه الرسالة في النار فلا تبقى لدى حجة على زوجك ، فأحرقها واستعادت راحة قلبها ، لأن زوجها نجما مع أنه كان قبل عفوى على حافة القبر . وأنت ترين من هذه الحادثة يا جوزفين ألى أحب النساء الطيّبات البسيطات المخلصات إكراماً لك .

العفة والأمانة

إن عفاف المرأة هو الجوهر الذى تقوم به تربيتها . والسلاح الذى تدافع به عن شرفها وكرامتها . وهو عندما بمثابة القوة عند الرجل .

وعفاف المرأة في الأسرة ، هو الركن الأول الذى تتوطد عليه دعائم التربية ، والسبيل الأقوم الذى تصل به الفضيلة إلى قلوب البنات والأبناء ، ولا فرق في أن يكون العفاف في الأم فطرياً أو اكتسابياً لينتقل إلى نفوس بناتها . فينشأ معه قويات الإرادة ، عزيزات النفس . ويتخذنه دليلاً للصادق الأمين في طريق المستقبل . حيث تسير الفتاة غالباً مدفوعة بقوة الوهم . مجنونة بتيار الضعف النفساني ، فإذا كانت عفيفة بالفطرة والنشأة ، استطاعت أن تقي نفسها طيش الأهواء وعى الحب . هكذا يكون العفاف سنداً في الضعف . ومرشداً في الفؤاية . ومصباحاً في الظلام ، وزينتها مدى الأيام . وأساس سعادتها وسعادة أسرته في المستقبل ، ولا يتم للزوجين سعادة في الحياة ، ولا يهتأ لهما عيش إذا فارقتهما فضيلتا الأمانة والعفاف .

فإذا لم تكن المرأة أمانة على عرضها ومال زوجها ، وحريصة على شرفها . وما بين يديها من كسب رجلها ومقتضلة فيه ، أو كان الرجل معرضاً عن زوجته ،

سالكاً سبيل الفنى والفساد . فقد ساءت حال الدار ووقع فيها الشقاق ، وأحاط بسكانها
البلاء والشقاء .

وما زلنا نعرف الأمانة والعفة على دار إلا وأكسبنا السعادة والهناء .

والأمانة المفروضة على كل من الزوجين . تشمل المحافظة على الأموال والأرواح ،
وصيانة الأعراض والأنساب . وهى نتيجة روابط الزوجية ، فإن عقد الزواج يفرض
على كل من الزوجين الأمانة . بحيث يعد كل تقصير من أحدهما فى تأدية حقوق
الآخر نقصاً لههد الزوجية . وخروجاً عن حدودها .

أما العفة فجزء من الأمانة بين الزوجين ، وهى فضيلة دقيقة تقضى على كل من
زوجين أن يصون عرضه عن الانتهاك . وأن يحرص على علاقة الزوجية ، حرصاً
يبعد عنها عن كل دنس . ويصونها من كل سوء . ولا يدرك معنى الزوجية إلا بهذه
التفضية التى هى أساس روابط الجمعية الإنسانية ، لأن ازواج الحقيق لا يتم إلا
باحتصاص كل من الزوجين بالآخر . ولا سبيل لى ذلك الاحتصاص إلا بسلك
سبيل العفة .

وفى انتهاك حرمة العفة هدم امساج الأنساب . وفى هذا من الشقاء والبلاء ما فيه .
والزوجان على السواء مطالبان بتأدية هذه الأمانة . وسلك سبيل الحياة المعطى
أمانة الحرس على الأعراض .

غير أن المتعارف أن المرأة مضالبة بذلك أكثر من الرجل . لأن الطبيعة اختصها
. بحافظة على الدمل فى نفسها .

فى اخلاص شريف ، اخفاء حسن . ولكنة من المرأة أحسن .

ولا عيب من نعوب النفس والجسمية نصيب ههنا الزوجين . ويتذهب بمعادتهما
ويحمو عصبتهما . كحداثة المرأة لرجل فى نفسها . فخير ما يصبر إليه الرجل فى زوجته
عرفه . نى هو صلاحه .

وقد أشارتة نرى لى وجوب العفة والى فى كتابه العزيز فقال :

(قُلْ الْمُؤْمِنِينَ يَنْفُسُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ
إِنَّ لَهُمْ خَيْرَ مِمَّا يَحْتَسِبُونَ . وَعَلَى الْمُؤْمِنَاتِ يَنْفُسْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ . وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ . وَلَا يَسِدْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا . وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى
خُصْرِهِنَّ) .

وهناك أحاديثٌ شتى في الحث على التمسك بأهذاب الحياء .
 منها قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُبْطِلَ عَبْدًا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ »
 فإذا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيئًا ، أَيْ عَمُوتًا عَقْرًا عِنْدَ النَّاسِ .
 وقال أيضا :

- ١ - « إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا ، وَخُلُقُ هَذَا الدِّينِ الْحَيَاءُ » .
- ٢ - « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْخُلُقَ الْحَلِيمَ ، وَيُغْضِ الْقَاجِرَ الْبَكِيَّ » .
- ٣ - « إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ » .

وقال عمر رضى الله عنه : ما أعطى المرء بعد إيمانه خيرا من امرأةٍ صالحةٍ .
 وسئلت عائشة رضى الله عنها : أى النساء أفضل ؟ فقالت : التى لا تعرف عيب
 القتال . ولا تهتدى لمكر الرجال . فارغة القلب إلا من الثروة لبعلمها . والإبقاء
 فى الصيانة على أهلها .

وقال بعض الحكماء : النساء هن «مراج الشرف بعفتن» . ونثير المصائب بابتدائهن .
 وكان أهلى أثينا المندماء يمنعون الرجل الذى يجتمع بغير زوجته ويمعاترها . أو
 يُخالط النساء المتبرجات أن يكون من أبواب مشورة المدينة . لأنه لا يؤمن على
 المصلحة العامة . فأنهم بهم ويقانونهم .

ومن هنا ترى أنه فى كل المصور . التقديم منها والحديث . كانت الشرائع والقوانين
 حتى الوضعبة منها . تُطالب الرجل والمرأة بالعفة على حد سواء . وقد جاء بالمادة
 ٤١٦ من الشريعة العبرية :

يجب على الزوجة ألا تحزن زوجها . ويُطلب منها «مساعدته وإعانتة فيما يحتاج إليه» .
 ويجب عليها أن تتودد إليه . وأن تظهر له الميل والحنن . ويحرم عليها كل التشحيم
 الاختلاء بغيره . ولو كان ابناً أو أختاً . وإذا وُجد معها أجنبيٌّ فى مكان . وجب أن
 يكون المكان مفتوحاً . ولها أن تجتمع بالصبي الذى لم يبلغ التاسعة من عمره .

وهذه المادة توافق الشرع الإسلامى إلا فى جواز الخاوة إذا كان الباب مفتوحاً .
 قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ يَتُؤَنُّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَخْلُونَ »
 بامرأةٍ لا تحلُّ له . فَإِنَّ تَالِئَهُمَا الشَّيْطَانُ » .
 وقال : « إِيَّاكُمْ وَالِدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ » .

كيف تحافظ المرأة على عفافها؟

لاشك في أن التربية والتدريب من أقوى الأسباب التي تساعد الإنسان على التحلي بالفضائل . والتخلي بالمكارم ، وتبعده عن مواطن الزلل ، وسلوك سبيل الشر ، ولذلك يمكن القول : إن أهم الوسائل التي ترقى أخلاق البنت هي التربية والتدريب .

وخير التدريب ما كان على آداب الدين وقواعده ، فإذا ربّيت البنت تربية دينية صحيحة شبت على التقوى . واتمسك بالعفاف . والحفاظة عليه ، ولما كانت البيئة التي تنشأ فيها البنت . والمؤثرات الخارجية . تجعل التدريب وحده غير كاف لتقوم أخلاقها . نظراً لأن الطبيعة خلقت المرأة ضعيفة . وميالة إلى دواعي الشهوات ، وجب أن يحافظ على البنت من كل ما ينشئ في نفسها تأثيراً سيئاً ، وذلك بإبعادها عن كل ما يهيج عواطفها ، تهيئاً لتتحقق عواقبه .

فلا يصح أن تمتلئ دور الملاهي وأماكن الرقص ، كما أنه يحسن بها عدم قراءة الروايات الغرامية . والاختلاط بمن فسدت أخلاقهن من الفتيات .

وينبأ أيضاً لمصلحة الفتاة . ألا تجتمع بالمزوجات من صديقاتها ، بل يلزم أن يقتصر اجتماع الذي توجد فيه على من حسنت أخلاقهن من الفتيات أمثالها .

أما الاختلاط بالرجال فهو أسوأ ما يكون . ويتحتم ألا تختلط الفتاة برجلٍ ما .

قال أحد الحكماء : العفة حجابٌ يميزه الاختلاط .

قالت السيدة فاطمة رضي الله عنها : خيرٌ للمرأة ألا ترى رجلاً ولا يراها رجلٌ .

وفي مثل الأساني : يجب أن تحفظ البنت بين أربعة أنجيل ، أو في وسط أربعة جدران .

حرية المرأة

١ - لقد سلكت المرأة المصرية في هذا العهد مسلكاً معيماً ، وأسرفت في الحرية إسرافاً فاحشاً ، حتى خرجت عن حدود الشرع الشريف ، والأدب المنيف . وأصبحت متطعناً لبني جنسها ، بل للأجنيبَات اللاتي قلدنهن في عاداتهن وأزيائهن .
فن تلك الحرية الباعثة على القبح ، خروج النساء للاستحمام في الحمامات العامة عاريات الأجساد بشكل تحجل منه القضيلة ، ومحادث حامات (استانلي باي) ورأس البر وغيرها بعبدة عناء ، فهي مسطورة ومرسومة على صفحات الجرائد .
ومنها الرقص الخليع في صالات أعدت لذلك ، وهناك في عرف أهل هذا الفن يُباح رقص البفت مع الشاب ، والمرأة مع الرجل ولو بدون سابق تعارف بينهما .
وهذا ما يسمونه عندهم (بالتعارف الودي العالي) المطلوب الذي تنشده الحياة الاجتماعية الحاضرة ، فترى المرأة والرجل يتحضران للقيام بعد أن تتأديهما الآلة الموسيقية (الأوركستر) بنغمة تهيج العواطف ، وتحرك الأشجان ، وتبعث في النفس أحط الفرائز وأسفل الرغبات . فتحملهن على الدخول في معمعة الرقص المعروف عندهم (بالشارلستون) .

فاذا ما تسلطت النغمة على عشاقتها . بعثن على القيام . فيضعن الصدور على النحور ، ويد إحداهن على ظهر صاحبه . والأخرى فوق كتفه . ويلوران دورتهما عدة مرات بهذه الطريقة المضجلة التي يعمر منها وجه الحياء خجلاً . ويقف أمامها الدتين وجلاً .

ظن البعض أن حفلات الرقص الخليع واسطة لتسهيل التعارف بين الشبان والفتيات تمهيداً للزواج . ولكنه - ولا أظن - نازلة نزلت بسوق الزواج . وجعله على تأخير وكساد كتنازلة الرقص . ولا كآلة حاققت بغاف العكاري كهذه الكآلة ؛ ولا أعرف شاباً اختار شريكة حياته من بين الراقصات . بل بالعكس كانت نتيجة هذا الرقص التفور من الزواج . وسوء الظن بالفتيات . وخسراً حاق بمسمعهن وشرفن .

ويقولون: إن الرقص هو لغاية التسلية والدفء ، فإذا كان الأمر كذلك فلم لا يمارسه الرجال مع الرجال . والنساء مع النساء ؟ ولماذا لا يتم مع الرجل وزوجته مثلاً ؟ ولماذا يشترط فيه أن يتم بالاحتكاك والتلاحم والضم والتعانق . أو بجارية أوضح بوضع التآرع المشيم ؟ .

من ذا الذى ينكر أن عادة الرقص تهتك وخلاعة وفجور ، حتى لو كان من أهل الدعارة والنسوق ؟

لقد ابتدع الغريون هذه البدعة فيما ابتعوه ، وربما كانت ذات فائدة لهم ، وهى تدريب اكتساب الدفء وقت البرد . مراعاة لشدة البرودة فى بلادهم ، ولأن عوائلهم تسمح لهم بذلك كما يقولون . ومع ذلك فقد انتشر الفساد فى بعض الممالك الغريبة . بسبب سلوك البائت طريق الحرية فيما يزعمون . وهو طريق الخلاعة والاختلاط بغير محلود . والبلباس العديم الحشمة . فعانت تلك الممالك بسبب فسادها من الجرائم ما أفلق راحتها حتى صار يضرب بها الخلل المشهور فى كل حادثة تقع عندهم (قتل عن المرأة) اعترافاً منهم بأن الفتاة هى عللة معظم الجرائم الحاصلة بينهم الآن . فالحرية التى تتمتع بها المرأة الغريبة هى التى خولها نظام بلادها وقوانينها الوضعية وعاداتها القومية .

ونقد نجم عن ذلك بالتضييع مخالطة الرجال والنساء فى الخلوات والطرقات ونحوانيت والمدارس والمصانع . وفى بطون الأودية . وعلى رعوس الجبال ، سواء كانوا عارم أو أجنب . ولا يخفى أن هذا فى أغلب الأحوال مذهباً للحياة ، مضيقاً بشرف . محبةً للفساد والعار .

ولطالما نلت حالة المرأة فى أوروبا وأمريكا أنظار الكتاب . وعلماء التربية . لكثرة ما رواه عن عهدهم . وعلم ميلها إلى تدبير شئون منزلها . وانصرافها عن كل شئ إلا الكسب والنزوة . والمحب بمختلف الطرق والأساليب .

وهناك خلاف كبير بين حالتي المرأة الغريبة والمرأة المسلمة ، فإن الأولى أخرجتها قرون يمدد وعدهم حكمة رجلها عن دارها فى سبيل الحصول على قوتها ، ثم اقتادتها ضرة الحاجة إلى لوجود أحياناً حيث لا ينبغي أن تكون .

أما المرأة المسلمة الشريفة . فهى المرأة الطبيعية الفطرية . التى ضمن لها أحكام دينها شريفة نفقاتها على الرجل وأسباب حياتها . فهى ليست فى حاجة إلى كثرة

الخروج إلا لضرورة شرعية . وفي حدود الأدب والقانون . وليست حرية المرأة : كما يرغب بعض المتمرجين من الشبان المغرورين المطلقين - مساواتها بالرجل في الحقوق والواجبات ، ولا في ترك زينا الشرق وعاداتها القومية ، وخروجها في زينا الحالى . وخروجها عن حد الكمال ، واختلاطها بالشبان والرجال ، ولا في سيرها في الشوارع والطرق طوع لإرادتها ، تفعل ما تشاء . وتصنع ما تختار . ولكنها فوضى ، تخرج المرأة عن طبيعتها ، وعن مبدأ قيامها بالعمل وحاجات الأمة . إنما الحرية الحقيقية هى الاعتدال في السير ، والحفاظ على الآداب . والحشمة والوقار . وفعل الخير . والابتعاد عن الشر ، واجتناب ما حرّم الله ، وفعل ما أمر به .

حرية المرأة هى أن تعرف حقها فطالبا به . وتعلم واجبها فتؤديه . وتقف عند حدّها فلا تخرج عنه ، كما ذكرت ذلك في كتابي (عظة النساء) .

٢ - ويكنى دليلاً على صحة ما أقول . ما نشرته جريدة الأهرام الغراء في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٣ عن لسان الآنسة عليّة فهمي (خريجة النريون بباريس) معبرة عن شعورها نحو النساء المصريات عند عودتها من أوروبا . وقد قضت شهراً في الإسكندرية ، ورأت ما رأت من تهتك النساء . وقد استنكرت ما رأتها حولها وقالت : « إن كل ما حولنا لا يكاد يكون طبيعياً ، فنحن نتلغ نحو الغرب . في حين أن على الشرق أن يحيا حياة شرقية لأسباب عدة : منها الجنس ، والطبع ، والثقافة . » والمرأة الشرقية تحاول أن تنال كل حريتها كالغربية . في حين أنها لم تستعد لها ، وقد رأيت رجالاً ونساء لا يفكرون إلا في الجسد . أما الفكر فيضعونه جانباً . فالرأة إذا جلست عندنا إلى رجل تعجز عن أن تكون إلا امرأة . فهى عقلياً قاصرة عنه مندفعة - سواء كانت فتاة أم امرأة شابة - في تقليد الغربية تقليداً أعمى . »

« ودليل عدم بلوغها صاحبها الغربية . هو ما رأينا في الإسكندرية . فانه لا يعجنى فتاة (استائلى باى) المستهرة مهما كانت حسنة النية . لا يعجنى أن تخلع ثيابها . وتضع لباس الحمام . وحولها عيون شرقية تلثمها التهاماً مردولاً . »

« وقد عارضنى بعض صديقائى في أفكارى هذه . وفي امتناعى عن الزنى إلى البحر . وضرين ن مثلاً (كان) و (نيس) وغيرهما . فعارضن بلورى قائلة : إن العرى هناك طبيعي لنعودهم إياه . أما هنا فالشرق لم يعود . واستا في حاجة إليه إلا بعد مضى سنوات . ما دامت هناك عناصر الرقى الاجتماعى لم تتوفر لنا بعد . »

فلا يوجد عندنا إلا مجتمعٌ غثٌ . لا يقوم إلا على أفكارٍ منقطعة ، أو على الفزك ،
ولذلك فلا حاجة لنا به كذلك الآن . وعدى أن على المرأة المصرية أن تتعلم ألوف
الأمياء التي حولها قبل أن تُطالب بحريتها ، ولست أعنى بهذا بعض اللواتي تكلفن
ثقافةً عالية ، وأتبن كنايةً واتزاناً .

« ولست أدري ماذا يقصدن بأن يعرن (مصرية) ؟ هل يُردن الرقص
والتنقُّ وحياة المسرح والملاهي (والتهيص) ؟ اللهم كلا ، إنها في فهم الحياة كما
يفنى ، وليس لما قبل أن تثير عقلها ، وتقوى لإرادتها وتحرر شجاعتها أن تذهب إلى
الشاطئ . فتمدُّ جسمها نصف حريان . »

« وعلى الفتاة المصرية الجديدة ، أن تعتدل في طلب حرية لا تتركها ، أو تُسمى .
فهمها . وتجد من الجانب الآخر خطأ الرجل المصري ، الذي إما أن يُطلق امرأته
تسرح كما تشاء . وإما أن يضيق عليها الخناق (كأنها عيين) . »

هذه هي بعض آراء الأستاذة عليّة فهمي . وهي آراء معقولة ، لما قيمتها
الأدبية ، لأنها صادرة من فتاة مصرية ، تشبعت بأقصى معاني الحرية في أعظم بلدٍ
يفهم معنى الحرية (وهي باريس) مدى سبع سنين . فيستحيل أن يقال عنها إنها
رجعية ، ولكنها تخشى الطفرة (والطفرة مُحال) .

ونريد السير إلى الأمام في رفقٍ وحذر ، ونريد في أثناء هذا السير نحو السور ،
التزود من أسلحة الحياة كالمعرفة والفضيلة .

وعلى كل حال . فيجب أن يكون سيرنا إلى الأمام في الطريق الطبيعي الذي
اختطته للمرأة الشرع الشريف والأدب الرفيع . أما الخروج عن هذا ، فهو خروج
عن الجادة ، وانحراف عن سواء السبيل .

فتعلم الفتاة المصرية ، أن المدنية الصحيحة ليست في تقليد الأجانب في مدنيّهم ،
بل هي الآداب والأخلاق الراقية ، والمحافظة على تعاليم الدين القويم ، واتباع العادات
القومية الفاضلة .

ولتعلم أن الأمة إذا تركت تعاليمها القومية ، وجهلت أو تجاهلت تعاليم دينها
الحنيف . وقلّدت الأجانب في أمورهم ، وجرت معهم في اتباع السيئ من عاداتهم
لم يضر عليها قليلٌ من الزمن إلا وهي أثرٌ بعد عين . وانمحت معالمها ، وضاعت
مدنيّتها .

فالتقاليد عند علماء الفرنجة أنفسهم ، وأخص بالذكر منهم الأستاذ (لويون)
هى روح الأمة التى تبعث فيها الحياة . وتعضدها من التفكك والانحلال .
ولتعلم أن الفرنجة يهتمون أن يقلدوا الشرقيين عامة ، لتضيق معاملهم ، وتنتهى
قوميتهم ، وأن الانغماس فى تقليدهم يعود على الأمم الشرقية بالحياة والوبال وسوء
الحال .

وها هى ذى بلاد الأندلس ليست منّا بعيد ، فقد قضى الإسبان على مدنيها ،
وأقاموا على أنقاضها مدنيهم وعاداتهم . فصارت فى عالم التسيان وكأنها لم تكن .
فلتنبه الأمة المصرية عموماً . والمرأة المصرية خصوصاً من غفلتها ، ولتحافظ على
عاداتها وقوميتها ، إذا أرادت أن تحيا حياة طيبة شريفة سعيدة .
والله الموفق لما فيه صلاح الحال .

شباب غير ، ورجل مفتون ، لا يهتمه ضياع وقته وحياته في سبيل الشيطان .
 ولأنى أرى أن السبب في فساد النساء وتهتكهن هو تساهل الرجال ، والصالح ؟
 فمن بالخروج على هذا الحال وعدم الاعتدال ، فإذا ينتظر الرجال بعد سوء الحال ،
 وهتك العرض - وضياع المال - وبعد أن ثبت لهم بالأفعال لا بالأقوال ؟
 أيها الرجال ماذا جرى لعقولكم حتى رضيتم أن تفجر نساؤكم وبناتكم ؟
 أيها الرجال : أرى لكم من الاشتغال بالسياسة العمومية ، أن تسوموا بيوتكم ،
 وتحفظوا نساءكم وبناتكم من هذا التدهور الخلقى .
 أيها الرجال : نساؤكم وبناتكم من نعم الله عليكم . فامسكوهن خشية أن تزول هذه
 النعم منكم ، وكفى ما فرطتم في الأيام الماضية .
 أيها الرجال : أعراضكم فوق أرواحكم ، وقد فرطتم فيها كثيراً ، أفلا تشعرون
 وتيقنون من هذه الغفلة ؟
 أيها الرجال : أعراضكم أغلى وأثمن من أموالكم ، وقد طرحتمهن في مهاوى
 الفساد والدمار ، أفلا سمعتم قول حسّان شاعر الإسلام :
 أصون عيرى بمالى لا أضيعه لبارك الله بعد العرض والمال
 أيها الرجال : اسمعوا وعوا ، إن الله ولائكم أمر نساؤكم لتصلحوا الولاية ، فأسأتم
 لمن ينظركم وتماهلكم ، فهل أنتم مصلحون ؟
 أيها الرجال : ما بلغ النساء والبنات هذا الحد ، ونخرجن إلى المنزل من الحد ،
 إلا من تساهلكن ، وضعف رأيكن في سياستهن ، وخوّز عزيمتكن في حججهن ،
 ومنعهن عن الخروج . كأنه لا خيرة في قلوبكن على أعراضكن (قبح الله من لا يتأخر) .
 أما علمتم بأنه لو ضاعت الفترة من الرجال . وفقد الحياء من النساء . فقولوا
 على الدين الغناء ؟
 أيها الرجال : إذا تكلم الواحد منكم مع الآخر في حالة النساء الآن أظهر التحسّر
 والأسف ، وقبح هذا الحال ، وخاف سوء المآل ، ولكن إذا دُعِيَ إلى تغييره عرض
 ونأى بجانبه وقال : (دع الخلق للخالق ، نسأل الله البستر ، فلا اعتراض ولا انتقاد) .
 أينتظر الواحد منكم أن يأبى غيره فيصون له حرمة ؟ أم تنتظرون أن قلب
 الحكومة نظامها ، وتتدخل في أموركم الخصوصية ، وهى تباعدت عنها احتراماً
 لحريتكم الشخصية ؟ وكيف تتدخل هى وأنتم لا عون ساكنون ؟

وسكوكم هذا دليل الرضا بما أنتم له كارهون .

والله ما شاعت هذه المنكرات في النساء المسلمات . إلا لتفريطكم في الحجر عليهن .
وتساهلكم في أمورهن . وخروجهن عن حد الأدب والاحتشام .

فلحدوا أيها الرجال سوء عاقبة هذا الحال . فالحرّ العاقل لا يلبس بذلك ، ولا
يرضى بهتلك النساء واختلاطهن بالرجال والشبان . ولا تنسوا أيها الرجال ، أنه كلما
كثر خروج المرأة ومخالطتها بغيرها من النساء زاد طلبها للملابس والحلي ، إمّا تشبهاً
بغيرها ، وإن كنّ أعلى منها مقاماً وأكثر ثروة . وإمّا تشبهاً لما همومعروض في الأسواق
استغناءً لأنظارهن ، وترغيباً لمن ليرقن في نظر الرجال والميل إليهن ، مع أنها لو لزمت
جانب الحشمة والوقار . لكانت في غاية الاحترام والاعتبار ، ولما وجد سفيه من
نفسه مطمعاً لمداعبها ومما كسبها . ولا أدري ماذا أقول ، وقد ضاعت من الرجال
العقول ؟ .

أقول : أين أهل النهضة والاستنهاض ؟ أين أهل الغيرة على الأعراض ؟ كانوا
وكان فعل ماض . وهل يستقيم الظل والعود أوج .؟

ولو قارئاً بين الماضي والحاضر لرأينا أن السبب في تمادى النساء على هذا الحال
والإزام الرجال الصمت والسكون في هذا المقام ، رغمًا عن تحققهم ضرره أديباً ومادياً ،
هو الوهم السائد على عقول النساء والرجال في فهم الحرية الشخصية ، التي ابتليت
بها مصر من عهد الحرب الماضي للآن ، بحيث أصبحت المرأة تخرج عن طاعة زوجها ،
وتجرى في ترك الحجاب على مشيتها . وقد آنت من الرجل ضعفاً وتساهلاً في حقّه
فكادت ننكره كما قالت إحدى السيدات عند سؤالها عن سبب ترك الحجاب وعلم
تقشعها :

مولاي يجب كيف لم تقنّعي ؟ قالت له : أتعجباً وسؤالاً ؟

ما كانت الحشمة ترفع سيرها لو قد رأيت في ذى الجموع رجالاً

نعم إن المرأة ما وصلت إلى الحالة التي نراها عليها الآن ، واسترسلت في هوارها
توسّعت في مطلبيها حتى أصبحت مثال التبرج الفاضح ، والعار الواضح ، إلا بسبب
تعاون الرجال وتساهلهم وإهمالهم وتركهم للنساء الحيل على الغارب .

رحل : إن كنتم تعرفون ما لكم من الحقوق الشرعية المقدسة على النساء .

فأعليكم إلا أن تحضوا عليها بالتواجد ، وتضوا نهضة الرجل الحر الغيور لردعهم
عن النفي والفساد . وهدايتهم إلى طريق الهدى والرشاد .

واعلموا أنكم بين يدي ربكم مسئولون عن كل هذه المخايز والآثام ، ولا عنبر
لكم في تضريطكم في حق يؤدى التضريط فيه إلى ما حرّم الله ورسوله « كلحكم راعٍ
وكل راعٍ مسئولٌ عن رعيته » .

وما جعل الله أمر نسائكم بأيديكم إلا لأنه يعلم ما فيمن من ضعف العقل والدين .
وخور العزيمة عن مغالبة هوى النفس ، فكنتم بذلك قوامين عليهن . ولذا قال الله تعالى
(الرجال قوامون على النساء) .

فاتقوا الله في نسائكم وبناتكم ، واعملوا على ما فيه حفظهن وسلامتهن ، حفظاً
لشرفكم . واتباعاً لأمر دينكم .

مسئولية المرأة في تربية أولادها

لتعلم المرأة أن أكبر نصيب من المسؤولية في تربية الأولاد واقع عليها ، سواء كانت فيما يتعلق بالوجه الأدبي ، أو الوجه الصحي ، ولا يُسمع لها أن تعتمد على الزوج في قضاء هذه المهمة ، لأنه يكفيه الجهد الأكبر خارج المنزل لكسب ما يقوم بحاجاته بل يُهم الرجل الذي يعمل طول نهاره مجاهداً في السعي على طلب رزقه ورزق أولاده أن يجد أجرة عمله عند عودته إلى بيته سلاماً وراحة وهناء .

وغاية ما يُسمح للمرأة أن تطلبه من زوجها . هو ألا يُكثر من أنواع التَّحجُّب والتَّودُّد لأولاده ، خوفاً من أن يُفسد عمل الأم ، ويُضيع عليها الأتعاب التي تبذلها في سبيل تربيتهم وتقوم معوجهم .

ولكن يجب أن تُعلمه على المهاج الذي تسلكه في قضاء مهمتها قياماً بواجب المشورة ليكون على معرفة من خطئة سيرها ، فيمدها بثاقب رأيه ، وجليل إرشاده ، وما يكون به صلاح الأولاد ونجاحهم .

ومن المعلوم أن تقدم الأمّة ، يكون بتقدم المرأة ، كما أنه لا يتم إن كانت في تأخير وانحطاط ، فهي في الحقيقة والدة الرجل ، ومهدّيته ، وشريكته في الحياة وأتباعها . بل هي أصل سعادته ، ومورد بهجته . وأعظم عامل على نجاحه وتوفير ثروته .

وهي التي بحسن آدابها . تفرس فيه الفضائل ، وتعلمه كيف يحبّ وطنه ، وكيف يخدم بلاده . وبالعكس هي منشأ فقره . ومنع شقائه ، لأنها يجعلها تُلقيه في حفرة الذلّ والموان ، وتجرّه إلى التَّقهقر ، وتعمل به إلى الضياع والخسران . فهي الأساس الأول لتربية الأولاد ، وجعلهم رجالاً للمستقبل .

ومن الوجوب العيني أن تتعلم كيف تربي أولادها التربية الحقيقية المطلوبة . فأول واجب عليها المحافظة على صحة أولادها وعقولهم ، لأن الولد لا يكون رجلاً حقيقياً . إلا إذا وجد من يعتني بصحة جسمه وعقله ، ويقوم أخلاقه ، ويكسبه من

الصفات الحسنة ما يؤهل له لأسمى الأعمال ، وأرفع الدرجات ، ويتال به رضاء الناس عنه . لأنه لاغنى للواحد عن العلم ، فهو يعيش بالكل ، وبه يعيش المجتمع الإنساني ، فإذا لم يكن جامعاً لشروط التهذيب والاستقامة سقط ، وكان السبب في سقوطه فساد الأساس الذي نشأ عليه ، أى فساد تربية الأم .

لأن الطفل في صغره يكون سريع الانقياد لين القطرة ، تطيع في ذهنه صورة أخلاق مربيّه .

وبما أن الأم هي الملازم الأول للمولود في ذلك العهد ، وجب عليها أن تُدرّك ماهية التربية وقوانينها ، لكي تتمكن من سياسة ولدها ، وتقويمه على الوجه الذي يكون به عضواً نافعاً في الهيئة الاجتماعية ، وإلا إن أهملت تربيته . ونشأ على ما يميل إليه طبعه وهواه ، نشأ عتيداً عاصياً شقيّاً ، وأصابها من شقائه التكد ومرارة الحياة ، إلى أن يبلغ السن التي فيها يُفارقها إلى المدرسة ، حيث يدخلها وهو جاهل . فيحتاج لتهدئة من الوقت والتعب أضعاف ما يلزم لمن تربى في حجر والدته (التي هي المدرسة الأولى لولدها) .

وأخذ عنها الأخلاق المرضية ، والأفعال الحسنة ، وادّخر من حكمتها المبادئ القويمة ، والآداب الصحيحة .

فالمرأة التي تهمل تربية أولادها . ربما وصل الأمر ببعضهم لأن يكيل لها الصاع صاعين ، ويُعيد إليها الشتمة شتمتين ، والضربة ضربتين . وهي مع ذلك تهتم له استخفافاً . وتعلمه ناسية فعله وقوله إلى حدّاته سنّه . ولا تنظر في أمر عقابه وتهذيبه . وتنتظر السن التي فيها يعقل معنى تلك الشتائم والتبائع . فيتعلم منها من تلقاء نفسه . مع أنه متى وصل إلى هذه السن تمكّنت منه تلك الأخلاق ، وتعذر قلعها منه .

وبعض الأمهات يتوعدن أولادهن بالشكاية إلى أبيهم ، ويردّدن جمل التهديد لأولادهن بالاحتصاص منهم عند حضوره . حتى إذا عاد الوالد المسكين من أشغاله تعباً . أخذت تزيد في هومه . وتضاعف في متاعبه . لسرد عيوب أولادها . وقبيح أعمالهم ، فلما أن بغض الأب عن مساوئ ابته اكتفاء بما يقلقه من الأشغال . وإما أن تبيح غضبه فيعتقه ويضربه بقسوة لما وقع منه . وفي هذا الحال لا تقيّد الولد العقوبة . بل يتعلم منها احترام والدته القاصرة عن تربيته بنفسها . وكُره والده الذي يهينه بقسوة وحشية .

وهكذا يشبُّ الولد عقوقاً . لا يعرف لوالديه مهابةً ولا احتراماً ، مع أن الأمّ العاقلة تتحاشى ما استطاعت تمثيل الأب في أعين أولادها بما يبعث الخوف والرعب في نفوسهم منه . وينزع المحبة الأبويّة من قلوبهم .

فعل الأمّ العاقلة أن تتلافى هذا الخطأ . وتختير بنفسها تأثير كلِّ حركةٍ منها على أولادها . متبعيةً للوسائل المقبولة ، كلٍّ بحسب طابعه وأمياله .

فإن أحسّت سياستها معهم فازت بالمرغوب . ونالت السلطان المطلق على إرادتهم . وبما يساعدنها على ذلك . عامل الحبّ المتبادل بينها وبين ولدها ، فإذا عرفت كيف تستخدم تلك العواطف . خضع لها ولدها . وكانت تقته بها تامّة ، إذ لا يُنكر ما للحبّ من النعوذ والسلطة على العقل .

وبناء عليه : لا يحسن أن تكلّ الأمّ أمر الاعتناء بصحة أولادها وتعليمهم إلى الخلم الذين يجهلون فنّ التربية . وإذا عرفوا منها شيئاً . فأين لهم نظرات الأمّ الحنونة . وابتساماتها المؤثرة . التي قد يكون منها أكبر مذهب . وأحسن مرشد .

أسأل الله أن يوفق نساء مصر إلى حسن تربية أولادهن ، حتى يكونوا رجالاً عاملين نافعين لأنفسهم ووطنهم .

باب التربية

مسئولية المرأة في تدير منزلها

إن المرأة هي ربّة المنزل ، ويبلغها زمامه ، تقوده إلى حيث تشاء . ولها في تديره الدور الأول ، وعليها المسئولية العظمى ، لأنها وحدها قادرة على سعادة الرجل أو شقاؤه .

وبعمارة أخرى متوقف عليها حفظ الرجل في دنياه . فكل منزل ترى فيه امرأة عاقلة عاملة عالمة بتدير منزلها ، فالسعادة أليفه . والسرور حليفه ؛ وكل منزل ترى فيه امرأة جاهلة فاسدة الخلق ، فأطلق عليها لسانك بالنسب . ودمعك بالبكاء ، واعلم أن حليف ذلك المنزل السكد والشقاء .

ويقال في الأمثال : (الرجل يبنى ، والمرأة تبنى) : أى الرجل قائم بالتحصيل والكسب في الخارج . والمرأة هي التي تتناول منه ما يحصله بكده واجتهاده . فتصرفه في أبوابه وتضعه في مواضعه ، كما يرشدها إليه العقل السليم . والذكر الصائب المثلّم بأحوال المنزل ، الخبير بشؤونه .

وهذا كلام في غاية الحكمة ، وأصالة الرأي ، لأنه كم من بيوت غنية افقرت بعلّة المرأة وسوء تديرها ، وكم من منازل عامرة خربت مما أصابها من المرأة وهلمها لها وتدمرها . وكم من نساء أضعن أئمن شيء لديهن وهو حبّ رجلان . بسبب كسلهن وإهمالهن واجبات منازلهن .

وحقيقة لاشيء أصعب على الرجل العامل التشييط الذي يقضى نهاره مكباً على تحصيل رزقه من أن يشاهد بجانبه امرأة كسولة جهولة مهملة ، لا تحسن إلا الإنفاق على الملابس والزينة الباطلة ، ولا تميل إلا إلى البطالة ، فلا تصحو من نومها مثلاً إلا بعد أن يقضى زوجها المسكين الساعات العديدة في التعب والمناء .

ومن الغريب أن كثيراً من النساء يشتكين علم رضا الأزواج عن عيشهن . مع أنهن علمن تلك الشكوى ، فإذا أحبين أن لا يسمعن شيئاً من ذلك . فليبدأن باتمام

واجباتهن المزيّنة بدون إهمال ولا تهاون فبذلك يتلن رضا أزواجهن ، ويفترن بالحمد والثناء . ويعيشن في راحة وهناء .

فضل المرأة المدبرة

ذكرت إحدى المجلات على سبيل الفكاهة والاعتبار ، أن فتاة كانت مولعة بحب الموسيقى ، وكان عندها بعض آلات الطرب . ولما تزوجت باعت ثاني يوم زفافها جميع ما كان لديها من تلك الآلات ، واشترت بأثمانها آلة للخياطة وأشباهها ، فعلم زوجها بذلك . وسرّ كثيراً به ، وأخذ يذكر ما فعلته في كل مجلس وناد ، وكان لتلك السيدة أربع نسوات غير متزوجات ، فها لبّن بعد زواجها ، وانتشار فضلها في تدبير المنزل حتى أقبل الثّبان فتزوجوا جميعهن لوثوق النّاس أنهن سيكنّ في حسن التدبير كأختن .

وهذه القصة جديرة بأن تكون عظة وذكرى . لكل فتاة شرقيّة ، وكل بيت في بلاد الشّرق . لأن تدبير المنزل ، لا يكون فقط بترتيب المفروشات ونظافة الملابس والأدوات . وجودة الطّعام ؛ بل هو أيضاً بتوفير الماء ، وحسن الاقتصاد في المعيشة . فإذا كانت المرأة مُسرفة . أمكنها أن يكون منزلها نظيفاً مرتباً ، ولكنها لا تكون حائرة على الثّناء الواجب لأنها مُسرفة . ولا فضل لها فيما تأتيه مع الإسراف .

ولا يخفى أن الثّبان الشرقيّين أصبحوا ينفرون من الزواج ، ولم يكن هذا النفور لقلّة المال أو لنقص قليل في الجمال . إنما تخشية إسراف المرأة . وعدم قدرتها على تدبير منزلها . الأمر الذي يكون مع الفقر وبلاّ فوق ويل ؛ وانتشر هذا الاعتقاد عند كثير من الثّبان ، وهو صواب لا جدال فيه ، لأن تدبير المنزل من أهمّ ما تمّ به الراحة . ويحلّ به العيش . فإذا لم تكن الزوجة مدبرة ، لم يكن (حسن معيشة) ، وإذا كان الشابّ وقتاً بعدم حصول التدبير فلا قدّم على الزواج مطلقاً خوفاً من الإسراف في الإنفاق .

وكثير من البنات يلمن الثّبان على عدم الزواج . ويزعمن أن السّبب في ذلك هو نقص المال ، وليس لأنهنّ غير قادرات على تدبير المنزل أو تحسين المعيشة . وقولهن هذا مقبول . ولكن السّبب فيه . لأن الشاب لا يطلب المال إلا خوفاً من ألا يكون

هناك حُسن تدبير المنزله . ومنى امتنع ذلك التدبير فقد لزم بدون شك أن يقوم المال مقام التدبير .

وهذا غالباً معظم السبب في سوء حال المتزوجين . وابتعاد معظم الشبان عن الزواج . هذا ، ولنعلم النساء أن الحيلة في تدبير المنزل هي مال حقيقى ، لأن أكثر الأفرنجيات يشتغلن في الأسواق ، ويشاركن رجالهن في الأعمال ، فلذلك لا تكون منازلهن إلا للنوم فقط . أما سائر أسباب الحياة ، فتتقضى في القنادق وأمثالها .

فاذا لم يكن للرجل توفير من امرأته في منزله ، بأن كانت لا تستطيع صنع الطعام . أو خياطة الملابس ، كان له مورد ثان من عملها لیسد ما تقص منها .

وأما النساء الشرقيات فلا عمل عندهن إلا في المنازل . وهذه الأعمال أيضا هي مال حقيقى . فاذا كانت المرأة التي لا تدبير عندها تنفق على بيتها عشرين قرشاً في اليوم مثلاً ، وكانت المرأة المدبرة تنفق عشرة قروش ، كان لزوجها منها عشرة قروش يومياً وفرتها له بتدبيرها ، وكأنها بذلك تشتغل مثله . ولا حق له في الشكوى منها .

وبالإجمال . فان تدبير المنزل كله لا يقوم إلا بتوفير المال ، وحسن السياسة في إنفاقه وتدبيره .

ولما كان أمر المنزل موكولاً للمرأة وحدها كان من أهم ما يجب عليهما اعتبار المال . وحسن التقدير في الإنفاق .

تعلم جميع النساء والفتيات أن يعتبرن بهذا الشأن ، حتى تحسن حالة العائلة . ويكثر الزواج ، وتمتنع الشكوى بأن المرأة عالة على الرجل لأنها لا تعبته .

آراء وأفكار

عمال مساواة للمرأة بالرجل

١ - حضرة القاضية صاحبة ومديرة مجلة النهضة النسائية :

السلام عليك ورحمة الله . وبعد : فلا بد أن يكون وصل إلى علمك الشريف ، الضجة المائلة التي قامت في هذه الأيام من بعض الرجال . الذين يرون في أنفسهم أن الرجل منهم يساوى المرأة . وأن المرأة أصبحت في نظرهم واعتقادهم تساوى الرجل في الحقوق والواجبات . بما وصلت إليه من التعليم والتفكير ، مستشهدين ببعض النساء الغريبات . العالمات الكاتبات . والطالبات في الجامعات ، وهم يريدون بهذه الحركة اختلاط المرأة بالرجل اختلاطاً عاماً في الأندية والمجتمعات . ويصرّحون بأن لها حرية اختيار الرجل كما هو للرجل . ولا بدّ لها من حقّ الطلاق مثله .

ولعلّهم يريدون أيضاً القول بأن لها حقّ الزواج برجل أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة ، أى تعدد الأزواج ، كما للرجل تعدد الزوجات .

والأغرب من هذا كلّهُ . أنهم يطلبون (مساواة المرأة بالرجل في الميراث) مدّعين بأن الشرع ظلمها في هذا الحقّ . وهم بهذه الدعوة الحرقاء الباطلة ، قد خرجوا عن حدود الدين . وخالفوا قول أحكم الحاكمين (لذكرٍ مثلُ حظِّ الأنثيين) ، فيأخذاً من جرأة طائفة . وويلٌ لهم مما يدّعون .

وقد أنكر عليهم ذلك حصرة صاحب السموّ الأمير الجليل عمر طوسون باشا ، فأرسل كتاباً بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٣٠ إلى حضرة صاحب المعالي وزير المعارف لعمومية باتّمت نظر معاليه إلى المناظرة التي أقيمت في كلية الحقوق في هذا الموضوع قائلاً :

إنه لا يورخ الجد في نصوص الإسلام القطعية (كسألة الميراث) في معهد تهيم عليه حكومة مصر الإسلامية . ويطلب من معاليه أن يجعل حداً لهذا التصرف الممقوت . فأجاب معالي الوزير شاكرًا لسموّه عمّره الدينية . وأنه سيفحص هذا الأمر

بالعناية الواجبة ، لإجراء ما يتفق وقوانين البلاد . والمحافظة على حرمة الدين الكريم .
وقد قامت جمعية مكارم الأخلاق من ناحيتها بواجب الشكر لسموّه على هذا
الشعور الديني الشريف .

فيحقّ لنا أن نقول : جرى الله سموّ الأمير ومعالي الوزير خير الجزاء ، وبجعلهما
عضداً ونصيراً للدفاع عن الدين الإسلامي . وإطفاء هذه الفتنة .
قال الله تعالى : (واتقوا فتنةً لا تُصيبين الذين ظلموا منكم خاصةً ، واعلموا أن
الله شديد العقاب) .

هنا ، وكنت أعتقد أن في خطاب سموّ الأمير . وردّ معالي الوزير القول الفصل
في هذا الموضوع . وإيقاف هذا التيار الجلوّف (تيار الإلحاد) والضرب على أيدي
أولئك الملحدّين ، ولكن قرأت في جريدة الأهرام الصادرة في يوم الأربعاء ٥ فبراير
سنة ١٩٣٠ خبراً كدّرني وأحزّني وهيجّ مشاعري . وهو أن الدكتور (فخرى فرج
ميخائيل) ألقى محاضرة في مساء الثلاثاء ٤ فبراير سنة ١٩٣٠ بالجامعة الأمريكية في نفس
الموضوع ، وأثار بمحاضرته غضب لقيف كبير من السامعين حيث تعرّض للدين
الإسلامي الخفيف بخصوص مسألة الميراث (مدّعياً بأن الشرع ظلمها في هذا الحق)
وطعن بذلك في الإسلام ، وشهرّ بتصوص أحكامه .

وعلى أثر ذلك . انسحب معظم الحاضرين . محتجين على هذا الفعل الشنيع .
مُعانين استيائهم على لسان جريدة الأهرام . مُستصرخين وزير المعارف . وحضرة
صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ، وفضيلة شيخ الجامع الأزهر ونواب البلاد .
وقد شرعت النيابة في التحقيق مع الدكتور المذكور . لتعاقبه على ما صدر منه
تأدياً له ، وعبرةً لغيره .

وكنت أودّ ألا أتكلّم في هذا الموضوع . ولكن طلب إليّ بعض الإخوان أن
أكتب كلمةً فيه ، فرأيت بعد البَحْث والتَّنْقِيب ، أن أنشر على صفحات مجلّتك
الغراء آراء بعض علماء الدين ، وعلماء الاجتماع في هذه المسألة التي أصبحت حليّت
النّاس في المجتمعات ، فأقول وبالله التّوفيق ، والمداية لأقوم طريق :

١ - قال العلامة الجليل الأستاذ الشيخ محمد ماضي أبو العزّام في العدد ٤ . هـ
الصادرين في نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٢٣ من مجلة النهضة التّسائية ما خلاصته :

« إن الله سبحانه وتعالى أنزل المرأة منزلة الرجل في جميع الأحكام التّسرية فيما ينالها

من الرضوان والحر . فما قال سبحانه : المؤمن ، إلا وقال : والمؤمنة ، وما قال سبحانه : المسلم ، إلا وقال : والمسلمة ؛ إلا في أمور اقتضت منزلتها في المجتمع ، فأسقط عنها شهود الجماعة والجمعة بشروط مخصوصة ، والجهاد إلا للضرورة بعد استطاعتها ، وأسقط عنها تكليفها بالثقة على غيرها لأنه خلقها ضعيفة دائمة العمل فيها خصصه سبحانه وتعالى لها من الحمل والرضاع . وهو عمل شاق . »

« ولما كانت غير مكلفة بالثقة حتى على نفسها جعل لها سبحانه وتعالى نصف ما للذكر من الميراث ، وجعل شهادتها أقل من شهادة الرجل ، لاشتغالها بنفسها عن ملائسة أهل الأعمال الدنيوية . ولشدة تأثرها بالظواهر المحسوس . بخلاف الرجل . »

« وفيها عنا ذلك . فالرجل والمرأة سواء . في العلم ، والعمل ، والسعي وراء الخيرات . فما أوجب على الرجل عملاً من الأعمال . ولا طالبه بواجب من الواجبات . إلا وكانت زوجته شريكة له في هذا الحكم . »

« وتزید علیہ أن لما علوماً أخرى يجب أن تتلقاها في المدرسة المنزلية لم يطالب بها الرجل : كعلم تدبير المنزل . وحسن تربية الأبناء . وعلم قانون الصحة ، ونحوها . الأشياء التي تستعمل في المنزل مما يلزم للمأكل والمشرب . ومعرفة التأثيرات الجوية . ومعارف الأوصاف . تنفع بتلك العلوم عند ما تكون كذلك عظيم لرعاية حييعة مطبوعة . ولو جهلت شيئاً من ذلك لأفسدت المملكة . وفساد تلك المملكة الصغيرة يسرى العساد إلى المملكة الكبيرة . فالمرأة مضالبة بما طوبى به الرجل وأكثر . »

« أنزل الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أحكامه المقدسة . فجعل الرجل والمرأة سواء في جميع أحكامهم . من حب العقيدة والعبادة والمعاملة . ولامه سبحانه وتعالى حقيقة المرأة ومنزلتها من الوجود وضعها . لأن الله الخالق سبحانه هو الذي أسقط عنها صلاة زمن . خيصر وزمن الوضع . ونصياه شروط مخصوصة زمن الحيض والوضع والرضعة . وأسقط عنها شهود الجماعة . وأسقط عنها الحج لا مع عزم أو روح . وأسقط عنها الجهاد . وأسقط عنها الثقة حتى على نفسها . وكلف نواة أو زوج أو الأخ الكبير بالثقة عليها . ذلك لعلمه سبحانه وتعالى أنه حققها ضعف من الرجل عظماً وسريعاً وأورده . وأعدّها للحمل والوضع والرضاع . تنديها الأمور في كل شهر مرتين بأخص . »

« ... أن تتخذ نذبه الاضطرابات . ونهك فواه في الوظائف الحيوية . »

وتُهدّده الأمراض طول حياته في أحوار متعاقبة ، وأزمنة متناسقة ، لا يد وأُن نصير قوته ضعفاً ، وشدته عجزاً ، وحمته سقماً .

« وهذه هي حال المرأة بالنسبة للرجل » .

« وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) » .

« فبين لنا سبحانه وتعالى أنه خلق المرأة من الرجل . فلو نظرنا بعين البصيرة ، إلى أن المرأة من الرجل ، وإلى الوظائف الحيوية التي تقوم بالمرأة من حيض وحمل وولادة ورضاعة ، ثبت لنا جلياً انحطاط المرأة عن الرجل في الجسم والعقل . وذلك لأن خلقها من الرجل ، يستلزم (عدم مساواتها له) وذلك لأنها لم تُخلق منه بطريق التماسل . بل بأخذ جزء منه بقدرة الله تعالى ، فهي كجزء من الرجل ، ولأن جميع هذه المظاهر الحيوية مما يؤثر على جسمها وعلى نظامها العصبي ويجعلها في حاجة له من التبيح والانفعالات النفسانية والاضطراب العقلي يجعلها لا تتساوى الرجل » .

« ثم إن الله سبحانه وتعالى أمر الرجل بأن يقوم للمرأة بما لا بدّ منه لها ، قال تعالى : (وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) » . « ولم يوجب عليها أن تُرضع ابنها لزوجها إذا أبت ذلك ، وأوجب على الرجل أن يُرضع ابنه بالأجرة ، كل ذلك إعلالاً لمنزلة المرأة ، وتعظيماً لها في الإسلام » .

« وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنّة المطهّرة ما يجب على الرجل للمرأة حتى قال : (خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي) » .

« ومن لإكرامه سبحانه وتعالى للمرأة أن جعل الطلاق ، وجعل للحاكم أن يطلق المرأة من زوجها قهراً لعسر النّفقة ، أو لفقد عضو التماسل قبل الدخول بها ، أو لسوء العشرة » اهـ .

هذا ، وقد جعلت الشريعة الإسلامية (الطلاق بيد الرجل دون المرأة) والسبب في ذلك أنه ليس من الحكمة جعله بيد المرأة ، لأنه يغلب على خلقها الطّيش والخفّة وعدم الرويّة في الأمور ، فهي توقّعه لأقلّ حادث . أما الرجل فهو أثبت منها جتنأً وأقلّ طيشاً وخفّةً ، وأكثر رويّةً واختياراً وحكمةً .

فلهذا جعلت الشريعة زمام الطلاق بيده دونها .

على أن هناك أحوالاً تجعل المرأة قابضة على زمام الطلاق كالرجل ، وذلك أن
ما أن تشترط على الزوج حال العقد أن توقع الطلاق بنفسها .
وهذا يجمع عليه من أرباب المذاهب ، فإن لم تشترط ذلك ورأت من زوجها
ما يكره من الاضطهاد وسوء العشرة مثلاً ولم يمكن الإصلاح بينهما ، فلها أن ترفع
دعواها إلى القاضي وهو يفصل عقد زواجها من زوجها متى ثبت لديه أضرار زوجها لها

هل يمكن أن تتساوى المرأة مع الرجل في الحقوق والواجبات ؟

٢ - وقال الأستاذ محمد فريد وجدي بك ضمن مقالة نشرت في جريدة المزيـد
الخراء بعدد الصادرين في ٣٠ سبتمبر وأول أكتوبر سنة ١٨٩٩ : هل المرأة مساوية
للرجل في سائر الحثيات ؟ فالجواب : لا .

وهل لدينا دليل على هذا الجواب السلبي أصدق من وجود المرأة من ابتداء الخليقة
إلى الآن تحت سيطرة الرجل بوجهها كيف يشاء . ومحكم عليها بمقتضى ميوله .
إذا كانت المرأة مساوية للرجل من المحنت الحسية والعقلية . فلماذا رضخت
كل هذه الألوف المؤلفة من الأعوام لسطان الرجل وجبروته ؟ .
ثم قال : هل الرجل أقوى من المرأة جسماً ؟ الجواب : نعم .

وهذه حقيقة لا مريّة فيها البتة . فإن أقل نظرة لحالتها الطبيعية ، من حيث لوازم
الأنوثة وعوارضها . ومن حيث الحمل والوضع والإرضاع ، واستغراق عواطفها
في الخيمة على أطفالها . وهي الأمور التي يخلو منها الرجل بالمرّة . قلنا أقل نظرة
في حالتها هذه التي يعدها الفسيولوجيون أمراضاً تكني لأن نحكم بأنها أقل من الرجل
قوةً ونشاطاً .

ثم قال : هل المرأة أضعف من الرجل إدراكاً ؟ تقول : نعم . وأحوال الشعوب
الحاضرة والغابرة تؤيد هذا القول بالشواهد البينة . فإن كل الأعمال الاختراعية
والاكتشافات العلمية التي بُنيت عليها السعادة الإنسانية صدرت من الرجل دون غيره
اللّهم إلا بعض أمور صغيرة نمت على يد المرأة في العصور المتأخرة . ولكنها غير
ذات أهمية .

والخلاصة : أن المرأة أضعف من الرجل جسماً وإدراكاً . أما جسماً فلكونها

معرضة للوازم الأنثوية ، وهى أمراض تهدد القوى ، فضعف البنية بشهادة الأطباء .
وأما إدراكاً ، فلكونها بحكم وظيفتها من تدبير المنزل وتربية أطفالها . والتحفظ
عليهم غير معرضة مثل الرجل لماشى تنمية القوة الإدراكية .
فتكون النتيجة اللازمة لكل ما تقدم أن المرأة لا تساوى الرجل فى كل حثية
إنسانية .

ثم تكلم عن وظيفة المرأة وقال : إن للمرأة أعمالاً غير ما للرجل ليست بالأكل
أهمية من أعماله ، ولا بالأذى منها فائدة ، فهى تستغرق معظم زمن المرأة إن لم تقل كله .
الرجل يسعى ويشقى ويكد ويتعب ويشغل ليحصل على رزقه ورزق عياله .
وامرأته ترتب له بيته ، وتنظف له فرشه ، وتجهز له أكله ، وتربى له أولاده ،
وتلاحظ له خدمه ، وتحفظ عينه من المحارم ، وهو يسكن إليها .
وإن الله عز وجل خلق المرأة للملاذ الدنياوية . وحفظ الشؤون المنزلية ، وإنه
لم يخلق النساء لمغالبة الرجال ، ولا للآراء والسياسات . ولو شاء لأعطاهن الشجاعة
والهالة والقوة والشهامة ، مع أن الأمر بخلاف ذلك .
(أما ما ذكر عن بعض النساء الشهيرات اللاتي حضرن الحروب . فهذا نادر .
والنادر لاحكم له) .

ولو أرادت المرأة أن تسلك سلك الرجال ، وتعود على تحمل ثقل الأحمال .
للساوى الرجل فى جميع أحواله وتضاهيه فى أقواله وأفعاله . أفلا يكون ذلك منها
خروجاً عن الوظيفة التى خصها بها سبحانه وتعالى ؟
لأنه كما أن نظام الكون وسعاده ، قضيا بأن يخلق الكون أطواراً . وبأن أعمال
الرجال يجب أن تكون مقسمة بينهم . وأن يكون لكل منهم وظيفة مخصوصة يتقطع
لما فيقضيها : فطائفة للسيادة ، وطائفة للسياسة ، وطائفة للعلم ، وطائفة للبأس والشجاعة ،
كذلك أراد الله أن يكون لكل من صنئى بنى الإنسان : المرأة والرجل عمل مخصوص
لا يبعداه ، وإلا حصل الخلط والتشويش ، وبمجموع عملهما تم السعادة لكليهما .
ولقد حصلت فى أحد المباحث مناقشة بين عدة من فتيان وفتيات ، فأخذت فتاة
تخطب فى أن الرجال هاضمون حقوق النساء . ولماذا لا تدخل المرأة فى الوظائف
العامة ؟ ولم لا يكون من النساء وزيرات ومديرات وقاضيات ونائبات ؟
فقال لها فى من الحاضرين : نحن مستعدون لتسليمكن كل هذه الوظائف .

ولكن على شرط أن تقمّن بأعمال الجنود ، من حفر خنادق ، وبناء استحكانات ومكافحة . وقت اشتعال نار الوغى ، واستخراج فحم ومعادن من المناجم ، ومباشرة حوث وزراعة في البساتين . وبناء جسور على الأنهر ، وحفر ترع وغدران . فقالت الفتاه : في الإمكان أن تقوم بهذه الأعمال إذا لم تنزوج ونحمل ونلد . فقال الفتى : إذا كان غرضك أن أخذ هذه الوظائف مدة ثم قيام الساعة بعدها ، فانظرون آخر الزمن .

هنا . ولقد ثبت لعلماء العمران أن توزيع الأعمال أقوى معارج التقدم والمدنية ، فإذا اشتغل النساء بأعمال . والرجال بأعمال كان من وراء ذلك التقدم والنجاح ، وناهيك بالفساد الذي تراه من الرجال الذين يتشبهون بالنساء ، والنساء اللاتي يتشبهن بالرجال . . . ولقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا الاثنين . وروى عن عمّار ابن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يدخلون الجنة : الديوث ، والمترجلة من النساء . وممن الخمر » وفسر المترجلة بالتي تشبه بالرجال .

آراء بعض علماء الفرج

بأن المرأة لا يلزم أن تتعدى وظيفتها ، وبأن اشتغالها بأعمال الرجل مقوّض لبناء المدنية ، مفسد لنظام العائلة

٣ - كتب العلامة الشهير . والفيلسوف العمراني طائر الصيت (جون سمون) مقالة في مجلة العلماء عن المرأة الأوروبية ، وسوء تأثير الإفراطية عليها وعلى مجتمعاتها برهن فيها على أن الحقوق التي تنتحلها المرأة المتدينة لنفسها ، خروج عن الحد ، وغلو كانت نتيجة وخيمة للعابى ، وشدد النكر كثيراً على اشتغال النساء خارج بيوتهن ، ومزاحمتن للرجال في الأعمال . عاداً ذلك مقوّضاً لبناء المدنية ، مفسداً للنظامات العائليّة . واستطرد في الكلام إلى أن قال :

« المرأة التي تشتغل خارج بيتها تؤدي في الحقيقة عمل عامل بسيط ، ولكنها لا تؤدي عمل امرأة » ثم قال :

« النساء قد صرن الآن نساجات وطبائعات الخ ، وقد استخدمتهن الحكومة في معاملها . وبهذا قد اكتسبن بعض درهيمات ، ولكنهن في مقابلة ذلك قد قوّضن دعائم عائلتهن تقويماً » .

نعم ، إن الرجل قد صار يستفيد من أجرة امرأته ، ولكن بازاء ذلك قد قلّ مكسبه لمزاجتها له في عمله .

ثم قال « وهناك نساء أرقى من هؤلاء يشتغلن بمسك البغائر ، وفي عمالات التجارات ويستخدمن في الحكومة كعمالات . وبينهن عددٌ عديدٌ في التلفزيونات والليفونات والبوستة . والسكك الحديدية . وبنك فرنسا ، والكريدى ليونيه ، ولكن هذه الوظائف قد سلخن من عائلتهن سلخاً » .

ثم أطنب في مضار ذلك ، وختم فصله بقوله :

« يقول بعض الفلاسفة : إن الحياة محفوفة بالمكاره ، ولكنهم ربما قالوا ذلك لأنهم لم يدقوا طعم الحب طول عمرهم . أما أنا فأقول : إن الحياة طيبةٌ هيتيةٌ ، بشرط أن يلزم كلٌّ من الرجل والمرأة المحل الذى خصصه الله تعالى لكل منهما » .

٤ - وقال الأستاذ (فريرو) البحاث في أحوال الإنسان وتطوّراته :

« إنه يوجد في إنجلترا كثيرٌ من النساء اللواتى يتعاطين أشغال الرجال ، ويتركن الزواج بالمرأة . وأولاد يصبح تسميتهن بالجنس الثالث : أى أنهنّ لسن برجال ولا بنساء لمنافتهن للأول طبيعةٌ وتركيباً ، وللآخرات وظائف وأعمالاً » .

وقد درس هذا الأستاذ أحوالهنّ درساً ملحقاً ، فوجد أنهن يتركن الزواج ، وانتراعهن أنفسهن من وظائفهن الطبيعية كالأمومة وما يتبعها ، قد تغيرت إحساساتهن عن إحساسات بنات جنسهن ، وصرن في حالة من الكآبة تشبه أعراض المالبخوليا ، فكان الفطرة البشرية تقيم عليهن الحجة على إغفالهن حقوقهن .

ثم قال « وقد ابتدأ علماء العمران يشعرون بوخامة عاقبة هذا الأمر المتنافى للسنن الطبيعية ، فان هاته النسوة بمزاجتهن للرجال ، صار بعضهن حالة على الجمعية لا يجدن ا يشتهن به ، ولو تبادى الحال على هذا المنوال لنشأ عنه خلل اجتماعى عظيم الشأن » . هذا موجز ما كتبه ذلك الأستاذ . ومنه يتضح للقارئ اللبيب وجوب الحل من تهديد السبيل أمام النساء لتعاطي أشغال الرجال بالوسائل المادلة ، الكافلة لراحة الجنتسن . ولا يغرننا ما نسمعه عن بعض الثابغات بأوروبا وأمريكا في العلوم الطبيعية والفلكية ، فانهن فضلاً عن كونهن لم يبلغن شأوا الرجال فيها على الإطلاق - جانيات على هيتهن الاجتماعية بعدم إرادتهن الزواج إلا بعد أن يبلغن سن المحرم تقريباً .

وبذلك فهن باشتغالهن بما لا ينفع وطنهنّ بشيء يذكر ، تحريمتهن مما يطالبن به

من الذرية الصالحة . فان الواحدة منهم لو تركت أشغالها الفلكية مثلاً ، العديده
لجلوى ، ورضخت لحكم طبيعتها ، فتزوجت وهى شابة لاستطاعت أن تُهتدى
للمجمعة الإنسانية بنفسه علماء من ذريتها ، يستطيع الواحد منهم أن يؤدى أضعاف
أعمالها بما يكون له أثرٌ يُذكر فيشكر .

ثم إن علامات العالم المتمدن يُعَدِّدُن جانيات في نظر علماء العمران ، لابتعادهن
عن الوظيفة الحيويّة التي خلقهن لها الخالق عزّ وجلّ ، فقد ثبت بالإحصاء أن المرأة
للعاملة ، لا تزوّج قبل أن يبلغ منها الخامسة والأربعين . كما روته مجلة المجلات الفرنسية .
قل لي بأبيك ماذا ينتظر منها من القسّل بعد هذه السن ؟ وهل يستعيد الوطن من
أبحاثها في علم الطبيعة أو السياسة أو التشريع مثلاً ، بقدر ما يحسره من حرمانها لريّاه
من ذريتها التي تبغ فيها فيلسوف مثل (جون سيمون) أو طبيبى مثل (هكسلى) أو عصفري
مثل (سبنسر) ممن يُعَدِّلون الإنسانية فوائد حقيقية .

هذه الحالة يشكو منها الفريسيون أنفسهم . ويعدّونها تلخّلاً من المرأة في غير شأنها
واشتغالاً بغير ما هو مطلوب منها ، مما يتّبعدها عن لوازم جنسها ، وقد لاحظ ذلك
الفيلسوف (جون سيمون) فقال ما معناه : (إني لأأسّر إذا كانت امرأتى دكتورة ،
فاني أود أن تكون المرأة امرأة) .

وما ذلك إلا لعلمه أنها بدكتورتها في التشريع مثلاً ، لاستطيع أن تجمع بين
دقائق القوانين ودقائق علم التربية التي تُطلّب منها ويُعتمد فيها عليها .

• - وقال الأستاذ محمد جميل بيهم في كتابه « المرأة في التاريخ والسرائع »
ما نصه : المرأة دون الرجل .

ذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن المرأة المصرية كانت هى والرجل على مستوى
واحد في الحرية والمساواة ، فقال (بيبل) :

(إن اليونان وبينهم أهل أيتنا - هم البادئون في تمييز حقوق الرجل) .

يبد أنه إذا دقّقنا في التاريخ . نجد أن المساواة المطلقة ربما لم توجد في العالم قطّ بين
الجنسين . مهده المرأة المصرية مع حفظها المنزلة الشريفة التي خصّها بها الطبيعة ، ومع
أنها كانت مصدر النّسب ما برحت تحت سلطة الرجل ، فلقد شوهد بين نقوش المقابر
أن حبراء النّساء كان بنسبة تقدّسهن للحقوق الزوجيّة . وأمانتهن لأزواجهن .

على ما وصل إلينا من الآثار التي تحكى بعض الوصايا للرجال ، أن يُعاملوا

زوجاتهم المعاملة اللينة ، يُشير ضمناً إلى أن هذه المعاملة كانت عبر مرعيةً غالباً .
وبما يُضخف فكرة المساواة على إطلاقها ، نظامهم في وراثة العرش ، فإنه وإن
كان للمرأة عندهم حتى التاج ، إلا أن ذلك الحقّ ما كان ليم لها إلا متى فقد الوارث
من الذكور .

ومع أن هذا النظام سُنّ قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة حسب رواية (ديودور)
فإن جنود ملوك مصر لم يذكر غير خمس ملكات إزاء أربعمائة وصيعين ملكاً .
هنا ، ومن أدلة ميزة الرجل عندهم أيضاً ، أن المرأة ولو ارتقت إلى العرش كانت
تُشعر بأنّها في مقامٍ هو للرجل وليس لها . فإن الملكة (هتشبوت) التي حكمت قبل
١٥٥٠ سنة من المسيح كانت تُجبر على لبس ثياب الرجال ، مراعاةً للرأى العام .
وإذن فإن كل استقلال ومساواة للمرأة المصرية هو نسبي ، والرجال كانوا
قوّامين على النساء .

فهل بعد ذلك يقوم نفرٌ من الشرقيين يطالبون بمساواة المرأة بالرجل في الحقوق
والواجبات ؟ ألا ساء ما يدعون ، وهؤلاء مثلهم كمثل (الدينّ ضلّ سعيهم
في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم مُحْسِنُونَ ضمناً) .
والله الموفق لما فيه صلاح الحال . بين النساء والرجال .

المحاضرة الحادية عشرة :

السيدة خديجة

أم المؤمنين رضى الله عنها

« تفصل حضرة صاحب النزة على بك فكرى الأمين الأول بدار الكتب المصرية
بأخافنا بتلك المحاضرة النفيسة عن سيرة السيدة خديجة رضى الله عنها ، فتشكر له هنته
الوثابة . ويحبه المستفيض . »

قال عزته بعد المقدمة (عن مجلة النهضة القمائية) :

أدركت السيدة خديجة أواخر عهد الجاهلية ، وكانت من أشرف نساء قريش
نسباً ، وأوفر من مالا ، وأرجحهن عقلاً . وأجلهن خلقاً ؛ جمعت في تلك النفس
العالية كل مزية مشرفة . وخصلة باهرة .

أبوها (خويلد) من أشرف قريش ورجالها البارزة .

أما أمها فهي (فاطمة) وتتصل جبل نسبها بالشجرة النبوية المباركة ، وبذلك
أصبحت أم المؤمنين خديجة . أقرب الزوجات الطاهرات إلى الرسول صلى الله عليه
وسلم نسباً .

كان لها مكانة سامية بين قومها ، لجمال خلقها ، وكمال خلقها ، فخطبها
لأول مرة (عتيق بن عابد) فتزوجته ، ثم مات عنها ، فتزوجت شريفاً آخر . هو
(أبو هالة) وولدت منه ولداً اسمه (هند) إلا أنه لم يعيش طويلاً ، وترملت مرة
ثانية .

طلت أم هند في نضارة الشباب ، تحف بها أسباب الرفاهة والعز ، تقطن منزلاً
فضلاً . وحوماً العبد والجوارى . قمرتها الأنظار ، وترمق ما هي فيه من عز
ورفاهية . ويتكاثر حولها طلاب يلحوا من أعيان قريش ووجوهها ، فرفض كل
طلب من غير أن تفضل أحداً على أحد . وقد كانت بعيدة النظر عالية الهمة ،
ترسل أموالها في تجارة إلى الشام في مواسم معلومة . فتشترى ما يروق لها من أمتعة
الحند واليمن وسائر الأمصار ، لتبيحها بالريح الجزيل .

هبّت عاصفةٌ من عواصف الاضطراب في نفس السيدة خديجة على أثر حلّهم
 رائته ذات ليلة : فقد رأت فيها يراه التأمّ شمساً عظيمةً تهبط إلى منزلها من سماء مكة ،
 فيخمر ضوءها ما يحيط المنزل من أماكن وقاع ، قامت من نومها مضطربةً هائمةً
 وسارعت نحو دار ابن عمها (ورقة بن نوفل) وكان حبراً علماً بتأويل الأحلام ،
 وتعبير الرؤيا . وما كادت تُفصّل إليه بقصة رؤياها ، حتى تهلّل وجهه بشراً وقال
 لها : إنّ تلك الأنوار علامةٌ بحبّ خاتم النبيّين ، ودخولها المنزل - أي دار بنت
 عمه (خديجة) - دليلٌ على أنّها ستزوّج منه . كيف يتصوّر الإنسان مبلغ التأثيرات
 النفسية التي تملكك ذلك القلب النقي الطاهر ؟

أصبح خاتم الأنبياء بعد هذه الحادثة محوّراً آمالها ، وعطفاً أفكارها .
 بدأت تفكّر في حكمها الجميل ، وتنتظر بكل ما أوتيت من صبرٍ وجلدٍ هذا
 النبيّ العظيم .

وبينا نساء قريش يجتمعن في عيد فنّ بالكعبة الشريفة ، إذ تمثّل لمنّ رجلٌ
 من اليهود ، فلما قرّب نادى بأعلى صوته : يا نساء أهل مكة ، سيكون في بلدكنّ نبيٌ
 يُقال له (أحمد) فمن استطاعت منكنّ أن تكون له زوجةً فلتفضل ، فكلّفته وربّيته
 بالحصى ، وكانت بينهنّ خديجة فلم ترّمه كما فعلن . إنّما ظنّنت في مكانها واجبةً
 لاستطيع حركةً من كثرة ما انتابها من ضربات القلب .

رأت ما عمله النساء الأخريات ، فاحتبّت في أن تملك روعها . إذ كانت ترتعد
 ويرقص قلبها الطاهر ، وهي تفكّر في آمالها وأحلامها ، هل أدرك النسوة اضطراب
 أمنا السيدة (خديجة) وهن يرمين الرجل بالحصى ؟ إنّها لبشارةٌ عظيمة ، أحلّتها من
 نفسها العالية مكان الإجلال . إنّها لبشارةٌ كبرى . رأى العالم من ورائها كلّ خيرٍ
 وسعادة .

وكان للرسول الأكرم محمد بن عبد الله أمين قريش . وفخر الكائنات صلى الله
 عليه وسلم منزلةً ساميةً في نفس عمّه أبي طالب تفوق مكانة أولاده الذين من صلبه .
 كان يُجالسه ويؤاكله ، ويأنس به كلّ الأنس .

وبينا هما في مجلسٍ من تلك المجالس ومعهما (عاتكة) أخت أبي طالب ، وعمّة النبيّ
 (صلى الله عليه وسلم) وقد فرغوا من طعام العشاء ، فقام الأمين إلى شأنٍ من شؤونه .
 وإذا بعمّه يلتفت إلى أخته يقول لها مدفوعاً بعوامل الإعجاب والتقدير : لقد شبّ

محمد (صلى الله عليه وسلم) وصار رجلاً ، وأن له أن يتأهل ، فإذا ترين في ذلك ؟ فأجابت : إنه فقير ، وخليجة مثرية تتاجر بأموالها ، وتؤجر أناساً يخرجون بتجارها إلى الشام ، فليتها تعطيه بعض المال فيتاجر به ، ويعمل على غناه ، حتى تتوفر له نفقات العرس . فاستصوب الممّ هذا الرأي ، فاستدعى ابن أخيه وقال له : ها هي ذى نأقي ، أهيك إياها يا محمد . وليتك تتقدم إلى خليجة ، إنها تفضلك على غيرك ، وترسلك مع رجال ركبها إلى الشام . فتثوب إلينا راجعاً .

أما الأمين (صلى الله عليه وسلم) فكان جوابه لعمه : إذا شامت خليجة أرسلت تطلبنى . فأدرت العمّة من حوارها أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لن يسعى في الأمر بنفسه لما هو عليه من عزة النفس . ولذلك حوكت على أن تقوم هي بما يكفل له النجاة .

وقد تمّ لها ما أرادت . إذ أن خليجة ما كادت تسمع ما دار بين الممّ وابن أخيه حتى تذكّرت رؤياها ، وداخلها سرورٌ خفيٌّ لا تعلم مصدره .

نحيلُ إليها أن محمداً الأمين (صلى الله عليه وسلم) هذا هو خاتمُ النبيّين . فأجابت سؤال (عاتكة) وشفعت ذلك بطلبه إليها .

توجّه الأمين (صلى الله عليه وسلم) إليها وكان عمره وقتئذٍ خمساً وعشرين سنة ، فعرضت عليه أن يخرج في تجارة لها إلى الشام . وتعطيه أفضل ما كانت تُعطى غيره من التجار . وأشار عليه عمه بقبول ذلك . وطلب له أضعافاً فرضيت وसार بتجارها مع الركب إلى الشام ومعه عبدٌ لخليجة اسمه (ميسرة) ، فلما رجع بالبضائع إليها ، باعتبارها . فريحت أضعافاً . وكان هذا بدء تاريخ جديدٍ للسيدة خليجة مع محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) .

لقد جذب الرسول المادى (صلى الله عليه وسلم) أمّ المؤمنين بلطفه وشخصيته البارزة . وأخلاقه العالية . فوهبه قلبها . وتعلّقت فتمسّكها الطاهرة بسلك عبّته بكلّ ما فيها من قوّة وجلد .

فأكثر غبطة السيدة خليجة إذ عرفت هذا السيد الجليل ، وما كان أجدرها أن يتعلّق قلبها الطاهر به . وما أقوى نورَ فirasها إذ علمت أنه لا نظير له ، وأن سعادتها لا تتمّ إلا به . وما أحقّها أن تغتنم الفرصة ، وتسبق إلى تروّج هذا الشريف ، الذي جمع إلى شرف القسب شرف الخلال .

جلست أم المؤمنين ذات يوم تسبح في بحار من التفكير والتأمل ، ثم انتفضت فجأة ونادت مولاتها نفيسة ، وقد تمكن منها الشوق الشريف كل تمكن ، وأخبرتها أنها سترسلها إلى دار محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، فسألها عن سبب الرسالة فأجابت : لتعرفي حل له ميل للزواج أم لا ؟

فقامت على أثر ذلك تزور محمدًا (صلى الله عليه وسلم) في بيته .
جاءت نفيسة هذه محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، وبعد حديث قليل قالت له : ما يمنعك أن تزوج ؟

فاعتذر لها بقلّة المال ، اللازم للقيام بشئون العائلة .
فأجابته : فإن كُفيت ودُعيت إلى المال والجمال والكفاة ؟
فلما سمع النبي ذلك أجابها : ومن هذه التي تصفيها ؟
فأجابته في الحال : خديجة بكت خويلد .
فرد عليها (صلى الله عليه وسلم) : وهل يصح هذا الأمر ؟
فقالت : ما عليك لو قبلت ؟ أعليك ما فتعاعها .

قالت له ذلك ، وصمتت تنتظر ما سيبدو منه ، ولكنه ظل ساكنًا لا يجيب ، وأحدث هذا الكلام حركة في فؤاده ، وبأى شيء يتحدث ذلك القواد الطاهر حيثخذ إلا بقوله : خديجة الشريفة ، المعروفة بالطاهرة ، هي المناسبة ، هي الموافقة ، هي الصالحة ؟ اذهبي يا نفيسة فإني سأخطبها .
فرجعت وقد رأت منه هذا الحال ، تحمل إلى سيدتها بشرى القبول ، فأجزلت السيدة خديجة كرامتها .

ولقد نزلت هذه البشرى بردًا وسلامًا على قلبها ، فسرعان ما عيّنت موعد العقد في الحال ، وأرسلت نفيسة إلى دار الأمين (صلى الله عليه وسلم) قائلاً تخبره بالحضور إليها في اليوم المعين ، فقبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك مسرورًا ، وبدأ الطرفان منذ ذلك اليوم في معدّات العرس .

كانت السيدة خديجة وسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) يتقابلان قبل يوم الزفاف ، وقد استأذن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم عمّه في الذهاب إلى دار خديجة ، فأذن له ، ثم أرسل وراعه مولاته (عتبة) لترى ماذا يفعلان . وفيهم يتحادثان ؟ .
فتعقبته امتثالاً لأمر مولاها ، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد وصل قبلها ،

فأخذت السيدة خديجة رضى الله عنها تقول : بأى أنت وأبى . أقسم لئننى لأفعل هذا لربة أو سوء . ولما أطلب من المولى أمراً أرجو أن يتحقق ، وهو أن تكون نبيته المرسلاً . وإذا اختارك الله لهذا الأمر الجليل ، عرفت قدرى ورفضت شأنى ، ودعوت إلى الله من أبلى . فكل ما أطلبه من الله هو أن يجعلك لى .

فأجابها سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) بقوله : والذي نفس محمد بيده . لأتذكرن جميل صنعك معى إذا تم لك ما تشين . وأما إذا كان رسوله المختار غيرى فانك تصلين إلى غرضك إن شاء الله . ما دمتِ تفعلين كل هذا فى سبيل الرسول .

هذا مدار بينهما من الحديث . نقلته (حبة) إلى مولاها أبى طالب كما رأته وسمعتة . ثم أقبل القوم من بنى هاشم يوم الإملاك - وهو يوم القدر - وفيهم كريم فتياهم ، ونجيب عشيرتهم : محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) يحف به عمه : أبو طالب ، وحزرة . فزولوا من بنى عمهم أكرم منزل وأسناه ، حيث قابلهم واحتفى بهم عمرو ابن أسد عم السيدة خديجة (رضى الله عنها) .

وبعد أن اكتمل عقد اجتماعهم ، قام أبو طالب بن عبد المطلب سيد قريش وإمامها فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئصئى معدة ، وعنصر مفسر . وجعلنا حفنة بيته . وسؤاس حرمة . وجعل لنا بيتاً محجوباً ، وحرماً آمناً . وجعلنا حكام الناس » .

« ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلًا . وفضلاً وعقلاً . وإن كان فى المال قلًا ، فإن الماا ظل زائل . وأمر حائل . وعارية مستردة . وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل . وقد خطب إليكم رغبة فى كرميتكم وخديجة » وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله ست آواى من الذهب (وقيل أربعمائة دينار) .

ثم قام على أثر ذلك ابن عمها ورقة بن نوفل ، وهو الذى فسر لها رؤياها الجليلة . فقال :

« الحمد لله الذى جمعنا كما ذكرت . وفضلنا على ماعددت . فنحن سادة العرب وقادتها . وأنتم أهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس

فخرکم وشرکم ، فاشهدوا علیّ معشر قريش أنّی قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله .

وكان ورقة في موقفه هذا ، ينطق بلسان عمرو بن أسد عمّ خديجة ، فالتفت إليه أبو طالب وقال : يا ورقة ادع عمّها يشاركك في العقد .
فنهض عمرو بن أسد فقال :

« اشهدوا علیّ معشر قريش أنّی قد زوجت محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) خديجة بنت خويلد .

فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين السَّيرين . وبهذا أصبحت خديجة الطاهرة زوجة محمد (صلى الله عليه وسلم) . وهكذا صادق القوم على زواج النبي (صلى الله عليه وسلم) من أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد .

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) جالساً يجانبا أثناء العقد ، فلما انتهت الصيغة طلبت إليه أن ينحر جزوراً من الإبل التي أصلقها عمه أبو طالب مهراً ، فذبح إحداها في الحال وأطعم القوم ، وأمرت خديجة نساءها فرقصن وغنّين .
أما الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقد أقيم صدره سروراً ، حتى إن أباطالب عند ما لاحظ حاله الروحية حمد الله كثيراً .

سعادةً بالها من سعادة ، تلك الحياة الطيبة الصالحة . التي أمضاها النبي الهادي فخر العالمين (صلى الله عليه وسلم) مع سيدة النساء (خديجة أمّ المؤمنين) .

كانت خديجة في بيتها ، مع زوجها الجليل ، فخر الكائنات ، والمثل الأعلى في المودة والوداعة ، وحسن المعاشرة ، والرفع عن الكلفة ، وبذل المعونة ، تقوم بأداء واجباته ، وقضاء لوازمه بجلال خاص بها ، وتجهّد فوق ذلك كله بكل ما آتاه الله من ذكاء وفطنة ، وبكل ما جيّلت عليه من شفقة ورقّة أن تجعل أيام حياته تمرّ براحة وهناء ، وأنس ووفاء .

كان النبي (صلى الله عليه وسلم) في نظرها شخصاً فذاً . يستحق الحب الصادق والتقدير ، وما كانت تشاهده فيه من درجات الكمال . يزيد من قدر صفاته النادرة ، ومزاياه الجمّة رفعةً ؛ هذه الحالة الروحية دفعها إلى بذل النفس والتفيس في سبيل مرضاته وما فيه سعادته ، وأن تُبدّد بيدها الكريمة ما قد يتلبّد في سماء حياته من محب الموموم والأكدار .

إن الأخلاق القاضية ، والصفات الحسنة القطرية التي امتاز بها الرسول صلى عليه وسلم في تلك الأيام في بيته عمّ فيها الجهل ، والميل مع الأهواء ، لما يُلقت الأنظار . ويستوى الأبواب .

كان نبينا العظيم (صلى الله عليه وسلم) المثل الأعلى . والمعجزة الكبرى ، في نظر الجميع ، وليس في مقدور امرأة متوسطة الذكاء أن تشارك مثله في الحياة ، تقطع معه مراحل العمر .

ولقد كان رسولنا الهادي . ومرشدنا الأعظم (صلى الله عليه وسلم) موفور الحظ سعيد الطالع . إذ رزقه الله امرأةً سالحةً رقيقةً كخليفة ، ذات شخصية عالية ، تدرك جلال قدره . وعظيم استعداده ومواهبه ، فيلنّذ فكرها بمعنويته ، وتشاركه في توراتيته . وتعلّم بمهارتها كل أيام حياته .

كانت (السيدة خديجة) في نظره النخمة الحلوة التي لا تنساها الأذن ، والابتسامة العذبة التي لا يُمحى خيالها من صفحة الذاكرة .

مضت حياتهما المشتركة في وئام وسلام ، فقضيا خمسة وعشرين ربيعاً ، لم يعكّر صفوها عتابٌ صغير . أو غضبٌ طفيف .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخصّ زوجته باحترام كبير ، فلها في نفسه أسنى منزلة . وفي قلبه أسمى مكان . لا يفتأ يعترف بفضلها ، حتى إنه لم يخطر على باله طول معاشرته لها أن يتزوج من سواها ، مع أنها كانت أكبر منه سنّاً .

وله منها صلى الله عليه وسلم ستة أولاد : اثنان ذكور ، وأربع إناث ، وهم : القاسم . وعبد الله . وزينب . ورقية . وأمّ كلثوم وفاطمة الزهراء .

المحاضرة الثانية عشرة :

السيدة عائشة رضى الله عنها

١ - السيدة عائشة : هى بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، من أعلام قريش عزاً وجاهاً ، وأحد الأربعة المقرّين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمها (أم رومان بنت عامر بن حويمر) الكنانية .

عقد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم فى العام الثالث من انتقال زوجته السيدة خديجة إلى دار الخلد والبقاء ، إلا أنه لم يدخل بها فى عامه ، لأن الزمان والمكان لم يسمحا بتلك السعادة وقتئذٍ .

زفافها

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من هجرته من مكة إلى المدينة المنورة ، وعند ما وصل أهل أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى المدينة ، نزلوا فى بنى الحارث ابن الخزرج . وفى الشهر الثامن من الهجرة النبوية ، قام الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة من الأنصار ، فنزل دار صديقه فى الغار ، ودخل على السيدة عائشة رضى الله عنها ، وقد كانت هذه الزوجة الثانية المباركة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم الصادق الوعد الأمين ، صبيحةً حسناء ، ذات غضارة ونضارة .

وكانت أم المؤمنين (عائشة) ليبةً فطينةً شاعرةً خطيبة . يلقيها الرسول صلى الله عليه وسلم (بالحمراء) ، ويحبها محبةً أكيدة ، وكان من دواعى سروره صلى الله عليه وسلم أن يرضيها ، ويعمل ما فيه سرورها ، حتى توقفت محبتها لها ، وازدادت مكانتها فى قلبه الطاهر .

فن أمثلة محبتها لها ، أنه قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو جالسٌ عندها ما معناه :

« إننى أعلم وقت غضبك من حيث تقولين إذ تحلفين : ورب إبراهيم ، أما إذا كنت راضيةً عني ، فتحلفين رب محمد ، فأجابت : إننى يا رسول الله إذا غضبت أغفلت اسمك ، فأما جئ لك فلا يتغير . »

كان النبي صلى الله عليه وسلم أكثر أوقاته يجانب زوجته المحبوبة (عائشة) ،
وكان الناس أملاً في الحصول على رضا الرسول صلى الله عليه وسلم يتحرّون بهداياهم
يوم عائشة رضى الله عنها .

وكان الوحي ينزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو بجانبها ، فلذلك كانت السيدة
عائشة تشاركه في تأثراته النبوية . إذ كانت واقفة على دقائق أحواله وحركاته ، وكلّ
شأن من شئونه .

وقد شكّا زوجات النبي صلى الله عليه وسلم من تحرّى المسلمين يوم عائشة لهداياهم ،
فاجتمعن إلى (أم سلمة) التي تقدّمت بذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورجته
أن يُحدّر الناس من ذلك . فقال لها صلى الله عليه وسلم : لا تؤذيني في عائشة ، فإنه
والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها .

لم تياس (أم سلمة) من هذا الإخطار النبوي ، بل عادت إلى تحقيق أملها ، وتوسّلت
هذه المرة بفاطمة الزهراء التي جاءت إلى أبيها تخبره بذلك . إلا أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم سألها : هل تحبين من أحبّه ؟ فلما ردت عليه بالإيجاب ، قال لها : إذن
أحبي (عائشة)

لقد كانت لعائشة رضى الله عنها منزلة سامية في نفسه صلى الله عليه وسلم حتى
كان يقول لزوجها الطاهرة : إن حبّه لها كالعروة الوثقى لا انفصام لها .
فكانت السيدة عائشة تسأله من حين لآخر اطمئنناً على مكانة هذه المحبة فتقول :
كيف حال العروة يا رسول الله ؟ فيجيبها : إنها على حالها لم تتغير ولم تبدل .

قناعها وزهدا وإحسانها

وقد أثّرت تعاليمه العالية في نفسها الكريمة . ووجدت منبعاً صالحاً ، حتى تنسرب
قلبا النبيل مبادئ الزهد والتقناعة . فكان عروة بن الزبير يقول عنها :
رأيها تتصدق بسبعين ألف درهم في سبيل الله ، وهي في قميص حلتى .
وأخرج ابن سعد من طريق أم ذرة قالت :

أتيت عائشة رضى الله عنها بمائة ألف . ففرقتها وهي يومئذ صائمة ، فقلت لها :
أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تطعنين عليه ؟ فقالت (لو كنت
أذكرتني لعلت) .

صفات الشريفة وعلها الجم

السيدة عائشة رضي الله عنها ميزة خاصة ، وشرف وجلال بين غدّرات العالم الإسلامي لم تتوفر لسواها من السيدات ، فقد كانت أديبةً لينةً علّمةً خطيبةً شاعرةً ، من أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسنهم رأياً في العامة ، وعنها يقول عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بفقهِ ولا بشعرٍ من عائشة رضي الله عنها .

يا له من فخارٍ تحوزه السيدة عائشة ، تلك التي استطاعت في فترة قصيرة من حياة الرسول الشريفة ، أن تدخل عليه السرور والراحة ، وتعمّر قلبه بالنبذة والأنس فكانت أمام عينيهِ الشريفتين التمثال المحبّب للسعادة ، وما كان ينقصها في حياتها تلك إلا أن تكون أمّاً ، لكيلا تحرم من التكنّى باسم طفلها . إلا أن فخر الكائنات صلى الله عليه وسلم لم يدع ميلاً إلى نعمها من هذا القبيل ، فكنّاها بأبن أخها عبد الله بن الزبير إذ كان قد درج في البيت النبوي ، وشبّ بين أحضان العائلة النبوية المظهرّة .

وكانت من أحب خلق الله إليه هي وأبوها الصديق ، كيف لا ، وقد أضاعت حياة الرسول بعلمها وجمال نفسها ، حتى صارت الجوهرة اللامعة في تاج تلك الأيام السعيدة المباركة .

لقد كانت تاج الفخار في زمانها ، وخزينة السرور لسيد الكائنات ، فطوبى ، لتلك النفوس العالية التي ترك أثراً من السعادة والأنس والصفاء في محيطها التي تعيش فيه وفي الأحياء التي تشاركها ، والأشياء التي تلامسها .

ولكن مع الأسف الشديد حدث حادث مؤلم للسيدة عائشة غيّر قلب النبي صلى الله عليه وسلم عليها ، وحول بعض حبه عنها فترةً من الزمن قصيرة . وهذا الحادث هو حديث (الإفك) الوارد في سورة التّور من القرآن الكريم .

وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم استصحب زوجته السيدة عائشة في بعض الغزوات ، وبينما هو قافل إذ انقطع عقدها ، فرجعت لتلتزمه ، فظنّ سائس واحداً أنها في هودجها ، فسار مع الركب ، فلما رجعت لم تجد أحداً ، فكنت مكانها ، فرّ بها (صفوان بن المغيرة السلمي) فأرآها ، فأركبها ناقته ، فأوصلها إلى الجيش ، فأهجمها جماعة من المنافقين .

فلما تحدّث الناس بهذا الأمر ، وبلغ السيدة عائشة ، بكت حتى أصبحت لا يهدأ

لما ياك . ولا تكحل عنها بنوم ، فلما سمع أبوها أبو بكر بكاءها ونوحها ، طيب خاطرهما وقال لها : صبراً يا بُنَيَّةُ . صلى الله أن يُنزل في شأنك آية .

وبينا أبوها عندها وهي تبكي ، إذ استأذنت امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فلبثت تبكي معها . وبينا هم على تلك الحال إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس ، ولم يجلس عندها من يوم هذا الحادث ، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأنها بشيء .

فقشهد الرسول عليه الصلاة والسلام حين جلس ثم قال :
« أما بعد : يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة . فسيرك الله ، وإن كنت أَلَمْتُ بذنب ، فاستغفري الله وتوبى إليه . فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب . تاب الله عليه . »

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته ، استعصى دمعها ، لاستعظام ما بغتها به من الكلام . وقالت لأبيها وأُمُّها : إني والله لقد علمت أنكم معي ما تحدث الناس به حتى استقر بأنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت : إني بريئة ، والله يعلم إني لبريئة ، لا تصدقون ذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم إني منه بريئة لتصدقني ، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا (أبا يوسف) حين قال :
« فصبر جميل ” والله المستعان ” على ما تصيرون ” .

وبعد أن أتمت مقالتها . تحوكت واضطجعت على فراشها ، وهي تعلم أنها بريئة . وأن الله مبرئها .

وقد حدث ما كانت ترجوه إذ نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم آيات في براءة السيدة عائشة رضي الله عنها . قال الله تعالى :

(إِنَّ الدِّينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (الآيات) .

وقد زال بعد نزول هذه الآيات ما كان بين الرسول وزوجه من الجفاء بسبب حادثة العقدة . فعاشا في أُنسٍ عظيم . وراحة تامة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يأس بالسيدة عائشة رضي الله عنها أنساً عظيماً

حتى لم يَعتَرِ حَيْهَ لها بعد ذلك أدنى شائبة في وقت من الأوقات ، ولم تُبدُ حُماةً واحدةً
تَعَكَّرُ سماءَ معادنها منذ السنة السادسة حتى الحادية عشرة من الهجرة .

لقد وقفت حياتها في سبيل مرضاة الرسول ، وبذلت نفسها وحياتها في صيانة
ونشر الدين ، وفي إرضائه إلى درجة الكمال .

في السنة العاشرة من هجرة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، أعلن الهادي
صلى الله عليه وسلم أتباعه أنه سيزور مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، فتوافدت القبائل
والمشائر من الجهات زرافاتٍ ووحداً على المدينة المنورة ينتظرون اليوم للموعود .
ولأيامٍ قلائل بقيت من ذى القعدة ، خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطريق
بعد صلاة الظهر . ومعه أهل بيته وأصحابه ، وأربعون ألفاً من حجاج المسلمين ،
فوصل مع هذا الجمع الحاشد إلى مكة المكرمة في اليوم الرابع من ذى الحجة .
وبعد أن ابتهل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه ، وطلب المغفرة وحسن المآب ،
تقدمت إليه القبائل الوافدة من الجهات الأخرى . فأدى الجميع فريضة الحج .

وقد لاحظ الرسول أثناء سفره ، أن البعير الذي يحمل هودج السيدة عائشة يسير بسرعة
كبيرة لخفة جسمها ، ولقلة حملها ، بينما كان البعير الحامل لزوجها الأخرى (السيدة
صفية) يسير ببطء وهواقة ، لسمنها ولكثرة حملها ، فأمر الرسول بأن يُثقل حمل
السيدة عائشة إلى رحل السيدة صفية ، وحمل هذه إلى رحل الأخرى .

وجاء إلى عائشة يستسمحها لهذا العمل ، ففضبت من ذلك . فلم يحاوبها الرسول .
ولما وصلت الحادثة إلى مسامع أبي بكرٍ والدعا ، هروك نحو ابنته واحتدّ عليها ، فما
كاد الرسول يرى ذلك حتى أخذ صديقه ، فأجابه : ألم تسمع ما قالت لك ؟ فأفهمه
فخر الكائنات صلى الله عليه وسلم أن الذي دفعها إلى ذلك هو غيرها ، وأن المرأة إذا
عارت لا تلتري ما تقول ، بل تكيل القول جُرْفاً .

وكان يوم عرفات يوم الجمعة ، فأدى الرسول فريضة الحج مع مائة ألف من
المسلمين ، وعقب الصلاة خطبهم خطبةً بليغة يقال لها خطبة الوداع . وبعد الانتهاء من
الخطبة أذن ببلال ثم أقام ، وصلى صلوات الله عليه الظهر ، ثم أقام بلال فصلي العصر .
وفي مساء ذلك اليوم ، نزل عليه الوحي بقوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة . علم أبو بكر بقرب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فبكى .

وبعد أن خطب صلى الله عليه وسلم الناس . وألقى على جماعة المسلمين نصائح عديدة ، سواء في مكة أو في طريقه إلى المدينة ، أنبأهم وهو في موضع قريب من المدينة بقرب صعود روحه إلى الرفيق الأعلى ، وعند وصوله إلى المدينة مرض الرسول صلى الله عليه وسلم مرض الموت .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم هادئاً ساكناً في أشد أوقات مرضه ، وكانت السيدة عائشة تلازمه على الدوام ولا تفارقه لحظة واحدة ، وكان وهو على ركبها يسمع بلالاً مؤذناً للصلاة . فيقوم بقتل جهده وطاقته يصلي بالناس .

٢ - ولما اشتدت عليه صلى الله عليه وسلم وطأة المرض ، وكان ذلك قبل وفاته بثلاثة أيام عجز عن الخروج إلى الصلاة . واجتمع الناس في المسجد وآذنه بها ، فهم بالخروج فصجز ، قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » حتى إذا كان اليوم الثاني عشر من ربيع الأول رفعت روحه العالية إلى أعلى عليين حيث الرفيق الأعلى ، وهو في حضن زوجته أم المؤمنين عائشة ، وما كادت تشعر بذلك حتى أجهشت بالبكاء ، وكانت إذ ذاك في الثامنة عشرة من سني حياتها ، فانتزوت في كسر دارها مع جواريها تقطع مراحل العمر في هدوء وسكون ، وتقضي دقائق الحياة في تلاوة القرآن ، وعبادة الديان .

كانت على جانب عظيم من الذكاء . تلم بمسائل كثيرة من الفقه ، كما أنها كانت على نصيب والفر من سائر العلوم .

كانت أحب زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم إليه ، وقضت معه شطراً كبيراً من الحياة ، فلا غرو إذا وعث في حافظتها ما كانت تسمعه وتراه من ضروب الأحكام الدينية . والمعاملات الشرعية ، ولا عجب إذا رأينا الصحابة وعيون الأنصار ، يتخللونها مرجحاً في غير قليل من أحكام الدين ، ومسائل الشرع الشريف ، وقد ضربت يسهم وافر في الفتاوى الشرعية .

فكانت إذا ذكرت أمام عطاء بن أبي رباح قال : « كانت عائشة أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأياً في العامة » .

وعنها يقول عروة « ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بشعر من عائشة » .

بلغت الأحاديث التي روتها السيدة عائشة ألفين ومائتين وعشرة أحاديث . من ذلك مائة وسبعون حديثاً أجمع الاتفاق عليها ، وأخذ منها البخاري أربعة وخمسين حديثاً . أما فضلها وحسن رأيها ، فيكفي أن يركبها مثل معاوية بقوله « لم أسمع خطيباً أبلغ ولا أفصح من عائشة » .

وكانت تروى الشعر ، وتعلم وقائع العرب وحروبهم وسيرهم ، حتى إنه ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً .

وعندما أسس سيدنا عمر بن الخطاب ديوان بيت المال في زمان خلافته ، وخصص مرتبات سنوية لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان يعطى كل واحدة منهن عشرة آلاف درهم . إلا عائشة قد جعل لها اثني عشر ألفاً . وقد عارض بعض الناس في هذا الامتياز الصادر من رجل العدل عمرودون أن يفهموا الغرض منه . وسألوه عن السبب فأجابهم : ذلك لأن عائشة كانت محبوبة لرسول .

أما هي . فكانت تبدل ما لديها من مال ونشأ في وجوه البر والخير وتهوين حاجات أهل العور والمساكين . وفي إعلاء كلمة الدين .

كانت تزور الكعبة في كل عام ثم تعود إلى المدينة ، فهذه الزيارات التي دامت إلى السنة الرابعة والثلاثين من الهجرة . هي فترات الحركة في حياتها الساكنة . فقد أمضت أيام حياتها على نسق واحد من النظر في شئون الخير . ومن التفرغ إلى العبادات . وعلى ما يستصحب على المسلمين من الأحكام والمعاملات .

وكان لأهل المدينة عاطفة حب شديدة . واحترام فائق نحو شخصها المحبوب . إذ كانوا يقدرون ذكائها ، ويُبَاهون بحسن رأيها ، ويرون في زوجة الرسول المعززة بين ظهراتهم ، الذكرى الخالصة التي تذكّرهم بأيام السعادة واخلاء والصدق والوفاء . ولها خطب ووقائع شهيرة . وكانت هي السبب في واقعة الجمل المشهورة في الإسلام حصة الزبير وطلحة . وهي تتلخص فيما يأتي :

واقعة الجمل

وهي أن عائشة خرجت من المدينة إلى مكة . وسيدنا عثمان محصور . ثم رجعت من مكة تريد المدينة ، فلقيا في الطريق عبيد بن أبي سلمة أحد أولاد خالها . فقالت له : ما وراك ؟ قال : قُتِل عثمان . قالت : فما صنع الناس بعده ؟ قال : استهزوا

وباعوا علياً . قالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ، ودوني ، فانصرفت إلى مكة وهي تقول : قُتِلَ عُمَانٌ مظلوماً ، والله لأطلين بدمه .

ولما رجعت إلى مكة . ذهبت تَوَّأ إلى الحجر الأسود . وجمعت النَّاسَ وخطبتهم خطبةً بليغة مؤثرة . أفهمتهم فيها بقتل عُمَانٍ ضلماً . وحشَّتهم على طلب دمه .

فأثَّرت هذه الخطبة في نفوس الكثيرين . وتبعها عدد كبير من أهل البصرة ، حتى بلغ عدد جيشها ثلاثين ألف مقاتل . من بينهم طلحة والزبير بن العوام .

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قام وخطب في النَّاسِ وأعلمهم الحال وقال : لَهَا قَتْنَةٌ ، وسأُمسك الأمر ما استمسك يدي .

وسار إليهم في عشرة آلاف . والتقى الجمعان بظاهر البصرة في مكان يسمى (الخريبة) وجرت خطوطٌ وحروب . وانتهت بهزيمة جيش عائشة ، وقتل طلحة والزبير بن

العوام رضي الله عنهما .

وكانت السيدة عائشة على جملٍ في هودج تراقب حركة القتال ، وقد تراءى جُندُها على الموت . وسُميت هذه الواقعة « بواقعة الجمل » . وكان خاتمة القتال سقوط الجمل

بما غشيه من النَّبَالِ . وبقيت السيدة عائشة في مغفرها حتى المساء . وكان أنحوا محمد ابن أبي بكر من أصحاب علي كرم الله وجهه . فأمره أن يمضي إلى أخته وينظرها هل

هي سليمة أم لا ؟ ثم أدخلها ليلاً إلى البصرة في دار عبد الله بن خلف . وظلَّت هناك حتى أوَّل شهر رجب بأمر الإمام عليّ . وأحسن إليها كرم الله وجهه غاية الإحسان .

وجَهَّزَهَا بكلِّ ما ينبغي . وقد أذن لها بالرجوع . واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات لأجل مؤانئها في الطريق . وسيرها مصحبة أخوها محمد بن أبي بكر

مكرمة . و« تسعها ولدا الإمام عليّ » : الحسن . والحسين رضي الله عنهما .

فكان يوم رحيلها حضر الإمام وحضر النَّاسُ ، فقالت عائشة رضي الله عنها : يا بني لا تعجب بعضُ علي بعض . إنه والله ما كان بيني وبين عليّ في التقديم إلا

« يكون بين امرأة وأُمِّها » . وإنه على معتقني نبي الأخيار .

وقال علي كرم الله وجهه : والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك . ولها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة

تم سارت . وتبعها الإمام أميلاً . وتوجَّهت إلى مكة وأقامت بها إلى أيام الحج وانصرفت إلى المدينة .

خلاصة تاريخ حياتها

لو استثنينا واقعة الحمل ، لرأينا أن السيدة عائشة أمّ المؤمنين قطعت المرحلة الطويلة من حياتها من السنة العاشرة للهجرة إلى الثانية والخمسين منها في العبادة وتلاوة القرآن ، والتضرّع إلى الله ، وفي وجوه البرّ والمواساة ، وزوايا الأحاديث ، وتخريج المسائل الفقهية .

على هذا المتوال البديع سارت السيدة عائشة في حياتها بالحميلة . تلك الحياة التي وقفنا في سبيل إعلاء كلمة الحقّ والدين .

من أجل ذلك أحبها النّاس . ومن أجل ذلك كان يتباهى بها أهل مكة . ويقتخر بشخصها الكريم أهل المدينة .

أقرّ علماء زمانها ، وفحول الرجال من معاصريها بنبوغها وتفوقها حتى ذاعت شهرتها في الممالك والأمصار .

انطوت صفحة حياتها الخالدة ، وانتهت في العام الثامن والخمسين من الهجرة . حيث نزل بها قضاء الله الذي لامرّد له ، وكانت وصيتها عند ما وافاها القدر المحتوم أن تُسلّمَن بالبيعة .

توفيّت إلى رحمة ربها في الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان المكرّم ، ودفنت في تلك الليلة بالبيعة . ومشى جميع أهل المدينة في جنازتها . وقد صلى عليها أبو هريرة رضي الله تعالى عنه . أما الذين نزلوا قبرها فهم : عبد الله ، وعروة ولدا الزبير . والقاسم وعبد الله ولدا محمد بن أبي بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن .

ماتت السيدة الفاضلة من خلععات جليلة . وحسنات شهيرة إلى الأمة الإسلامية . فتركت وراءها ذكرى خالدة . وسمة طيبة .

والسلام عليها يوم ماتت ، ويوم تبعث حيّة .

وأرجو الله أن يوفّق نساءنا المسلمات للعمل بسيرتها واتّباع سنّها .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

ملحوظة هامة :

هناك محاضرات أخرى ألفت بدار الجمعية في الموضوعات الآتية :
اختلاط النساء بالرجال ، العمة حجابٌ يمزقه الاختلاط ، تبرُّج النساء ، أرياء
النساء ، النساء العاريات ، حكم التبرية الفراء في المعنيات والراقصات ، وغير ذلك .
وجميعها مذكورٌ في كتاب « مرشد الأنام لمعرفة الحلال من الحرام » المطبوع
« بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر » ولا داعي لتكرارها هنا .
والصلاة والسلام على خير الأنام ، في المبدأ والختام .

بحمد الله تعالى وحسن توفيقه تم طبع كتاب :

المحاضرات الفكرية

للسيد علي فكري

مصححاً بمعرفة لجنة التصحيح برئاسة : الشيخ أحمد سعد علي

القاهرة في { ١٦ ربيع الثاني ١٣٧١ هـ
١٤ يناير ١٩٥٢ م

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبي

ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران

فهرس

المحاضرات الفكرية

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٣١	الثاني : الكتب الصادرة كالروايات	٣	الإهداء
	الغرامية والتمهص الحرافيه	٥	كلمة الأستاذ محمد فريد وجدى بك
٣٢	الثالث : الصحف الساقطة	٧	كلمة المرحوم الشيخ محمد الحسنى
٣٣	الرابع : دور التمثيل المهنى		الظواهرى
٣٤	الخامس : دور التمثيل الصامت	٨	كلمة الدكتور الحاح أحمد عارف
٣٦	المحاضرة الخامسة : التربية الأخلاقية		الودينى
	وأثرها فى ارتقاء الأمم	٩	المقدمة
٣٩	المحاضرة السادسة : الحقوق والواجبات	١٠	المراجع
٤٠	الحقوق الطبيعية	١١	المحاضرات العلمية فى عهد النبوة
٤١	الانتحار	١٢	أولا - المحاضرات الخاصة بالرجال
٤٣	حق الحرية		المحاضرة الأولى : التقوى
	معناها والغرض منها	٢١	المحاضرة الثانية : الاستقامة
٤٥	أنواع الحرية	٢٣	الاستقامة سبب السعادة والسلامة
	النوع الأول : الحرية انشخصية	٢٤	هل يستقيم الطل والعود أعوج ؟
	الرق		عدم الاستقامة سبب المضحية والملامة
٤٧	النوع الثانى : حرية الفكر	٢٥	كلمة ختاميه
٤٨	النوع الثالث : حرية المسكن	٢٧	المحاضرة الثالثة : مرض الأخلاق
	النوع الرابع : حرية العمل والصحة		وعلاجه
	والتجارة		علاج سوء الخلق
٤٩	النوع الخامس : الحرية المدنية	٢٩	المحاضرة الرابعة : مفهوم الأخلاق
٥١	النوع السادس : حرية القضاء		وتقسم إلى عدة أقسام :
٥٢	النوع السابع : الحرية السياسية		الأول : الاختلاط بفلسفى الأخلاق

مصحفة	الموضوع	مصحفة	الموضوع
٥٧	النوع الثامن : حرية الأئمة واستقلالها	٧٣	٧ - أوامر الله تعالى للأوصياء
٥٤	المحاضرة السابعة : الشرف		في أموال اليتيم والسفهاء
٥٨	وسائل الشرف	٧٥	٨ - اللقطات
١ - شرف الملوك		٧٦	٩ - الأمانات التي يتقلها شخص
٢ - شرف الوزراء والحكام			إلى آخر
٥٩	٣ - شرف القضاة	٧٧	القسم الثاني : المعاملة الأدبية
٤ - شرف المحامي		٧٩	مثال في الوفاء بالوعد
٥ - شرف الطبيب		٨٠	للمعاملة في حسن المعاملة
٦ - شرف مهتمسى الرى		٨١	المحاضرة التاسعة : المال
٧ - شرف الجندي		٨٢	المال في نظر خواص البشر
٦٠	٨ - شرف المعلم والعلامة	٨٣	ليست السعادة في الجشع والإيغال
٩ - شرف الموظفين			في جمع الأموال
١٠ - شرف التاجر		٨٤	المحاضرة العاشرة : البدع في الموالد
١١ - شرف الرارع		٨٥	حول التبشير والمبشرين
٦١	١٢ - شرف النصانع	٨٧	انصار الدين على المدنية
١٣ - شرف الصمخى		٩٠	الدعوة إلى الدين
٦٢	المحاضرة الثامنة : الدين المعاملة	٩٢	أثر الدين في النفوس
	القسم الأول : المعاملة منادية	٩٤	لأسعاده إلا بالدين
٦٤	١ - البيع والشرء	٩٦	المحاضرة الحادية عشره : كيف
٦٦	التاجر الأمين		نربي أبناءنا
٦٧	التاجر الفاضل	٩٩	كيف نربي بناتنا
	مثال لتاجر الصادق	١٠١	المحاضرة الثانية عشرة : الواجب
٢ - الإجارة		١٠٣	أداء الواجب
٦٩	٣ - الاستعارة	١٠٦	المحاضرة الثالثة عشره : العفاف
٤ - الاستدانة			وأقسامه
٧٠	٥ - الأمانات والودائع	١٠٧	أقسام العفة
٧٢	٦ - الوصيات على القاصرين	١٠٩	ذكر ما قيل في العفة

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
١٣٧ المحاضرة الثامنة عشرة : شياثله		١١١ عفاف الرجل	
وصفاته عليه الصلاة والسلام		١١٣ عفاف المرأة	
١٤٠ حالته المعاشية		أمثلة من عفاف الرجل	
١٤٣ ملحوظة عن محاضرات أخرى		١١٥ لاتأكلوا أموال الناس بالباطل	
١٤٤ ثانياً - المحاضرات الخاصة بالإناث		١١٦ العفاف فرين العدل والإنصاف	
المحاضرة الأولى : تربية البنات		الرجل التزيه والغلام الصادق	
١- تربية البنات عند قدماء		نزاهة قوسيون	
المصريين وحظ النساء منها		١١٧ نزاهة هنرى دى مسم	
١٤٥ ٢ - تربية البنات عند اليونان		١١٨ المحاضرة الرابعة عشرة : عزة النفس	
« في إسبرطه »		أو الكرامة	
١٤٦ ٣ - تربية البنات في أثينا		١٢٠ ذكر ما قيل في عزة النفس	
١٤٧ ٤ - تربية البنات في عصر الدولة		١٢٣ ١ - كريم النفس خير من كريم	
الرومية		المال	
١٤٨ ٥ - تربية البنات في العصر الجاهلي		٢ - كريم النفس يصونها عن	
نساء العمالة		ذلّ السوءال	
١٤٩ الداء في العصر الإسلامي		٣ - عزيز النفس لا يطيق الهوان	
١٥١ المحاضرة الثانية : واجبات المرأة		٤ - كيف تذللّ النفوس الأبية	
١ - نحو زوجها		١٢٤ المحاضرة الخامسة عشرة : السعادة	
٢ - نحو أولادها		ووسائلها	
١٥٢ ٣ - نحو مزملها		١٢٧ الخلاصة في السعادة	
١٥٤ محاضره الثالثة : المرأة ووظيفتها		١٢٨ المحاضرة السادسة عشرة : التذكير	
الدليل الأول على وظيفة المرأة التي		بمولد البشير النبير	
خلقت لأجلها		الفصل من الاحتفال بمولد النبي	
١٥٥ الدليل الثاني		صلى الله عليه وسلم	
١٥٦ الدليل الثالث		١٣١ المحاضرة السابعة عشرة : خلاصة	
١٥٧ الدليل الرابع		سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم	
١٥٨ ليس للمرأة أن تتناول إلى أعمال		نبي الإسلام في أدوار حياته	
الرجال وبالعكس			

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
فضل المرأة للثبيرة	١٨٤	وظيفة المرأة	١٥٨
المخاضرة العاترة : محال مساواة المرأة بالرجل	١٨٦	المخاضرة الرابعة : صفات المرأة الماخضلة	١٦١
هل يمكن أن تساوى المرأة مع الرجل فى الحقوق والواجبات	١٩٠	المخاضرة الخامسة : عفاف المرأة ناحها	١٦٤
آراء بعض علماء الإفرنج بأن المرأة لايلزم أن تتعدى وظيفتها ، وبأن اشتغالها بأعمال الرجل مقوص لبناء المدنية ، معسد لطعام العائلة	١٩٢	أمثلة من عفاف المرأة	١٦٥
المخاضرة الحادية عشرة : السيدة حديجة رضى الله تعالى عنها	١٩٦	١ - المرأة العميمة	
المخاضرة الثانية عشرة : السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها	٢٠٣	٢ - مثال لعفة ليلي الأحييلية	
رفافها		المخاضرة تاح المرأة	١٦٦
قناعها وزهدا وإحسانها	٢٠٤	العمة والأمانة	١٦٧
صفاتها الشريفة وعلمها الجلم	٢٠٥	كيف تحافظ المرأة على عفافها ؟	١٧٠
واقعة الجلم	٢٠٩	المخاضرة السادسة . حرية المرأة	١٧١
خلاصة تاريخ حياتها	٢١١	المخاضرة السابعة : تساهل الرجال سيب فساد النساء	١٧٦
		المخاضرة الثامنة : مسئولية المرأة فى تربية أولادها	١٨٠
		المخاضرة التاسعة : مسئولية المرأة فى تدبير منزلها	١٨٣

للمؤلف :

- ١ - المعاملات المادية والأدبية (أربعة أجزاء)
- ٢ - خلاصة الكلام في أركان الإسلام
- ٣ - مرشد الأنام لمعرفة الحلال والحرام
- ٤ - البيان الفاصل بين الحق والباطل

تطلب من :

مكتبة مصطفى البابی الحلبي وأولاده

مصر - م - ب . القورية ٧١

